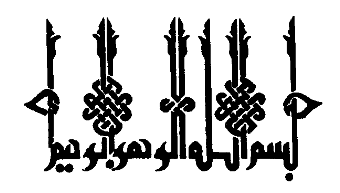
دراسات
حول القرآن



دراسات حول القرآن

الجزء الأول

تاريخه - وجوه إعجازه - حكم ترجمته
تفسيره ومفسروه

دكتور
إسماعيل أحمد الطحان
أستاذ مساعد بجامعة قطر



مكتبة الفلاح
الكويت

الطبعة الاولى

١٤٠٤هـ / ١٩٨٤م

مكتبة الفلاح - الكويت

شارع بيروت مقابل بريد حولي

ص . ب ٤٨٤٨ تلفون : ٢٥٤٧٧٨٤

برقياً : لفاتكو

مقدمة

الحمد لله رب العالمين ، والصلاة والسلام على أشرف المرسلين سيدنا محمد النبي الكريم ، وعلى آله وصحبه أجمعين وبعد

فإن الدراسات القرآنية من أعز تراثنا الثقافي ، وأغناها بالفكر الإسلامي ، وقد تعددت جوانبها ، وتنوعت مقاصدها فكان منها دراسات تناولت النص القرآني بالدراسة اللغوية ، أو بالدراسة التشريعية ، وربما جمعتهما معا الدراسة التفسيرية وأحرى بهذه الدراسة أن تسمى (بدراسات في القرآن) لاتصالها بنصه .

وكان منها دراسات تناولت تاريخ القرآن وتوثيق نصه وكيفية تنزلاته ، وما اتصل بها زمانا ومكانا ، وأحرى بهذه بالدراسة أن تسمى (بدراسات حول القرآن) فهي تتعلق به وإن لم تتصل بنصه .

ومن ثم كان اختيارنا لها عنوانا على دراستنا تلك . ومعظم مباحث هذه الدراسة الأخيرة يطلق عليها كثير من الكاتبين (علوم القرآن) وقد تسمى (بأصول التفسير) حيث يستند إليها المفسر في تفسير القرآن .

وهي دراسات قديمة قد يرجع تاريخها إلى القرن السادي الهجري ، أو إلى ماقبل ذلك ؛ إذا اعتبرنا منها ما صدرت به كتب التفاسير ، كمقدمة تفسير ابن جرير الطبري ت (٣١٠هـ) غير أن بعض الباحثين قد يؤرخون لها حين ظنوا ظهورها مستقلة عن التفسير في مستهل القرن الخامس الهجري على يد (علي بن

ابراهيم بن سعيد الشهير بالحوفي ت ٤٣٠هـ) ، ولكنه ظنّ لم يعن عليه التحقيق ؛ إذ تبين أن الحوفي لم يزد في صنيعه عمن سبقه من تصديرها مقدمات للتفسير[1] .

وقد حظيت هذه الدراسة بنصيب وافر من المؤلفات ، كان من أسبقها شمولا وإحاطة كتاب (البرهان في علوم القرآن) للإمام بدر الدين محمد بن عبد الله الزركشي (٧٤٥ ـ ٧٩٤هـ) ذكر فيه سبعة وأربعين نوعا من أنواع علوم القرآن .

ثم قفاه وداناه حصرا وشمولا كتاب (الإتقان في علوم القرآن) للإمام جلال الدين السيوطي (٨٤٩ ـ ٩١١هـ) وقد أفاد من برهان الزركشي الشيء الكثير ، وصار هذان المؤلفان مرجع الخالفين في علوم القرآن .

غير أنه يؤخذ عليهما ذكرهما لمرويات ليست صحيحة دون التنبيه عليها ، أو التنزه عن ذكرها ، وقد تابعهما كثير من الباحثين فنقلوا عنهما كثيرا من هذه الروايات دون تمحيص ، مما أشاع حول هذه الدراسات القرآنية جملة من الشبهات أثارها المستشرقون ، والدارسون غير المنصفين . .

لهذا حملت نفسي عبء هذه الدراسة لتكون زادا طيبا أمام طلاب الدراسة الجامعية ، ومحبي هذه الثقافة الإسلامية فتخيرت من الرواية أوثقها ، ومن الآراء ما يستقيم بالحقيقة على وجه مقبول ، يسيغه المنطق ، ولاتنكره الآثار ، وتوخيت إيجاز الفكرة دون إخلال ، وتحاميت الولوج بالدارسين إلى مسالك وعرة تأخذ عليهم الطريق من بدايتها فيصدون عنها ، وهم راغبون فيها ، وإنما استشرفت بهم آفاقا من المعرفة تشوقهم إلى الاستزادة منها بقدرتهم الذاتية ، وطاقتهم على النقد والتمحيص كلما ارتقت بهم الدراسة في هذا المجال .

---

(١) قارن بمناهل العرفان للشيخ عبد العظيم الزرقاني ١/٢٧ ، والمدخل للدكتور محمد أبو شهبة/ ٣٦ .

والله أسأل أن يجعله عملا متقبلا صوابه مغفورا خطؤه ، وهو حسبي ونعم الوكيل .

دكتور
اسماعيل الطحان

الدوحة في : رجب ١٤٠٤هـ
إبريل ١٩٨٤م



الفصل الأول

القرآن الكريم
تعريف وتاريخ



القرآن الكريم
تعريف وتاريخ

لفظ القرآن :

ذهب المحققون من الأصوليين ، والفقهاء ، وعلماء العربية إلى أن لفظ (القرآن) علم شخصي اختاره الله تعالى اسما لوحيه المنزل على نبيه محمد صلى الله عليه وسلم للهداية والإعجاز . فقال تعالى ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا لِّتُنذِرَ أُمَّ ٱلْقُرَىٰ وَمَنْ حَوْلَهَا . . ﴾[1] وقد تفرد الوحي بهذا الاسم دون سائر كلام العرب لما تفرد به من خصائص الإعجاز[2] .

وذهب العلماء في تأصيل لفظ (القرآن) مذاهب شتى :

١ ـ فيذهب الشافعي إلى أن لفظ (القرآن) المعرف بأل ليس مشتقا ولا مهموزا بل هو علم مرتجل على الوحي المنزل على محمد صلى الله عليه وسلم ، كما وضع لفظ (التوراة) علما على الوحي المنزل على موسى عليه السلام ، ولفظ (الانجيل) على الوحي المنزل على عيسى عليه السلام .

٢ ـ ويذهب الفراء إلى أنه غير مهموز ولكنه مشتق من القرائن ، جمع (قرينة) ؛ لأن الآيات فيه يصدق بعضها بعضا .

---

(١) الشوري / ٧

(٢) سمي العرب جملة كلامهم (ديوانا) وسمي الله جملة الوحي (قرآنا) وبعض كلامهم (قصيدة) وبعض الوحي (سورة) وبعض القصيدة (بيتا) وبعض السورة (آية) .

٣ ــ ويذهب الأشعري أيضا إلى أنه غير مهموز ولكنه مشتق من (قرن) الشيء بالشيء إذا ضمه إليه ؛ لأن السور والآيات تقرن فيه ويضم بعضها إلى بعض .

وعلى المذهبين الأخيرين تكون نون (القرآن) أصلية .

٤ ــ ويذهب أبو إسحاق الزجاج إلى أنه مهموز على وزن (فعلان) مشتق من (القرء) بمعنى الجمع لجمعه السور ، أو ثمرات الكتب السابقة .

٥ ــ ويذهب اللحياني إلى أنه مهموز أيضا ولكنه مصدر كالغفران لقرأ بمعنى تلا ، وسمي به المقروء من تسمية المفعول بالمصدر وقد جاء استعمال القرآن بهذا المعنى المصدري في قوله تعالى :﴿إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُۥ وَقُرْءَانَهُۥ ﴿١٧﴾ فَإِذَا قَرَأْنَٰهُ فَٱتَّبِعْ قُرْءَانَهُۥ﴾[1] أي قراءته .

ومذهب الزجاج واللحياني أرجح المذاهب في تأصيل هذا اللفظ ، وأدناها إلى قواعد الاشتقاق ، وموارد اللغة .

أسماء الوحي :

ولهذا الوحي المنزل على نبينا محمد صلى الله عليه وسلم أسماء أخرى غير القرآن ـ وإن كان القرآن أشهر أسمائه ، منها :

١ ــ الكتاب ، قال تعالى : ﴿ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَىٰ عَبْدِهِ ٱلْكِتَٰبَ وَلَمْ يَجْعَل لَّهُۥ عِوَجَا ۜ . . ﴾[2] .

(١) القيامة / ١٧ ، ١٨
(٢) الكهف / ١

٢ ـ الفرقان ، قال تعالى : ﴿ تَبَارَكَ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِۦ لِيَكُونَ لِلْعَٰلَمِينَ نَذِيرًا ﴾[١] .

٣ ـ التنزيل ، قال تعالى : ﴿ وَإِنَّهُۥ لَكِتَٰبٌ عَزِيزٌ ﴿٤١﴾ لَّا يَأْتِيهِ ٱلْبَٰطِلُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِۦ ۖ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ ﴾[٢] .

٤ ـ الذكر ، قال تعالى : ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ﴾[٣] ولا التفات بعد ذلك لما تكلفه بعض العلماء من أسماء أخرى لهذا الوحي كالعلي ، والمجيد ، والعزيز ، والعربيّ فهي لصفاته أدنى من أسمائه .

ولعل في تسميته (قرآنا) إيماءة إلى حفظه في الصدور ، وفي تسميته (كتابا) إشارة إلى جمعه في السطور لتكون العناية به مزدوجة : حفظا ، وتسجيلا ، ولا تغني إحداهما عن الأخرى[٤] .

[تعريف القرآن] :

والوحي بأي اسم سميته فسيظل (القرآن) أشهر أسمائه دلالة عليه ، ومن ثم احتشد جهد العلماء من متكلمين ، وأصوليين وفقهاء ، ولغويين ليضعوا للقرآن تعريفا . وكان لكل وجهته ، غير أنهم مع اختلاف وجهاتهم قد اتفقوا على تعريف للقرآن صاغوه من مجموع الصفات الخاصة به ؛ كالإنزال والاعجاز ، والنقل بالتواتر ، والتدوين في المصاحف والتعبد بتلاوته .

---

(١) الفرقان / ١

(٢) فصلت / ٤١ ، ٤٢

(٣) الحجر / ٩

(٤) راجع : النبأ العظيم د. محمد عبد الله دراز / ١٢ ، ١٣

إلا أن منهم من أخذ بجميع هذه الصفات في تعريفه فقال : [هو كلام الله تعالى المنزل على نبيه محمد صلى الله عليه وسلم للهداية والإعجاز ، المنقول إلينا بالتواتر ، المدون في المصاحف من أول سورة الفاتحة إلى آخر سورة الناس المتعبد بتلاوته] . ليكون تعريفه صالحا لمن أدرك عهد النبوة ، ولمن لم يدركه .

ومنهم من اقتصر على الإنـزال ، والإعجاز ؛ لتحقق القـرآن بهما في زمن النبوة ، دون سواهما .

ومنهم من اقتصر على النقل بالتواتر ، والتدوين في المصاحف لأنهما يكفيان في تحصيل الغرض وهو بيان القرآن وتمييزه عن جميع ما عداه .

ولما كان مقام التعريف مقام إيضاح ترجح لدينا الأخذ بالتعريف الجامـع لصفـاته حيث روعي فيـه صلاحيتـه لكل زمـان منذ عهـد النبـوة إلى أن تقـوم الساعة .[1]

وكل قيد في هذا التعريف قد أخرج ما عداه ، فخرج بقولهم (كلام الله) كلام الإنس والجن والملائكة . (المنزل) مخرج للكلام الإلهي الذي استأثر الله به في نفسه أو ألقاه إلى ملائكته ليعملوا به لا لينزلوه على أحد من البشر . وتقيد المنزل (على محمد) لإخراج ما أنزل على الأنبياء من قبله كالتوراة المنزلة على موسى عليه السلام ، والإنجيل المنزل على عيسى عليه السلام والزبور المنزل على داود عليه السلام ، والصحف المنزلـة على إبـراهيم عليه السـلام . وخرج (بـالإعجاز) الأحاديث القدسية ـ على الرأي بأن لفظها من عند الله ـ وبهذا تميز القرآن عما عداه في زمن النبوة .

---

(١) راجع مناهل العرفان للشيخ عبد العظيم الزرقاني جـ١ / ١٢ ، ١٣

أما (نقله بالتواتر وتدوينه في المصاحف) العثمانية فمخرج لكل كلام نسب إلى الله تعالى توهما كإضافات الصحابة رضوان الله عليهم إلى النص المنزل للتفسير والإيضاح كقول ابن مسعود (متتابعات) عقب قوله تعالى ﴿ فَصِيَامُ ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ ﴾[1] فإنها ليست من القرآن في شيء لعدم التواتر في نسبتها إلى الله تعالى . ومن ثم لم تدون في المصاحف العثمانية ، وبدهي أن ذلك التوهم كان بعد وفاة النبي صلى الله عليه وسلم وانتهاء الوحي .

وبقي من خصائص القرآن (المتعبد بتلاوته) أي المأمور بقراءته في الصلاة فلا تصح صلاة بدون قراءة شيء منه وهي في التعريف زيادة إيضاح وليست قيدا مخرجا لشيء ، مثلها في ذلك مثل خصيصة (لا يمسه إلا المطهرون) .

والقرآن بعد ذلك علم شخصي على الكل وأجزائه بطريق الاشتراك اللفظي ، وهو ما يفهم من كلام الفقهاء (ويحرم على الجنب قراءة القرآن) فإنهم يقصدون قراءة كله ، أو بعضه على السواء[2] .

---

(١) المائدة / ٨٩

(٢) راجع مناهل العرفان ١/ ١٥ ، ١٦

الفرق بين القرآن والحديث القدسي والنبوي

نزول القرآن لفظا ومعنى :

لا خلاف بين علماء المسلمين الأجلاء على أن الرسول تلقى القرآن لفظا ومعنى من لدن ربه تعالى . ولا التفات إلى زعم من قال : إن جبريل عليه السلام كان ينزل بمعانى القرآن ، والرسول يعبر عنها بلغة العرب . ولا إلى من زعم أن جبريل تلقى من الله معانى القرآن ثم عبر عنها جبريل بلغة العرب ثم نزل به إلى النبي كذلك . فكلاهما زعم باطل ؛ فإن آيات الوحي تقطع بنسبة الألفاظ والمعانى إلى الله تعالى كما في قوله تعالى ﴿ وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ٱسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلَـٰمَ ٱللَّهِ ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُۥ ﴾[1] ، وكما في قوله تعالى ﴿ تَنزِيلُ ٱلْكِتَـٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ ﴾[2] .

وليس في قوله تعالى ﴿ نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ ﴿١٩٣﴾ عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُنذِرِينَ ﴿١٩٤﴾ بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ ﴾[3] شاهد على ما يزعمون ، فإن القلب كما ينزل عليه المعنى ، ينزل عليه اللفظ ، وإنما آثر الحق تبارك وتعالى هذا التعبير للدلالة على أن القرآن كما وعته الآذان ، وعاه القلب اليقظان[4] .

---

(١) التوبة / ٥

(٢) الزمر / ١

(٣) الشعراء / ١٩٣ ـ ١٩٥

(٤) المدخل لدراسة القرآن . د. محمد أبو شهبة / ٦٦

كما أن من المتفق عليه بين علماء المسلمين تلقى الرسول عن ربه وحيا سوى القرآن ، فقد ثبت عنه صلى الله عليه وسلم أنه قال (**ألا إني أوتيت القرآن ومثله معه**) . ولعل هذا القول هو ما حمل الإمام الشافعي رضي الله عنه أن يفسر الحكمة بالسنة في قوله تعالى ﴿ وَأَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكَ ٱلْكِتَـٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ ﴾[1] .

الحديث القدسي

غير أن للعلماء تفصيلا فيما تلقاه الرسول عن ربه سوى القرآن فقد انعقد إجماعهم على أن ما تلقاه الرسول عن ربه هو الحديث القدسي ، ولكن اختلفوا في المتلقى منه أهو معناه فقط ، أم لفظه ومعناه ؟ أكثر العلماء على أن لفظه ومعناه من عند الله وحينئذ يفرقون بينه وبين القرآن بأن الحديث القدسي لم يقصد بلفظه الإعجاز .

ويرى آخرون أن معناه من عند الله ولفظه من عند الرسول صلى الله عليه وسلم حيث لا دليل من الشرع على الرأي الأول . وممن يرى الرأي الثاني المرحوم الدكتور محمد عبد الله دراز ، فيقول : وهذا هو أظهر القولين فيه عندنا ، لأنه لوكان منزلا بلفظه لكان له مثل ما للقرآن من الحرمة والتقديس ، فلا تجوز روايته بالمعنى إجماعا ، ولا يحل لمحدث مسّ صحيفته ، إذ لاوجه للتفرقة بين لفظين منزلين من عند الله ، ولكن لاقائل بذلك كله[2] على حين يرى الشيخ الزرقاني رحمه الله أن الحديث القدسي لفظه ومعناه من عند الله بيد أن للقرآن خصائصه من الإعجاز والتعبد به ووجوب أدائه بلفظه ، وليس للحديث القدسي شيء من ذلك ،

---

(١) النساء / ١١٣

(٢) راجع النبأ العظيم / ١٦

والحكمة في هذا التفريق أن الإعجاز منوط بألفاظ القرآن ، فلو أبيح أداؤه بالمعنى لذهب إعجازه ، وكان مظنة التغيير والتبديل واختلاف الناس في أصل التشريع والتنزيل . أما الحديث القدسي فليس لفظه مناط الإعجاز ، ولهذا أباح الله روايته بالمعنى للتخفيف على الأمة ، حيث جعل المنزل إليهم على قسمين ، قسم يروونه بلفظه الموحي به وهو القرآن ، وقسم يروونه بالمعنى وهو الحديث القدسي ، ولوجعل كله مما يروي باللفظ لشق ، أو بالمعنى لم يؤمن التبديل والتحريف[1] .

الحديث النبوي :

وأما الحديث النبوي فإنه بحسب ما حواه من المعاني على قسمين .

١ ـ قسم (توفيقي) استنبطه الرسول صلى الله عليه وسلم بفهمه لكلام الله تعالى أو بتأمله في حقائق الكون . وهذا القسم لا ينسب إلى الله لفظا ولامعنى ، وإنما ينسب الى الرسول .

٢ ـ قسم (توقيفي) تلقى الرسول صلى الله عليه وسلم مضمونه من الوحي فبينه للناس بكلامه ، وينسب إلى الرسول من حيث هو كلامه ، لأن الكلام ينسب إلى واضعه وقائله الذي ألفه وأنشأه .

ويفرق بين الحديث النبوي بقسيمه هذين ، وبين القرآن الكريم بأن القرآن كلام الله تعالى ، وهذا كلام النبي صلى الله عليه وسلم غير أن الحديث (التوقيفي) لافرق بينه وبين الحديث القدسي على هذا عند من يقولون بأن الحديث القدسي معناه من عند الله ولفظه من عند الرسول . فكيف ينسب أحدهما إلى الله وهو القدسي وينسب الآخر إلى الرسول ويسمى حديثا نبويا ؟

(١) مناهل العرفان ١/ ٤٣ ، ٤٤

وجوابه عند القائلين بهذا . أنه لما قطع في الحديث القدسي بنـزول معناه لورود النص الشرعي على نسبته إلى الله تعالى بقول الرسول (قال الله تعالى كذا) سميناه قدسيا لذلك . بخلاف الأحاديث النبوية فإنها لمالم يرد فيها مثل هذا النص ليميز بين التوفيقي ، والتوقيفي حملنا القسمين على المقطوع به وهو نسبتهما إلى النبي صلى الله عليه وسلم وسمي الكل نبويا . ولوكانت لدينا علامـة تميز لنـا القسم التوقيفي لسميناه قدسيا كذلك(١) . على أن هذا الخلاف مهما كان شأنه فإنه سيظل خلافا شكليا لايؤثر في وجوب العمل بالحديث سواء أكان قدسيا أم نبويا لقوله تعالى ﴿ وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُواْ ﴾(٢)

---

(١) راجع النبأ العظيم / ١٦ ، ١٧

(٢) الحشر / ٧

مصدر القرآن
إلهي لا بشري

من الحقائق التاريخية التي لا يختلف عليها الناس مؤمنين أو ملحدين أن القرآن جاء على لسان محمد بن عبد الله صلوات الله وسلامه عليه .

جدل الكفار حول مصدر القرآن

أما مصدره فقد اختلف الناس حوله ، أجاء به من عند نفسه ؟ أم من عند معلم ؟ ومن هو ذلك المعلم ؟ لقد عرض القرآن لهذه القضية فرد وَهْمَ الناس ، وزعمهم فيما زعموا من أن القرآن فاضت به نفس محمد ، وفتق به لسانه ، وأعلن أنه ﴿ تَنزِيلٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٤٣﴾ وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ ٱلْأَقَاوِيلِ ﴿٤٤﴾ لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِٱلْيَمِينِ ﴿٤٥﴾ ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ ٱلْوَتِينَ ﴿٤٦﴾ فَمَا مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَٰجِزِينَ ﴾[1]

وكلما لج المنكرون في إنكارهم جاء الوحي مؤكدا لحقيقة مصدره قائلا ﴿ إِنَّهُۥ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ﴿١٩﴾ ذِى قُوَّةٍ عِندَ ذِى ٱلْعَرْشِ مَكِينٍ ﴿٢٠﴾ مُّطَاعٍ ثَمَّ أَمِينٍ ﴾[2] .

وكلما رمى المعاندون النبي بافتراء القرآن لقنه الوحي ما يدفع به عن نفسه ذلك الاتهام فقال تعالى ﴿ أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ ۖ قُلْ إِنِ ٱفْتَرَيْتُهُۥ فَلَا تَمْلِكُونَ لِى مِنَ

(١) الحاقة / ٤٣ ـ ٤٧

(٢) التكوير / ١٩ ـ ٢١

ٱللَّهِ شَيْـًٔا هُوَ أَعْلَمُ بِمَا تُفِيضُونَ فِيهِ كَفَىٰ بِهِۦ شَهِيدًۢا بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ وَهُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٨﴾ قُلْ مَا كُنتُ بِدْعًا مِّنَ ٱلرُّسُلِ وَمَآ أَدْرِى مَا يُفْعَلُ بِى وَلَا بِكُمْ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَىَّ وَمَآ أَنَا۠ إِلَّا نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٩﴾ قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن كَانَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ وَكَفَرْتُم بِهِۦ وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنۢ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ عَلَىٰ مِثْلِهِۦ فَـَٔامَنَ وَٱسْتَكْبَرْتُمْ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴿١٠﴾ ﴾[1]

وكلما تجاهل الجاهليون حقيقة النبوات من قبل محمد لفتهم الوحي الى تلك الحقيقة معلنا أن محمداً ليس بدعا من الرسل ، ولا أول نبي خاطب الناس باسم الوحي ، وحدثهم بحديث السماء فقال تعالى ﴿ إِنَّآ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ كَمَآ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰ نُوحٍ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ مِنۢ بَعْدِهِۦ ۚ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْمَـٰعِيلَ وَإِسْحَـٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطِ وَعِيسَىٰ وَأَيُّوبَ وَيُونُسَ وَهَـٰرُونَ وَسُلَيْمَـٰنَ ۚ وَءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ زَبُورًا ﴿١٦٣﴾ وَرُسُلًا قَدْ قَصَصْنَـٰهُمْ عَلَيْكَ مِن قَبْلُ وَرُسُلًا لَّمْ نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَ ۚ وَكَلَّمَ ٱللَّهُ مُوسَىٰ تَكْلِيمًا ﴾[2] .

وأعان محمدا صلى الله عليه وسلم على أن يبرىء نفسه من شبهة الاقتدار على اجتباء آية أو تبديلها فأوحى إليه : ﴿ قُلْ مَا يَكُونُ لِىٓ أَنْ أُبَدِّلَهُۥ مِن تِلْقَآئِ نَفْسِىٓ ۖ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَىَّ ۖ إِنِّىٓ أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّى عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٥﴾ قُل لَّوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا تَلَوْتُهُۥ عَلَيْكُمْ وَلَآ أَدْرَىٰكُم بِهِۦ ۖ فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُرًا مِّن قَبْلِهِۦٓ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴾[3] .

تلك آيات الوحي شاهدة ببراءة محمد صلى الله عليه وسلم من دعوى الإتيان بالقرآن من عند نفسه ووحي ضميره ، وناطقة بلسانه بأنه لا صنعة له فيه ،

(١) الأحقاف /٨ - ١٠
(٢) النساء /١٦٣ ، ١٦٤
(٣) يونس /١٥ ، ١٦

وما هو منه إلا مبلغ ما أوحى إليه امتثالا لأمر ربه ﴿ * يَـٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغْ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ﴾[1] .

أبعد هذا الإقرار الذي أقر به الرسول على نفسه تحتاج القضية إلى بينة ؟

مناقشة

لقد كا المفروض أن يُصدّق في ذلك ولا يُكذّب ، فإنه لا يدعي لنفسه فضلا لم يأته ، ولا شرفا لم يطاوله ، وإنما يجرد نفسه من فضل ليس له ، ويرد فضل الله إلى الله ، وقد وعى قوله تعالى ﴿ وَأَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكَ ٱلْكِتَـٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُن تَعْلَمُ ۚ وَكَانَ فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا ﴿١١٣﴾ ﴾[2] .

وإذا لم يكن للصدق مجال في هذه القضية ؛ فبأي منطق يسيغ المكابرون أن ينسب محمد بضاعته لغيره ، وينسلخ منها انسلاخا ، وأي مصلحة له في ذلك ؟

إن العكس هو الصحيح أن يدعي آثار غيره لنفسه ليزداد بها رفعة شأن وفخامة جاه ، وذاك شأن كثير من الناس يسطون على أعمال غيرهم فينسبونها إلى أنفسهم وصولا إلى فضل لم يأتوه ، وشرف لم يطاولوه .

ولم يبق إلا أن يقول جاهل إن محمدا نسب القرآن ـ وهو من عمله ـ إلى الله ليخضع الناس لطاعته وسلطانه حيث تجعل هذه النسبة لأقواله من الحرمة والتعظيم ما لا يكون لها لو نسبها إلى نفسه .

ولا يخطىء النظر الصائب فساد هذا الزعم ، فإن الأمر لو كان كذلك لنسب

---

(١) المائدة / ٦٧

(٢) النساء / ١١٣

محمد كل أقواله إلى الله ، والواقع على خلاف ذلك ، وليس هناك ما يمنع لو أراد ، مادام الأمر أمر تزوير وافتراء ، ومادام الهدف هو رفعة شأن واتساع سلطان . ثم يزداد هذا الزعم فسادا حيث يفترض في محمد صلى الله عليه وسلم أنه كغيره من الزعماء الذين لايبالون ـ في تأكيد زعامتهم ـ باتخاذ الوسائل الخسيسة من كذب وتمويه ، وذلك أمر يأباه الواقع التاريخي المعروف من سيرة هذا النبي العظيم ، فكان في ظاهره وباطنه أبعد ما يكون عن المداجاة والمواربة وكان في سره وعلانيته معروفا لدى قومه بالأمانة والصدق ولعل لقبه (الصادق الأمين) الذي اشتهر به قبل بعثته خير دليل على ذلك . ومازالت صحائف التاريخ تحفظ شهادة قريش التي سجلها أبو سفيان ـ وهو في جاهليته ـ بين يدي هرقل عظيم الروم لمّا سألهم هرقل عن محمد : هل كنتم تتهمونه بالكذب قبل أن يقول ما قال ؟ قال : لا ، وسألهم هل يغدر ؟ قال : لا[1] .

ثم لايزال في البحث متسع لأن نقيم من القرآن الذي يدّعون نسبته إلى محمد شواهد كثيرة تميز بين ذات محمد المأمورة المتلقية ، وذات آمرة ملقية ، ومواقف تصور الرسول عبدا ضعيفا بين يدي ربه لا يملك من أمر نفسه ، ولا من أمر الوحي شيئا . . . ذلك ليزداد المؤمنون إيمانا بأن ذات محمد ليست مصدرا للقرآن ، وليكفكف الغالون من غلوائهم في دعواهم ، وليستخزي المكابرون في تلك الحقيقة . . . .

شواهد قرآنية

إن من يتلو آيات الوحي الكريم المصدرة بقوله تعالى (قل) ـ وقد تكررت

---

(١) من كتاب النبأ العظيم بتصرف / ٢٢ ، ٢٣

في القرآن أكثر من ثلاثمائة مرة ـ ليدرك أن محمدا لا دخل له في الوحي فلا يصوغه بلفظه ، ولا يلقيه بكلامه ، وإنما يلقي إليه الخطاب إلقاء ، فهو مخاطب لا متكلم ، حاك ما يسمعه لا معبر عن شيء يجول في نفسه[1] .

وإنه ليصرح على لسانه بأنه بشر مثل سائر البشر ليس عليه إلا البلاغ ولا يملك خزائن الله ولا يعلم الغيب ﴿ قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰٓ إِلَىَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ ﴾[2] . ﴿ قُل لَّآ أَمْلِكُ لِنَفْسِى نَفْعًا وَلَا ضَرًّا إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُ وَلَوْ كُنتُ أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ لَٱسْتَكْثَرْتُ مِنَ ٱلْخَيْرِ وَمَا مَسَّنِىَ ٱلسُّوٓءُ ﴾[3] .
﴿ قُل لَّآ أَقُولُ لَكُمْ عِندِى خَزَآئِنُ ٱللَّهِ وَلَآ أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ وَلَآ أَقُولُ لَكُمْ إِنِّى مَلَكٌ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ ﴾[4]

وإن ذات الله الآمرة لتذهب أبعد من ذلك في إخضاع ارادة النبي صلى الله عليه وسلم لإرادة الله الموحية حتى بات لا يملك شيئا من أمر نفسه حتى حق استخدام ذاكرته في حفظ القرآن ، فكان كلما حرك لسانه به متعجلا حفظه خشية ضياعه من صدره إن هو سار على سنته في كلامه من الروية والأناة ، جاءه الوحي بالنهي الصريح عن ذلك وأن أمر تحفيظه إياه موكول إلى من أوحاه إليه ، فيقول له ﴿ لَا تُحَرِّكْ بِهِۦ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِۦٓ ﴿١٦﴾ إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُۥ وَقُرْءَانَهُۥ ﴿١٧﴾ فَإِذَا قَرَأْنَٰهُ فَٱتَّبِعْ قُرْءَانَهُۥ ﴾[5]. ويقول أيضا ﴿ وَلَا تَعْجَلْ بِٱلْقُرْءَانِ مِن قَبْلِ أَن يُقْضَىٰٓ إِلَيْكَ وَحْيُهُۥ ۖ وَقُل رَّبِّ زِدْنِى عِلْمًا ﴾[6] .

---

(١) راجع مباحث في علوم القرآن د . صبحي الصالح / ٣٠

(٢) الكهف / ١١٠

(٣) الأعراف / ١١٨

(٤) الأنعام / ٥٠

(٥) القيامة / ١٦ ـ ١٨

(٦) طه / ١١٤

فأي دلالة أبلغ من ذلك في نفي دعوى القوم من أن القرآن من عند محمد ؛ إذ لو كان من عنده لما تعجله خشية ضياعه ، وأنه لو كان هو منشئه لاستطاع إعادته متى شاء .

كما أنه قد صار مع الوحي لا يملك أن يأكل ما يشاء وأن يدع ما يشاء ، فحين حرم بعض الطعام على نفسه ترضية لاحدى زوجاته جاءه الوحي معاتبا ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكَ تَبْتَغِي مَرْضَاتَ أَزْوَٰجِكَ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾(1).

كما كان أيضا لا يملك أن يتزوج بمن يشاء وأن يعدل عمن يشاء ، فقد يأتيه الوحي في ذلك بما لا يميل إليه كأمر زواجه من مطلقة متبناه زيد بن حارثة فيتلبث في إنفاذه يسيراً حتى يجد لنفسه من الحرج مخرجا ، فيتلقاه الوحي بالتعنيف الشديد والنقد المرير ﴿ وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِىٓ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَٱتَّقِ ٱللَّهَ وَتُخْفِي فِي نَفْسِكَ مَا ٱللَّهُ مُبْدِيهِ وَتَخْشَى ٱلنَّاسَ وَٱللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَىٰهُ فَلَمَّا قَضَىٰ زَيْدٌ مِّنْهَا وَطَرًا زَوَّجْنَـٰكَهَا لِكَىْ لَا يَكُونَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِىٓ أَزْوَٰجِ أَدْعِيَآئِهِمْ إِذَا قَضَوْا۟ مِنْهُنَّ وَطَرًا وَكَانَ أَمْرُ ٱللَّهِ مَفْعُولًا ﴾(2) .

وقد يقضي في الأمر بما يترجح لديه غير متأثم فيه ، بل نظر فيه إلى رحمة أهله وهداية قومه غير أنه لم يكن أرجح في ميزان الحكمة الإلهية فيتلقاه الوحي عنيفا صادعا منذرا متوعدا ، وذلك حين أشار عليه جمهور صحابته بأخذ الفداء من أسرى بدر قبل أن يقوى أمر الدين وتثخن شوكة المسلمين فقال ﴿ مَا كَانَ لِنَبِىٍّ أَن

---

(1) التحريم / 1

(2) الأحزاب / 37

يَكُونَ لَهُۥٓ أَسْرَىٰ حَتَّىٰ يُثْخِنَ فِى ٱلْأَرْضِ تُرِيدُونَ عَرَضَ ٱلدُّنْيَا وَٱللَّهُ يُرِيدُ ٱلْءَاخِرَةَ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٦٧﴾ لَّوْلَا كِتَٰبٌ مِّنَ ٱللَّهِ سَبَقَ لَمَسَّكُمْ فِيمَآ أَخَذْتُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾[1] .

ويقرب من هذا الموقف أيضا موقفه من عبد الله بن أم مكتوم رضي الله عنه حين جاءه وهو مشغول بدعوة سادات قريش طمعا في إسلامهم فأعرض عنه وتلهى بفكرة إسلامهم وما يتبع ذلك من قوة للدين ونشر للإسلام ، وإذا بالوحي يفجأه معاتبا إياه . وأن الأمر على غير ما قدره ﴿عَبَسَ وَتَوَلَّىٰٓ ﴿١﴾ أَن جَآءَهُ ٱلْأَعْمَىٰ ﴿٢﴾ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّهُۥ يَزَّكَّىٰٓ ﴿٣﴾ أَوْ يَذَّكَّرُ فَتَنفَعَهُ ٱلذِّكْرَىٰٓ ﴿٤﴾ أَمَّا مَنِ ٱسْتَغْنَىٰ ﴿٥﴾ فَأَنتَ لَهُۥ تَصَدَّىٰ ﴿٦﴾ وَمَا عَلَيْكَ أَلَّا يَزَّكَّىٰ ﴿٧﴾ وَأَمَّا مَن جَآءَكَ يَسْعَىٰ ﴿٨﴾ وَهُوَ يَخْشَىٰ ﴿٩﴾ فَأَنتَ عَنْهُ تَلَهَّىٰ ﴿١٠﴾ كَلَّآ إِنَّهَا تَذْكِرَةٌ ﴾[2]

أرأيت لو كانت هذه التقريعات المؤلمة صادرة عن وجدان محمد معبرة عن ندمه حين بدا له خلاف ما فرط منه أكان يعلنها عن نفسه بهذا التهويل والتشنيع ؟ . ألم يكن في السكوت عنها ستر لنفسه واستبقاء لحرمة آرائه ؟ بلى . لو كان أمر القرآن إليه ، ولكنه الوحي الذي لا يستطيع أن يكتم منه شيئا مهما رأى الناس فيه من إيذاء مشاعره وإنه كما وصفه ربه بقوله تعالى ﴿ وَمَا هُوَ عَلَى ٱلْغَيْبِ بِضَنِينٍ ﴾[3] أي بمتهم[4] .

وكيف لرجل يرى الناس أن ما يتلوه عليهم هو من عند نفسه ، يتلو على ملأ منهم ما يوجه إليه من الإنذار والتهديد في مثل قوله تعالى : ﴿ وَلَوْلَآ أَن ثَبَّتْنَٰكَ لَقَدْ كِدتَّ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْـًٔا قَلِيلًا ﴿٧٤﴾ إِذًا لَّأَذَقْنَٰكَ ضِعْفَ ٱلْحَيَوٰةِ وَضِعْفَ

(١) الأنفال /٦٨
(٢) عبس / ١ -١١
(٣) التكوير / ٢٤
(٤) راجع النبأ العظيم / ٢٥

﴿ ٱلْمَمَاتِ ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ عَلَيْنَا نَصِيرًا ﴾[1]

ويعلن لهم أن استدامة ما يتلوه عليهم ليست له ، فإنه معرض لأن يسلب منه ، وأنه أضعف من أن يستعيده كما في قوله تعالى : ﴿ وَلَئِن شِئْنَا لَنَذْهَبَنَّ بِٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ بِهِۦ عَلَيْنَا وَكِيلًا ۝٨٦ إِلَّا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ إِنَّ فَضْلَهُۥ كَانَ عَلَيْكَ كَبِيرًا ﴾[2]

ماذا يبتغي من وراء ذلك ؟ ماذا يبتغي من ابداء هذا الضعف أمام قوة قاهرة قادرة ؟ ربما لو كان الأمر إليه لما أقدم عليه . ولكنه الوحي الذي يؤكد لديهم عبودية محمد الخاضعة وذاته المتلقية . وما كان ينبغي أن يمارى فيها أعلنه عن نفسه أنه ليس واضع هذا الكتاب .

مواقف شاهدة

وكلما تابعنا تقليب صفحات هذا الكتاب الكريم واستجلاء المواقف التي كان النبي صلى الله عليه وسلم أحوج ما يكون فيها إلى القول يدفع به عن نفسه قالة السوء ، ويحمي عرضه من إفك المتخرصين ، طالعنا موقفه إزاء حديث الإفك الذي رميت به زوجه عائشة رضي الله عنها ، وظل قرابة شهر صامتا ، فقد أبطأ عليه الوحي ، فما زاد آخره إلاّ أن قال : (ياعائشة أما إنه يلغني كذا وكذا ، فإن كنت برئية فسيبرئك الله ، وإن كنت ألممت بذنب فاستغفري الله) وما ان قال هذه الكلمات وقبل أن يغادر مكانه حتى نزل الوحي معلنا براءتها في صدر سورة النور .

---

(١) الاسراء / ٧٤ ، ٧٥

(٢) الاسراء / ٨٦ ، ٨٧

ألا ترى لو كان أمر القرآن إليه لتقوّل هذه الكلمة الحاسمة من قبلُ يحمي بها عرضه ، ويبرىء بها زوجه الطاهرة من قذف القاذفين ؟ ولكنه ما كان ليذر الكذب على الناس ويكذب على الله ، وإنه ليخشى وعيده ﴿ وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ ٱلْأَقَاوِيلِ ۝ لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِٱلْيَمِينِ ۝ ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ ٱلْوَتِينَ ۝ فَمَا مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَٰجِزِينَ ﴾[1]

كذلك طالعنا موقفه من تحويل القبلة إلى الكعبة ، فقد ظل يقلب وجهه في السماء ستة عشر شهرا ، أو سبعة عشر شهرا ، لعل الوحي يسعفه بتحقيق ما يتحرق شوقا إليه من تحويل القبلة إلى البيت الحرام ، ولكن الوحي لم يتنزل في أمر هذا التحويل ـ رغم تلهفه عليه ـ إلا بعد قرابة عام ونصف عام ، ليأذن له بقوله تعالى : ﴿ قَدْ نَرَىٰ تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِى ٱلسَّمَآءِ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَىٰهَا فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ ﴾[2]

فلماذا لم يسعف النبي نفسه بوحي عاجل يفتريه ليحقق به ما يصبو إليه ويتمناه[3] ؟

طبيعة الوحي علوم ومعارف

هذا ومازال في منطق القرآن ما يرد مزاعم القوم ودعواهم في نسبة القرآن إلى محمد صلى الله عليه وسلم ـ ذلك ماكان من طبيعة هذا الوحي وما تضمنه من علوم ، ومعارف ، وأخبار القرون الماضية ، ونبوءات القرون اللاحقة إذا هي قيست بوسائل هذا النبي الأمي ، أكان في مقدوره أن يفيض بها وجدانه ، وان

---

(١) الحاقة / ٤٤ ـ٤٧

(٢) البقرة / ١٤٤

(٣) راجع مباحث في علوم القرآن . د . صبحي / ٣٨

ينطق بها لسانه ، مهما تضافر المؤمنون به والمكذبون له على وصفه بذكاء حاد ، وبصيرة نافذة يؤهلانه لإدراك الحق والباطل من الآراء ، والحسن والقبيح من الأخلاق ، والشر والخير من الأفعال ؟

ربما كان هذا مقبولا ، لو أن كل ما جاء في القرآن من حقائق يستطيع العقل استنباطها ، ويقوى الفكر على إدراكها .

ولكن جانبا كبيرا مما تضمنته آيات هذا الوحي لا مجال فيها للذكاء والاستنباط ، ولا سبيل إلى علمها إلا بالتلقي والتعلم فقد وصفت آيات القرآن نشأة الخلق الأولى ، ومصيره المحتوم وفصلت نعيم الآخرة ، وعذابها الأليم ، وأحصت عدة أبواب جهنم حتى عدد الملائكة الموكلين بها . وعرض محمد صلى الله عليه وسلم كل ذلك على العرب الأميين ، وأهل الكتاب العالمين عرض الواثق وبلاغ المتثبت كما جاء في سورة المدثر ﴿ سَأُصْلِيهِ سَقَرَ ﴿٢٦﴾ وَمَا أَدْرَاكَ مَا سَقَرُ ﴿٢٧﴾ لَا تُبْقِي وَلَا تَذَرُ ﴿٢٨﴾ لَوَّاحَةٌ لِّلْبَشَرِ ﴿٢٩﴾ عَلَيْهَا تِسْعَةَ عَشَرَ ﴿٣٠﴾ وَمَا جَعَلْنَا أَصْحَابَ النَّارِ إِلَّا مَلَائِكَةً وَمَا جَعَلْنَا عِدَّتَهُمْ إِلَّا فِتْنَةً لِّلَّذِينَ كَفَرُوا لِيَسْتَيْقِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَيَزْدَادَ الَّذِينَ آمَنُوا إِيمَانًا وَلَا يَرْتَابَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَالْمُؤْمِنُونَ وَلِيَقُولَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَالْكَافِرُونَ مَاذَا أَرَادَ اللَّهُ بِهَٰذَا مَثَلًا كَذَٰلِكَ يُضِلُّ اللَّهُ مَن يَشَاءُ وَيَهْدِي مَن يَشَاءُ وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ وَمَا هِيَ إِلَّا ذِكْرَىٰ لِلْبَشَرِ ﴾[1]

كما حملت آيات الوحي الكريم أنباء الأمم السابقة ، والقرون الغابرة ووقائع الأحداث الماضية ، تصحح ما شاع من أخطائها على ألسنة أهل الكتب السابقة ، وتفصل منها ما دقّ من أحداثها حتى عدد السنين ففي قصة نوح يقول ﴿ وَلَقَدْ

(١) المدثر / ٢٦ ـ ٣١

أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦ فَلَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَامًا فَأَخَذَهُمُ ٱلطُّوفَانُ وَهُمْ ظَٰلِمُونَ ﴾[1]

وفي قصة أهل الكهف يقول ﴿ وَلَبِثُوا۟ فِى كَهْفِهِمْ ثَلَٰثَ مِا۟ئَةٍ سِنِينَ وَٱزْدَادُوا۟ تِسْعًا ﴾[2] . وتزيد عما عرف الأميون وأهل الكتاب من وقائعها فيقول تعالى تعقيبا على قصة نوح عليه السلام ﴿ تِلْكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلْغَيْبِ نُوحِيهَآ إِلَيْكَ ۖ مَا كُنتَ تَعْلَمُهَآ أَنتَ وَلَا قَوْمُكَ مِن قَبْلِ هَٰذَا ۖ فَٱصْبِرْ ۖ إِنَّ ٱلْعَٰقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ ﴾[3]

كما حملت آيات الوحي نبوءات المستقبل فما أخلف الله منها وعدا وعده ، ولا تخلف منها وعيد قطعه ـ وقد رآه المكذبون به رأى العين ـ فقد بشر بنصر الروم يوم غلبهم الفرس فجاء على موعده المضروب ﴿ الٓمٓ ﴿١﴾ غُلِبَتِ ٱلرُّومُ ﴿٢﴾ فِىٓ أَدْنَى ٱلْأَرْضِ وَهُم مِّنۢ بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ ﴿٣﴾ فِى بِضْعِ سِنِينَ ۗ لِلَّهِ ٱلْأَمْرُ مِن قَبْلُ وَمِنۢ بَعْدُ ۚ وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴿٤﴾ بِنَصْرِ ٱللَّهِ ﴾[4]

ودعا النبي صلى الله عليه وسلم على أهل مكة لما استعصوا عليه بسنين كسنين يوسف ، فأجاب القرآن دعاءه بقوله تعالى : ﴿ فَٱرْتَقِبْ يَوْمَ تَأْتِى ٱلسَّمَآءُ بِدُخَانٍ مُّبِينٍ ﴿١٠﴾ يَغْشَى ٱلنَّاسَ ۖ هَٰذَا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾[5] . فأصابهم القحط حتى أكلوا العظم ، وجعل الرجل ينظر إلى السماء فيرى ما بينه وبين السماء كهيئة الدخان من الجهد[6]

---

(١) العنكبوت / ١٤

(٢) الكهف / ٢٥

(٣) هود / ٤٩

(٤) الروم / ١ ـ ٥

(٥) الدخان / ١٠ ، ١١

(٦) صحيح البخاري

خلاصة واستدلال

فمن أين لمحمد صلى الله عليه وسلم تلك المعارف الغيبية في مثل بيئة قومه الأميين ، وقد نشأ بين ظهرانيهم ، وقضى من عمره على هذا المستوى أربعين عاما لا صلة له بالعلم والعلماء . ولا عرف عنه أنه تعاطى كتبا فدرسها ، ولا تردد على أولي علم من أهل الكتاب فأخذ منهم ، ولا أثر عنه أنه قال مثل ما قال قبل أن ينبأ ؟

لا مناص في منطق العقل ـ وقد تأكد أن ذكاء محمد وفطنته ، وظروف نشأته لا تؤهله أن يخترق أقطار السموات والأرض فيقف على أحوال الملأ الأعلى . أو يسترجع ماضي الزمان فيشهد أحداث تلك القرون الغابرة مع أهلها ، أو يقتحم حجب المستقبل فيقرأ صفحة الغيب ، وتأتي الأقدار وفق نبوءته . . . لا مناص إذاً عن البحث خارج ذات محمد عن مصدر هذه المعارف ، فإنه لا شك ـ ان لم يكن قائلا ، فلابد أن يكون ناقلا . .

معلمه بشر

ووقف أجلاف البادية أمام هذه القضية حيرى ، ولكن لم تطل حيرتهم فقد طوعت لهم أنفسهم أن يقولوا ﴿إِنَّمَا يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ﴾[1]
وما كان يعنيهم أن يكونوا جادين محقين ، وإنما كان همهم أن يدرءوا عن أنفسهم معرة السكوت والافحام . .

غير أنهم كانوا أعرف بأقدار أنفسهم فلم يجرؤوا على أن يجعلوا واحدا منهم معلما له ، فهم جميعا أوضح جهلا من أن يعلموا رجلا جاءهم بما لم يعرفوا هم ولا آباؤهم من قبل .

(١) النحل / ١٠٣

وكان عليهم إزاء هذا التورط أن يسموا هذا المعلم ، وأن يعينوه ، وجهدوا أن يكون أنسب لهذه المهمة فاختاروه من غير جلدتهم وملتهم ، ليمكن أن يقال إن عنده علم ما لم يعلموا ، وان يكون مقيما بينهم لتروج عنهم دعوى أن محمدا يلاقيه بكرة وأصيلا .

ووجدوا ضالتهم في غلام رومي أعجمي نصراني ـ قيل يسمى جبرا ـ وكان يعمل قينا (أي حدادا) في مكة ، وربما رأوا النبي أحيانا يقف عنده ليشهد صنعته من السيوف ، فرأوا في هذه الظروف والملابسات فرصة لأن يقولوا : هذا معلمه .

وجدها القرآن ـ أيضا ـ فرصة سانحة أن يسفه أحلامهم الطائشة ، وأن يرد فريتهم الشائهة بأمر بدهي ، ربما عرفوه ولكنهم تجاهلوه أو ند عنهم فلم يدركوه فقال تعالى ﴿ لِّسَانُ ٱلَّذِى يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِىٌّ وَهَٰذَا لِسَانٌ عَرَبِىٌّ مُّبِينٌ ﴾[1] .

وسقط في أيديهم ورأوا أنهم قد ضلوا فرفعوا دعواهم ضد مجهول وتخبطوا في الاتهام فقالوا ﴿ إِنْ هَٰذَآ إِلَّآ إِفْكٌ ٱفْتَرَىٰهُ وَأَعَانَهُۥ عَلَيْهِ قَوْمٌ ءَاخَرُونَ . . . ﴾[2] ﴿ وَقَالُوٓا۟ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ٱكْتَتَبَهَا فَهِىَ تُمْلَىٰ عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴾[3]

ونعى القرآن عليهم هذا التخبط ورأى أن قولهم هذا أتفه من أن يجادلوا فيه فرده عليهم في عبارة موجزة ﴿ قُلْ أَنزَلَهُ ٱلَّذِى يَعْلَمُ ٱلسِّرَّ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ﴾[4]

---

(١) النحل / ١٠٣

(٢) الفرقان / ٤ ، ٥

(٣) الفرقان / ٤ ، ٥

(٤) الفرقان / ٦

وكان هذا التخبط أول دليل على عدم قناعتهم بصحة هذا الاتهام ومن ثم لم يثبتوا عليه ، كما لم يثبتوا على التهمة السابقة عليه .

ورأوا أنه ربما كان أدنى أن يصدقوا في دعواهم ، أن يجمعوا له بين النسبتين فقالوا ﴿ مُعَلَّمٌ مَّجْنُونٌ ﴾[1]

وأيما كان أمر هؤلاء القوم ، فإن القرآن وقفنا على أن نسبة هذا القرآن إلى مصدر بشري غير محمد كانت أقل قناعة لديهم من نسبته إلى نفس صاحبه ، مع اضطرابهم في تحديد تلك الحال النفسية التي صدر عنها القرآن : أشعر هي ؟ أم جنون ؟ أم أضغاث أحلام ؟ وانظر كيف صور القرآن هذا القلق الذي اعتراهم ، والبلبلة المضحكة التي كانوا عليها ﴿ بَلْ قَالُوٓاْ أَضْغَٰثُ أَحْلَٰمٍۭ بَلِ ٱفْتَرَىٰهُ بَلْ هُوَ شَاعِرٌ فَلْيَأْتِنَا بِـَٔايَةٍ كَمَآ أُرْسِلَ ٱلْأَوَّلُونَ ﴾[2]

وقد عقب القرآن على تلك الحال المضطربة لديهم فقال تعالى : ﴿ ٱنظُرْ كَيْفَ ضَرَبُواْ لَكَ ٱلْأَمْثَالَ فَضَلُّواْ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلًا ﴾[3]

ومادام القوم قد حصروا التهمة في صدور القرآن عن ذات محمد ، ولكنهم ضلوا في تصور صدوره عن ذاته ، فمن أقدر منه صلوات الله وسلامه عليه في بيان كيفية تلقيه لهذا القرآن ، وكيفية صدوره عنه ؟

الوحي

ولنبدأ بما بدأ به القرآن في تسمية هذا الاتصال الغيبي بين الذات الملقية ،

(١) الدخان / ١٤
(٢) الأنبياء / ٥
(٣) الاسراء / ٤٨

والذات المتلقية (بالوحي) . وانه لشبيه في مدلوله بوحي الأنبياء السابقين فقال تعالى ﴿ إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ كَمَا أَوْحَيْنَا إِلَىٰ نُوحٍ وَالنَّبِيِّينَ مِن بَعْدِهِ ﴾[1]

ولم يكن هذا الوحي إلى أحد من البشر أمرا عجبا ، فقال تعالى : ﴿ أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا أَنْ أَوْحَيْنَا إِلَىٰ رَجُلٍ مِّنْهُمْ أَنْ أَنذِرِ النَّاسَ وَبَشِّرِ الَّذِينَ آمَنُوا أَنَّ لَهُمْ قَدَمَ صِدْقٍ عِندَ رَبِّهِمْ ﴾[2]

ومادام ليس عجبا فإن ادراكه إذن سهل ميسور . . وعليه فما حقيقة هذا الوحي ، إذن في نظر الدين ؟

تعريف الوحي :

إن لفظ (الوحي) لغويا يعني : [الإعلام الخفي السريع] سواء

١ ــ أكان إشارة ببعض الجوارح كوحي زكريا عليه السلام إلى قومه في قوله تعالى حكاية عنه ﴿ فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوْمِهِ مِنَ الْمِحْرَابِ فَأَوْحَىٰ إِلَيْهِمْ أَن سَبِّحُوا بُكْرَةً وَعَشِيًّا ﴾[3] . أي أشار إليهم ولم يتكلم .

٢ ــ أو إلهاما فطريا يوجه أنقياء الفطرة من بني البشر إلى الخير كما في قوله تعالى : ﴿ وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ أُمِّ مُوسَىٰ أَنْ أَرْضِعِيهِ ﴾[4] .
وكما في قوله تعالى : ﴿ وَإِذْ أَوْحَيْتُ إِلَى الْحَوَارِيِّينَ أَنْ آمِنُوا بِي وَبِرَسُولِي قَالُوا آمَنَّا وَاشْهَدْ بِأَنَّنَا مُسْلِمُونَ ﴾[5]

---

(١) النساء / ١٦٣
(٢) يونس / ٢
(٣) مريم / ١١
(٤) القصص / ٧
(٥) المائدة / ١١١

أو يزين لسواهم نوازع الشر كما عبر القرآن في قولـه تعالى : ﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَـٰطِينَ ٱلْإِنسِ وَٱلْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ زُخْرُفَ ٱلْقَوْلِ غُرُورًا ﴾[1] . وكقوله تعالى : ﴿ وَإِنَّ ٱلشَّيَـٰطِينَ لَيُوحُونَ إِلَىٰٓ أَوْلِيَآئِهِمْ لِيُجَـٰدِلُوكُمْ ﴾[2]

٣ ــ أو إلهاما غرزيا يصرف الحيوان وفق حاجاته كما في قوله تعالى : ﴿ وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى ٱلنَّحْلِ أَنِ ٱتَّخِذِي مِنَ ٱلْجِبَالِ بُيُوتًا وَمِنَ ٱلشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ ﴿٦٨﴾ ثُمَّ كُلِي مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ فَٱسْلُكِي سُبُلَ رَبِّكِ ذُلُلًا ﴾[3]

وهو بهذا المعنى اللغوي أعم من أن يكون من الله ، أو من سواه وأعم من أن يكون لإنسان أو حيوان .

الوحي في لسان الشرع

أما الوحي في لسان الشرع فيطلق ويراد به المعنى المصدري ويطلق أيضا ويراد به المعنى الحاصل بالمصدر ، ويطلق أيضا ويراد به الموحي به .

وهو على الإطلاق الأول يعني : إعلام الله أنبياءه بما يريد بواسطة أو غير واسطة .

وعلى الإطلاق الثاني يعني : عرفانا يجده الشخص في نفسه مع اليقين بأنه من عند الله سواء أكان يقظة أم مناما .

---

(١) الانعام / ١١٢

(٢) الانعام / ١٢١

(٣) النحل / ٦٨ ، ٦٩

وعلى الاطلاق الثالث يعني : ما أنزله الله تعالى على أنبيائه من كلامه كالقرآن والتوراة والإنجيل والزبور ، وصحف إبراهيم . .

كيفيات الوحي العامة على الإطلاق الأول : هي

١ ـ تكليم الله نبيه من وراء حجاب مثل ما حدث لموسى عليه السلام ﴿وَكَلَّمَ ٱللَّهُ مُوسَىٰ تَكۡلِيمٗا﴾[١]

٢ ـ أو رؤيا في المنام مثل ما حدث لإبراهيم عليه السلام في ذبح ولده قال تعالى ﴿ يَٰبُنَيَّ إِنِّيٓ أَرَىٰ فِي ٱلۡمَنَامِ أَنِّيٓ أَذۡبَحُكَ فَٱنظُرۡ مَاذَا تَرَىٰۚ قَالَ يَٰٓأَبَتِ ٱفۡعَلۡ مَا تُؤۡمَرُ ﴾[٢]

٣ ـ أو إلهام يقذف الله به بواسطة ملك أو بغير واسطة ـ في قلب نبيه ما يريد أن يلقيه ، مع تيقن الموحَى إليه بأنه من عند الله كما حدث لنبينا محمد صلى الله عليه وسلم في قوله « **إن روح القدس نفث في روعي : لن تموت نفس حتى تستكمل رزقها فاتقوا الله وأجملوا في الطلب** »[٣] وهذا ما يعرف بالوحي الخفي .

٤ ـ أو تعليم بواسطة ملك ، والمختص به من الملائكة هو جبريل عليه السلام . وهذا هو ما يعرف بالوحي الجلي . وقد بيّن الله تعالى هذه الكيفيات الأربع في قوله تعالى[٤] :

أ ، ب ـ ﴿ ۞ وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ ٱللَّهُ إِلَّا وَحۡيًا ﴾ إلهاما أو مناما

ج ـ ﴿ أَوۡ مِن وَرَآيِٕ حِجَابٍ ﴾ يكلمه تكليما .

---

(١) النساء / ١٦٤

(٢) الصافات / ١٠٢

(٣) رواه الحاكم وصححه

(٤) الشورى / ٥١

د ـ ﴿ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِۦ مَا يَشَآءُ إِنَّهُۥ عَلِيٌّ حَكِيمٌ ﴾

صور الوحي إلى محمد صلى الله عليه وسلم :

لقد اتخذ الوحي إلى رسول الله ، فيما صح من حديثه ـ صورتين حدث بهما الحارث بن هشام حين سأله : كيف يأتيك الوحي يارسول الله ؟ فقال : أحيانا يأتيني مثل صلصلة الجرس وهو أشده على ، فيفصم عني وقد وعيت عنه ما قال . وأحيانا يتمثل لي الملك رجلا فيكلمني فأعي ما يقول[1] . وكان أكثر ما يتمثل له في صورة رجل وسيم يدعى (دحية الكلبي) وكانت الصورة التي يأتيه جبريل فيها على هيئة بشرية أخف وطأ وألطف وقعا من تلك التي كان يأتيه فيها على صورته الملائكية بما يصحبها من صوت كصلصلة الجرس ، أو دوي النحل ـ كما حدث عمر رضي الله عنه ـ حيث كان يتفصد جبيته عرقا في اليوم الشديد البرد ويبلغ من الثقل حداً يجعل راحلة تبرك به الى الأرض إذا كان راكبها وقد شاهد زيد بن ثابت رضي الله عنه من تلك الحالة ما كان يعانيه النبي صلى الله عليه وسلم من ثقل وطأة الوحي عليه فقال : كنت أكتب الوحي لرسول الله ، وكان إذا نزل أخذته برحاء شديدة ، وعرق عرقا شديدا مثل الجمان ، ثم سرى عنه . وكنت اكتب وهو يملي على فما أفرغ حتى تكاد رجلي تنكسر من ثقل الوحي حتى أقول لا أمشي على رجلي أبدا . . ولما نزلت عليه سورة المائدة كاد ينكسر عضد ناقته وفي كلتا الصورتين يحرص النبي صلى الله عليه وسلم على وعي ما أوحى اليه سواء أخفت أم اشتدت وطأة الوحي عليه .

---

(١) صحيح البخاري في بدء الوحي

والآن ـ وقد وضح الحق لذي عينين ـ وهو على ما رأينا ليس رؤي نائم ، ولا افتراءات كذوب ، ولا خيالات شاعر﴿ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ ۝ عَلَّمَهُۥ شَدِيدُ ٱلْقُوَىٰ ۝ ذُو مِرَّةٍ ﴾[1] ولم يلبث المنكرون له أن سلموا به قرآنا منزلا ، ولكنهم لم يؤمنوا به ﴿وَقَالُواْ لَوْلَا نُزِّلَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ ٱلْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ ﴾[2] يعنون من أهل مكة : الوليد بن المغيرة ، أو من الطائف عروة بن مسعود الثقفي هؤلاء قوم محمد ـ وقد كانوا أشد حرصا على خصومته ـ قد ألقوا السلم واعترفوا لصاحبهم بالوحي المنزل عليه . فما بال ملاحدة العصر وقد مضت أربعة عشر قرنا على التسليم بهذه الحقيقة ، يبحثون في قمامات التاريخ عن نفايات من رواسب الجاهلية الأولى يلوكونها بألسنتهم ليضاهئوا قول الذين كفروا من قبل ، ويحسبون أنهم أتوا بجديد وما هو إلا حديث معاد وقول مكرور أزري به التاريخ وقضى عليه المنطق بالوهن ، وليس لهم إلا أن يقولوا كما قال المنصفون من قبل﴿ رَبَّنَآ ءَامَنَّا بِمَآ أَنزَلْتَ وَٱتَّبَعْنَا ٱلرَّسُولَ ﴾ أو نقول لهم موتوا بغيظكم فلن تضروا الله شيئا .

(١) النجم / ٤ ـ ٦

(٢) الزخرف / ٣١

تنزلات القرآن
كيفيتها - وحكمتها

إذا كان قد انتهى بنا الاستدلال إلى التسليم بأن القرآن كلام الله نزله على عبده محمد صلى الله عليه وسلم ، فقد يكون من تمام البحث أن نتعرف بعد على معنى (النزول) وقد اقترنت هذه المادة وما تصرف منها بالقرآن في كثير من آياته وفي صحيح الأحاديث عنه ففى القرآن نقرأ قول الله تعالى : ﴿ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَىٰ عَبْدِهِ ٱلْكِتَـٰبَ وَلَمْ يَجْعَل لَّهُۥ عِوَجَا ۜ ﴾[1] وقوله تعالى﴿ تَبَارَكَ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِۦ لِيَكُونَ لِلْعَـٰلَمِينَ نَذِيرًا ﴾[2] .

وفي الحديث : « إن هذا القرآن أنزل على سبعة أحرف »[3]

معنى النزول لغويا

واللفظان : أنزل ، و نزّل متعديان أولهما متعد بالهمزة ، وثانيهما متعد بالتضعيف ، ويرجعان إلى أصلهما اللازم (نزل) :

ومعنى النزول في اللغة : الحلول في المكان ومنه نزل الأمير بالمدينة - أي حلّ بها .

---

(١) الكهف /١ .

(٢) الفرقان /١ .

(٣) متفق عليه

كما يراد به في اللغة أيضا الانحدار وتحرك الشيء من علو إلى سفل ، كقولك : نزل الرجل من الجبل .

وكلا المعنيين اللغويين لمادة (نزل) يقتضي الجسمية والمكانية والانتقال ، وهما لا يليقان بالقرآن فليس القرآن جسما حتى يحل في مكان أو ينحدر من علو إلى سفل .

المراد به في جانب القرآن

ومن ثم كان المجاز سبيل التعبير بهما في جانب القرآن على معنى (الإعلام) لأن نزول الشيء يقتضي إعلام من أنزل إليه ذلك الشيء إن كان عاقلا ، أو إعلام من يطلع عليه أو على تقدير محذوف : أي نزل حامله وهو جبريل عليه السلام إلى النبي صلى الله عليه وسلم .

إيحاءات اللفظ

والتعبير بلفظ الإنزال في جانب القرآن يشير بدلالته اللغوية إلى علو صاحب هذا الكتاب المنزل علوا كبيرا ، كما قال تعالى ﴿ إِنَّا جَعَلْنَـٰهُ قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ۝ وَإِنَّهُۥ فِىٓ أُمِّ ٱلْكِتَـٰبِ لَدَيْنَا لَعَلِىٌّ حَكِيمٌ ﴾(١) .

كما يشير بهذه الدلالة اللغوية أيضا إلى أن للقرآن مستقرا قبل تنزله ، ولعل الآية السابقة قد دلت على مستقره وهو (أم الكتاب) . . وقد عبر القرآن مرة أخرى عن مستقره باللوح المحفوظ في قوله تعالى ﴿ بَلْ هُوَ قُرْءَانٌ مَّجِيدٌ ۝ فِى لَوْحٍ مَّحْفُوظٍۭ ﴾(٢) .

---

(١) القدر / ١ .

(٢) البروج / ٢١ ، ٢٢ .

ويفسر العلماء اللوح المحفوظ بأنه السجل العام الذي كتب الله فيه في الأزل كل ما كان وما يكون .

الوجود الأزلي

وخلاصة ما يستنبط من هاتين الآيتين أن للقرآن وجودا أزليا مسطورا في لوح محفوظ حتى جاء أمر الله تعالى بإنزاله .

غير أن هذا الإنزال قد اختلف حوله العلماء . فريق منهم يراه إنزالا متعدد الدرجات والكيفية ، وفريق يراه إنزالا واحدا على كيفية واحدة .

وقد اعتمد الفريق الأول في استنباط ما ذهبوا إليه على بعض آيات القرآن الكريم من مثل قوله تعالى : ﴿إِنَّآ أَنزَلۡنَٰهُ فِي لَيۡلَةِ ٱلۡقَدۡرِ﴾[1] و ﴿ إِنَّآ أَنزَلۡنَٰهُ فِي لَيۡلَةٖ مُّبَٰرَكَةٍ ﴾[2] و ﴿ شَهۡرُ رَمَضَانَ ٱلَّذِيٓ أُنزِلَ فِيهِ ٱلۡقُرۡءَانُ ﴾[3] . فقد رأوا في هذه الآيات ما يشير إلى أن القرآن أنزل في ليلة واحدة هي ليلة القدر ، وهي الليلة المباركة ، وهي من ليالي شهر رمضان ، وبدهي أن القرآن نزل على النبي صلى الله عليه وسلم في سنين عدة لا في ليلة واحدة ، وأنه نزل في رمضان وغيره ، فدل ذلك على أن للقرآن تنزلا سابقا على تنزله على محمد صلى الله عليه وسلم ومغايراً له . واستأنسوا بما أخرجه الحاكم والنسائي والبيهقي من طريق داود بن هند عن عكرمة عن ابن عباس أنه قال (أنزل القرآن جملة واحدة إلى سماء الدنيا ليلة القدر) . وفي رواية أخرى عن ابن عباس أيضا (فصل القرآن من الذكر فوضع في بيت العزة من سماء الدنيا فجعل جبريل ينزل به على النبي صلى الله عليه وسلم) .

---

(١) الزخرف /٣ ، ٤

(٢) الدخان /٢ .

(٣) البقرة /١٨٥ .

وقد مال السيوطي في (إتقانه) إلى هذا الرأي من أن القرآن نزل جملة واحدة من اللوح المحفوظ إلى بيت العزة في السماء الدنيا . . . وحكى عن القرطبي أنه رأى مجمع عليه . . وهذا هو الإنزال الأول .

أما الإنزال الثاني فهو نزول جبريل بالقرآن على قلب النبى صلى الله عليه وسلم منجما (أي مفرقا) وإليه يشير قول الله تعالى ﴿ نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ ﴿١٩٣﴾ عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُنذِرِينَ ﴿١٩٤﴾ بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ ﴾[1] وقوله تعالى ﴿ وَقُرْءَانًا فَرَقْنَٰهُ لِتَقْرَأَهُۥ عَلَى ٱلنَّاسِ عَلَىٰ مُكْثٍ وَنَزَّلْنَٰهُ تَنزِيلًا ﴾[2] .

ولم يعدم هؤلاء العلماء حكمة لهذا التنزل المتعدد ، فقالوا : إن في تعدد التنزل تفخيم شأن القرآن ، وشأن من أنزل عليه ، وإن تعدد النزول وتعدد السجلات تأكيدٌ للثقة فيه ، ومبالغة في نفي الشك عنه . . . وربما رأى بعض هؤلاء في استخدام لفظ (أنزل) حينا ، و (نزّل) حينا آخر تفرقة بين تنزيلين ، فلفظ (الإنزال) لما أنزل دفعة واحدة ، ولفظ (التنزيل) لما نزل مفرقا ، وساق بين يدي هذه التفرقة قوله تعالى ﴿ نَزَّلَ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَأَنزَلَ ٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ ﴿٣﴾ مِن قَبْلُ هُدًى لِّلنَّاسِ . . ﴾[3] . فعبر في جانب القرآن بالتنزيل ، وفي جانب التوراة والإنجيل بالإنزال ، لأنهما نزلا دفعة واحدة ، وعليه جاء قول الله تعالى في شأن التنزيل الأول للقرآن جملة واحدة ﴿ إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ فِى لَيْلَةِ ٱلْقَدْرِ ﴾[4] ، وجاء قوله تعالى في شأن التنزل الثاني المفرق ﴿ وَقُرْءَانًا فَرَقْنَٰهُ لِتَقْرَأَهُۥ عَلَى ٱلنَّاسِ عَلَىٰ مُكْثٍ وَنَزَّلْنَٰهُ تَنزِيلًا ﴾[5] .

---

(١) الشعراء / ١٩٣ - ١٩٥ .
(٢) الإسراء / ١٠٦ .
(٣) آل عمران / ٣ ، ٤ .
(٤) القدر / ١ .
(٥) الإسراء / ١٠٦ .

ولما كانت هذه التفرقة غير مطردة في آيات القرآن التي استخدمت هـذين اللفظين كقوله تعالى حكاية عن الكافرين : ﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ ٱلْقُرْءَانُ جُمْلَةً وَٰحِدَةً ﴾[1] ـ فقد استعملوا التنزيل وأرادوا الإنزال ـ قال أصحاب هذه التفرقة إن ذلك هو الغالب ، وليس بمطرد ، غير أنه يمكن الاستئناس به . .

أما الفريق الثاني وهم الذين يرون أن للقرآن تنزلا واحدا على كيفية واحدة ، وهو نزوله مفرقا على النبي صلى الله عليه وسلم غير مسبوق بتنزل آخر ـ فيذهبون في فهم الآيات السابقة بحملها على أن القرآن قد بدأ نزوله في ليلة القدر ، وهي الليلة المباركة وهي إحدى ليالي رمضان ، ثم استمر نزوله بعد ذلك منجما في أوقات مختلفة من سائر الأوقات متدرجا مع الوقائع والأحداث طيلة حياة النبي صلى الله عليه وسلم منذ بعثه حتى وفاته . . وهذا ما قال به الإمام الشعبي عامر بن شراحيل إمام أهل الفقه والحديث . وقد رأى فيه كثير من العلماء سدادا حيث جمع بين قوله تعالى ﴿ إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ فِى لَيْلَةِ ٱلْقَدْرِ ﴾ وقوله تعالى ﴿ وَقُرْءَانًا فَرَقْنَٰهُ لِتَقْرَأَهُۥ عَلَى ٱلنَّاسِ عَلَىٰ مُكْثٍ ﴾ . ورأوا في الأحاديث التي سيقت في هذا المقام أنها أحاديث موقوفة على ابن عباس وهي وإن كانت صحيحة الأسانيد إلا أن هذه التنـزلات المذكورة من علم الغيب الذي لا يؤخذ فيه إلا بما تواتر يقينا في الكتاب والسنة ، فصحة الأسانيد في هذا القول لا تكفي وحدها في وجوب اعتقاده ، فضلا عن أن القرآن قد صرح بخلافها من أنه قد نزل منجما[2] .

---

(١) الفرقان /٣٢ .

(٢) راجع مباحث في علوم القرآن د . صبحي الصالح / ٥١ .

كيف أخذ جبريل وعمن أخذ

هذا . . وقد كان اختلاف العلماء حول تعدد التنزلات واختلاف كيفياتها ـ مثيرا لخلاف آخر وهو : كيف أخذ جبريل عليه السلام القرآن وعمن أخذه ؟

ولخص الشيخ الزرقاني رحمه الله هذه القضية في (مناهله) فنقل عن الطيبي : أن جبريل ربما تلقف القرآن تلقفا روحانيا ، أو حفظه من اللوح المحفوظ ، ثم نزل به على النبي فألقاه إليه .

وحكى عن الماوردي : أن الحفظة نجمت القرآن على جبريل في عشرين ليلة ـ وهي ليالي القدر من سني بعثة الرسول صلى الله عليه وسلم ـ وأن جبريل عليه السلام نجمه على النبي في عشرين سنة .

وروى عن البيهقي في معنى قوله تعالى ﴿ إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ فِى لَيْلَةِ ٱلْقَدْرِ ﴾ أي : إنا أسمعنا الملك وأفهمناه إياه وأنزلناه بما سمع . وهذا يعني أن جبريل عليه السلام أخذ القرآن عن الله سماعا . .

وقد رجح الشيخ الزرقاني قول البيهقي في أخذ جبريل عن الله تعالى وأيده بما أخرجه الطبراني من حديث النواس بن سمعان مرفوعا إلى النبي صلى الله عليه وسلم (إذا تكلم الله بالوحي أخذت السماء رجفةٌ شديدةٌ من خوف الله ، فإذا سمع أهل السماء صَعِقوا وخروا سجدا ، فيكون أولهم يرفع رأسه جبريلُ فيكلمه الله بوحيه بما أراد ، فينتهي به إلى الملائكة فكلما مر بسماء سأله أهلها ماذا قال ربنا ؟ قال : الحق ، فينتهي به حيث أمر .)

وهذه القضية من قضايا الغيب لا يمكن القطع فيها برأي مالم يكن من القرآن مصدره ، أو من السنة الصحيحة مرجعه ، وهي مع ذلك قضية لا يتعلق بها كبير

غرض ، ما دمنا نقطع بأن مرجع التنزيل هو الله تعالى وحده[1]

مدة التنزيل

ولكتّاب سيرة النبي صلى الله عليه أقوال مختلفة حول المدة التي استغرقها نزول الوحي على النبي صلى الله عليه وسلم ويرجع هذا الخلاف إلى تحديد عمر الرسول عند بعثه فقيل في الأربعين وهو ما رواه ابن عباس وأنس في الصحيحين ، ولكن الواقدي قال : وهو في الثالثة والأربعين ، وفي تاريخ يعقوب عن مكحول أن القرآن نزل والنبي في الثانية والأربعين ، وبذا يكثر الخلاف حول المدة التي أقامها النبي بمكة بعد البعثة فهي من عشر سنين إلى خمس عشرة سنة ، ولكن القول الراجح فيها أنها ثلاث عشرة سنة .

واختلفوا أيضا حول أول يوم نزل فيه الوحي فقيل نزل في يوم الاثنين لسبع عشرة خلت من شهر رمضان ، وقيل لسبع وقيل لأربع وعشرين . وربما كان الأول أرجح استئناسا بقوله تعالى ﴿ إِن كُنتُمْ ءَامَنتُم بِٱللَّهِ وَمَآ أَنزَلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا يَوْمَ ٱلْفُرْقَانِ يَوْمَ ٱلْتَقَى ٱلْجَمْعَانِ ﴾ وذلك ملتقى الرسول والمشركين ببدر وكان لقاء بدر صبيحة يوم الجمعة السابع عشر من رمضان .

وإذا أخذنا بأرجح الآراء في المدة التي أقامها الرسول بمكة بعد بعثه وهي ثلاث عشرة سنة وأضفنا إليها مدة حياته في المدينة بعد الهجرة إليها وهي عشر سنين ـ فيكون نزول القرآن قد استغرق ثلاثا وعشرين سنة ، ولكن لا يمكن الجزم بمقدار المدة بين أول آية نزلت وآخر آية نزلت على وجه التحديد ، ذلك لأن خلافا وقع أيضا حول آخر آية نزلت ما هي وما زمانها ، وأحسب أننا في غنى عن ذكر هذا

(١) راجع مناهل العرفان ١/٤٠ ، ٤١ .

الخلاف مفصلا ، فليس من مباحثنا هنا ، وإنما نعمد إلى أرجح الأقوال في هذا الموضوع وهـو أن آخر آيـة نزلت هي قـول الله تبارك وتعـالى ﴿ وَٱتَّقُواْ يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى ٱللَّهِ ثُمَّ تُوَفَّىٰ كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴾[1] وقد عاش النبي بعد نزول هذه الآية تسع ليال ثم مات ليلة الاثنين لليلتين خلتا من شهر ربيع الأول وقد تضافرت الروايات على صحة هذا القول فيما رواه النسائي من طريق عكرمة عن ابن عباس ، وما رواه ابن مرد وبه بسنده عن سعيد ابن جبير عن بن عباس ، وما أخرجه ابن أبي حاتم بسنده عن سعيد بن جبير أيضا . .

وإذا تحصل لنا أن أول نزول القرآن كان يوم ١٧ رمضان سنة إحدى وأربعين من مولده صلى الله عليه وسلم ، وأن آخر نزوله كان يوم ٢٣ من صفر سنة أربع وستين من عمره ، كانت مدة نزول القرآن اثنتين وعشرين سنة ، وخمسة أشهر ، وستة أيام .

تنجيم القرآن

وإذا تجاوزنا الخلاف في قضية تعدد التنزيل ، وفي كيفية تلقي جبريل له ، وفي المدة التي استغرقها ـ طالعتنا قضية متفق عليها ألا وهي : تفرد القرآن بالتنجيم من بين سائر الكتب السماوية السابقة يشهد لـذلك قـول الله تعالى : ﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ ٱلْقُرْءَانُ جُمْلَةً وَٰحِدَةً كَذَٰلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِۦ فُؤَادَكَ وَرَتَّلْنَٰهُ تَرْتِيلًا ۝٣٢ وَلَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلَّا جِئْنَٰكَ بِٱلْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا ﴾[2] . وقد تضمنت هاتان الآيتان اعتراض المشركين الـذين ألفوا أن تلقى القصيدة جملة واحدة ، وسمـع بعضهم من اليهود أن التـوراة نزلت جملة

(١) البقرة /٢٨١ .

(٢) الفرقان /٣٢ ، ٣٣ .

واحدة ، فأخذوا يتساءلون عن نزول القرآن منجما ، وودوا لو ينزل كلُّه مرة واحدة ، وردّ الله عليهم ، بقوله ﴿ كَذَٰلِكَ ﴾ أي أنزلناه مفرقا ثم أشار إلى الحكمة في ذلك بقوله ﴿ لِنُثَبِّتَ بِهِۦ فُؤَادَكَ ﴾ أي لنقوي به قلبك ، فإن في تجدد الوحي مع كل حادثة قوة للقلب ، وعناية بالمرسل إليه . .

حكمة التنجيم

وقد أخذ العلماء في تفصيل ما أجملت الآيات من حكمة التنجيم وأسرار التفريق ، حتى أربوا على الغاية ، ولم يدعوا لمستزيد زيادة . .

لقد أجمل القرآن من ذلك حكمتين هما :

١ ـ تثبيت قلب النبي صلى الله عليه وسلم به ، وتيسير حفظه عليه أخذا من قوله تعالى ﴿ كَذَٰلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِۦ فُؤَادَكَ وَرَتَّلْنَـٰهُ تَرْتِيلًا ﴾ .

٢ ـ تجاوب الوحي مع الأحداث ، ومسايرة الأقضية أخذاً من قوله تعالى ﴿ وَلَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلَّا جِئْنَـٰكَ بِٱلْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا ﴾ .

التثبيت

أما تفصيل كيفية التثبيت فترجع إلى أن تجدد الموحى به ، وتكرر نزول جبريل عليه السلام يدخلان السرور على قلب النبي صلى الله عليه وسلم بما يتأكد لديه أنه مشمول برعاية الله مصداقا لقوله تعالى ﴿ **واصبر لحكم ربك ، فإنك بأعيننا** ﴾[1] . ويهونان عليه ما يلقاه من عنت قومه بتسلية المرة بعد المرة ،

(١) الطور /٤٨ .

وتحبيب التأسي إليه بمن قبله من الرسل مصداقا لقوله تعالى ﴿ فَٱصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُوْلُواْ ٱلْعَزْمِ مِنَ ٱلرُّسُلِ وَلَا تَسْتَعْجِل لَّهُمْ ﴾[1] . وإرشاده إلى سنته تعالى في الرسل والأمم ، بتكرير أنبائهم وقصصهم وما تضمنته من عقبى أمرهم كما في قوله ﴿ وَلَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ فَصَبَرُواْ عَلَىٰ مَا كُذِّبُواْ وَأُوذُواْ حَتَّىٰٓ أَتَىٰهُمْ نَصْرُنَا وَلَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَٰتِ ٱللَّهِ وَلَقَدْ جَآءَكَ مِن نَّبَإِيْ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴾[2] .

وصدق الله العظيم إذ يقول ﴿ وَكُلًّا نَّقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِۦ فُؤَادَكَ ﴾[3] .

تيسير الحفظ

أما تيسير حفظ القرآن له فيرجع إلى أن تجزئة القرآن نجوما لا تزيد في معظم الأحوال عن عشر آيات ، بل قد تكون خمسا فما دونها ـ أدعى إلى حفظه وفهمه ، ومعرفة أحكامه وحكمه ، فقد أخرج البيهقي عن خالد بن دينار قال : قال لنا أبو العالية : (تعلموا القرآن خمس آيات ، فإن النبي كان يأخذه من جبريل خمسا خمسا) وهو بهذا يشير إلى غالب نجوم القرآن .

وقد زاد محمد بن الحسن بن فورك الأمر تفصيلا فقال : أنزلت التوراة جملة لأنها نزلت على نبي يقرأ ويكتب وهو موسى عليه السلام ، وأنزل القرآن مفرقا لأنه نزل غير مكتوب على نبي أميّ)[4] . وصدق الله العظيم إذ يقول ﴿وَقُرْءَانًا فَرَقْنَٰهُ لِتَقْرَأَهُۥ عَلَى ٱلنَّاسِ عَلَىٰ مُكْثٍ وَنَزَّلْنَٰهُ تَنزِيلًا ﴾[5] . والمكث : هو التمهل

(١) الأحقاف /٣٥ .

(٢) الأنعام /٣٤ .

(٣) هود / ١٢٠ .

(٤) راجع : مباحث في علوم القرآن . د . صبحي الصالح /٥٩ .

(٥) الإسراء /١٠٦ .

والتأني .

التجاوب مع الأحداث

أما تجاوب الوحي مع الأحداث فيكاد يكون هدفا أساسيا من أهداف تجزئة القرآن ، فكلما جد جديد نزل من القرآن ما يناسبه وفصل لهم من أحكـامه مـا يوافقه ، ويعرف هذا بأسباب النزول . ولقد تلمح هذا التجاوب مع الأحداث ، ومجاراة الأقضية ، والوقائع في حينها في كل ما نزل من القرآن جوابا عن سؤال من مثل قوله تعالى :

١ ــ ﴿ وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِ قُلِ ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّى ﴾[1] .
٢ ــ ﴿ وَيَسْـَٔلُونَكَ عَن ذِى ٱلْقَرْنَيْنِ قُلْ سَأَتْلُواْ عَلَيْكُم مِّنْهُ ذِكْرًا ﴾[2]
٣ ــ ﴿ يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْأَهِلَّةِ قُلْ هِىَ مَوَٰقِيتُ لِلنَّاسِ وَٱلْحَجِّ ﴾[3] .
٤ ــ ﴿ يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْخَمْرِ وَٱلْمَيْسِرِ قُلْ فِيهِمَآ إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَٰفِعُ لِلنَّاسِ وَإِثْمُهُمَآ أَكْبَرُ مِن نَّفْعِهِمَا ﴾[4]

وكذلك في كل ما نزل إرشادا وتوجيها في حادثة حدثت أو تشريعا في قضية عرضت من مثل :

في غزوة حنين

١ ــ اغترار المسلمين بقوتهم وعددهم في غزوة حنين حتى قال قائلهم « لن نغلب

(١) الإسراء /٨٥ .
(٢) الكهف /٨٣ .
(٣) البقرة /١٨٩ .
(٤) البقرة /٢١٩ .

اليوم من قلة » فلم يعتمدوا على الله حق الاعتماد في طلب النصر ، فكان أن منوا بهزيمة منكرة أول الأمر ، ثم تداركهم الله برحمته ونصره وعقب القرآن على تلك الحادثة إرشادا وتوجيها للمسلمين بأن النصر ليس بالعدد والعدة فحسب ، وإنما هو من عند الله فقال تعالى ﴿لَقَدْ نَصَرَكُمُ ٱللَّهُ فِى مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنكُمْ شَيْـًٔا وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ ٱلْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُم مُّدْبِرِينَ ﴿٢٥﴾ ثُمَّ أَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَعَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَأَنزَلَ جُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا وَعَذَّبَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَذَٰلِكَ جَزَآءُ ٱلْكَـٰفِرِينَ ﴿٢٦﴾ ثُمَّ يَتُوبُ ٱللَّهُ مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾[1] .

حادثة الإفك

٢ ــ حادثة الإفك الذي رميت به السيدة أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها ، فأنزل الله براءتها من فوق سبع سموات في صدر سورة النور من قوله تعالى ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ جَآءُو بِٱلْإِفْكِ عُصْبَةٌ مِّنكُمْ ﴾ إلى قوله ﴿ أُو۟لَـٰٓئِكَ مُبَرَّءُونَ مِمَّا يَقُولُونَ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴾[2] .

ظهار خولة

٣ ــ قضية ظهار أوس بن الصامت من زوجه خولة بنت ثعلبة وقد رفعت شكواها إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وجادلته بأن معها منه صبية صغارا إن ضمتهم إليه ضاعوا ، وإن ضمتهم إليها جاعوا وتوقف الرسول عن القضاء

(١) التوبة / ٢٥ ، ٢٧ .

(٢) سورة النور /١١ ، ٢٦ .

فيها وقال : « ما أمرنا في أمرك بشيء » فأنزل الله تعالى صدر سورة المجادلة تشريعا في تلك القضية فقال تعالى ﴿ قَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ ٱلَّتِي تُجَٰدِلُكَ فِي زَوْجِهَا وَتَشْتَكِيٓ إِلَى ٱللَّهِ وَٱللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَآ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌۢ بَصِيرٌ ﴾ إلى قوله تعالى ﴿ .. وَتِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ ۗ وَلِلْكَٰفِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾[1]

زواج مرثد

٤ ــ قضية زواج مَرْثد الغنوي من إحدى المشركات وذلك حين أرسله الرسول صلى الله عليه وسلم إلى مكة ليخرج منها قوما مسلمين مستضعفين ، فلما وصلها عرضت امرأة مشركة نفسها عليه وكانت ذات جمال ومال فأعرض عنها خوفا من الله ، ثم أقبلت عليه تريد الزواج منه ، فقبل ، لكنه وقف ذلك على إذن النبي فلما قدم المدينة عرض قضيته عليه وطلب إجازة ذلك الزواج فأنزل الله قوله تعالى ﴿ وَلَا تَنكِحُوا۟ ٱلْمُشْرِكَٰتِ حَتَّىٰ يُؤْمِنَّ ۚ وَلَأَمَةٌ مُّؤْمِنَةٌ خَيْرٌ مِّن مُّشْرِكَةٍ وَلَوْ أَعْجَبَتْكُمْ ﴾ إلى قوله ﴿ وَيُبَيِّنُ ءَايَٰتِهِۦ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴾[2] .

سياسة التدرج في التربية

هـذا ـ وقد استبـان للمسلمين من بعـد ذلك حكم كثيـرة لتنجيم القرآن كانتهاج سياسة التدرج في التربية حيث بدأ بانتزاع العقـائد البـاطلة والعبادات الفاسدة ، والعادات المرذولة وراضهم على التخلص منها شيئا فشيئا دون عنت أو

---

(١) المجادلة /١ ، ٤ .

(٢) البقرة / ٢٢١ .

حـرج حتى إذا اكتمل تخليهم جـاءهم بما يحليهم من عقـائد حقـة ، وعبـادات صحيحة ، وعادات حسنة ، وأخلاق فاضلة . . وقد أشارت السيدة عائشة رضي الله عنها إلى ذلك ـ كما ورد في صحيح البخاري ـ فقالت : إنما نزل من القرآن أول مانزل منه سورة من المفصل فيها ذكر الجنة والنار ، حتى إذا ثاب الناس إلى الإسلام نزل الحلال والحرام ، ولو نزل أول شيء لا تشربوا الخمر لقالوا لا نـدع الخمر أبدا ، ولو نزل لا تزنوا ، لقالوا لا ندع الزنا أبدا .)

سياسة التدرج في التشريع

وكذلك انتهاج سياسة التدرج أيضا في التشريع كتحريم الخمر مثلا . فقد نزل فيها أول ما نزل : ﴿ * يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْخَمْرِ وَٱلْمَيْسِرِ قُلْ فِيهِمَآ إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَـٰفِعُ لِلنَّاسِ وَإِثْمُهُمَآ أَكْبَرُ مِن نَّفْعِهِمَا ﴾[1] .

ثم تلتها خطوة أخرى في صرفهم عنها بعض الوقت في قوله تعالى ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَقْرَبُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنتُمْ سُكَـٰرَىٰ حَتَّىٰ تَعْلَمُوا۟ مَا تَقُولُونَ ﴾[2] فضيق عليهم بذلك فرص السكر ، وقلل مرات التناول حتى إذا تهيئوا للإقلاع عنها جاء التحريم القاطع في قوله تعالى ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِنَّمَا ٱلْخَمْرُ وَٱلْمَيْسِرُ وَٱلْأَنصَابُ وَٱلْأَزْلَـٰمُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ ٱلشَّيْطَـٰنِ فَٱجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾ إلى قوله تعالى ﴿ فَهَلْ أَنتُم مُّنتَهُونَ ﴾[3] . قالوا انتهينا ، وانتهوا حقيقة وأصبحو ينتظرون حدود الله في شارب ا الخمر . .

---

(١) البقرة / ٢١٩ .

(٢) النساء / ٤٢

(٣) المائدة / ٩٤ .

كما رأوا في تنجيم القرآن دليلا على إعجازه من حيث جاء محكم السرد ، دقيق السبك ، متين الأسلوب ، قوي الاتصال ، آخذا بعضه برقاب بعض ، آخره مساوق لأوله ، وأوله موات لآخره . فكيف استقام له هذا التناسق العجيب ؟ على حين أنه لم ينزل جملةواحدة ، بل تنزل آحادا مفرقة تفرق الوقائع والأحداث في أكثر من عشرين عاما ، وهي داعية في مجرى العادة إلى التفكك والانحلال ، ومؤذنة بالاختلاف والاضطراب . إنه سر من أسرار إعجازه دلّ به على مصدره ، وهدى إلى الله موحيه ومنزله ، خالق القوى والقدر ، ومالك الأسباب والمسببات ومدبر الخلق والكائنات ، العليم بما كان وما سيكون ، الخبير بالزمان وما يحدث فيه من شؤون[1] . وصدق الله العظيم إذ يقول ﴿ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُوا۟ فِيهِ ٱخْتِلَٰفًا كَثِيرًا ﴾ .[2]

هذا . . وليست هذه نهايةالحكم . فهناك لمن أحكم النظر ، وأجال البصر حكم ، وحكم . .

(١) من مناهل العرفان ١ /٥٣ ، ٥٤ بتصرف .
(٢) النساء / ٨٢

ثبوت القرآن وتواتره لفظاً ومعنى

لقد أدى بنا البحث فيما سبق إلى أن القرآن الكريم تنزيل من رب العالمين ، نزل به الروح الأمين على قلب محمد صلى الله عليه وسلم لفظا ومعنى ، وقد جمعه الله تعالى في صدوره حفظا وأجراه على لسانه تلاوة . .

حفظ وبلاغ

ولم يكن للقرآن أن يقف عند هذا الحد من ذاكرة الرسول وعيا وحفظا ، بل تنزل عليه مشفوعا بأمر إبلاغه للناس فقال تعالى ﴿ * يَـٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغْ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ﴾[1] .

وكان عليه بمقتضى هذا الأمر أن يبلغ نص ما أوحي إليه إلى قومه ليكون لهم فيه بعد الحكاية والتبليغ ؛ تطبيق وتنفيذ .

ولما كان القرآن معجزة هذا النبي وشاهده على صدق رسالته الخالدة ، ودستور دينه الخاتم ومصدر شرائعه فقد قيض الله من يقوم على حفظه وبلاغه إنفاذا لوعده تعالى ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَـٰفِظُونَ ﴾[2] .

ومن ثم كان علينا أن نتابع مسيرة النص القرآني منذ لقنه الرسول صلى الله

---

(١) المائدة / ٦٧ .

(٢) الحجر / ٩

عليه وسلم لأصحابه ، إلى أن تم في المصاحف تسجيله ؛ ليتأكد لنا وللناس كافة من آمنوا به ومن لم يؤمنوا ثبوت تواتره لفظا ومعنى ، ولندرأ عنه من خلال مسيرته ما أثير حوله من شبهات تحاول النيل من هذا التواتر .

النص القرآني في حياة الرسول[1]

لقد كان النبي صلى الله عليه وسلم منذ تلقى القرآن شديد الحرص على استظهاره وحفظه ، وكان بسبب هذا الحرص يتعجله في أثناء تلقيه حتى طمأنه ربه بأن وعده بجمعه له في صدره ، وأن يسهل له قراءة لفظه وفهم معناه فقال تعالى ﴿ لَا تُحَرِّكْ بِهِۦ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِۦٓ ﴿١٦﴾ إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُۥ وَقُرْءَانَهُۥ ﴿١٧﴾ فَإِذَا قَرَأْنَٰهُ فَٱتَّبِعْ قُرْءَانَهُۥ ﴿١٨﴾ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُۥ ﴾[2] .

كتابة الوحي وكتابه

وتحقق وعد الله لنبيه فصار أحفظ الناس له ، وأعلمهم به وتلقاه عنه أصحابه مشافهة وتلقينا ، وتسابقوا فيه حفظا واستظهارا ، ثم ظاهر الحفظ وأكده كتابة وتسجيلا ، فاتخذ كتابا للوحي بلغت عدتهم - على ما جاءت به الروايات - ثلاثة وأربعين[3] وكان أول من كتب له بمكة عبد الله بن أبي سرح ، ثم ارتد ، ثم عاد إلى الإسلام يوم فتح مكة ، وكان من جملة كتابه الخلفاء الأربعة والزبير بن

---

(١) راجع في تفصيل موضوع النص القرآني في حياة الرسول ، وبعد وفاته كتابنا : من قضايا القرآن : الأحرف السبعة والقراءات . د. اسماعيل الطحان

(٢) القيامة / ١٦ ، ١٩

(٣) تاريخ القرآن للزنجاني / ٤٢

العوام . وخالد وأبان ابنا سعيد بن العاص بن أمية وغيرهم . وأول من كتب له بالمدينة أبي بن كعب ، ثم زيد بن ثابت وكان زيد ألزم كتاب الوحي للنبي .

وفي كتب السنة كثير من الأحاديث تشير إلى أن الرسول كان يملي القرآن على كتاب الوحي ويقفهم على ترتيب الآيات ومكان كل آية من سورتها وأختها[١] .

وكانوا يكتبون في الرقاع من جلد أو ورق ، وفي اللخاف ، والعسب ، والأكتاف[٢] .

وكان كل مايكتب من نصوص الوحي تودع صحفه بيت النبي صلى الله عليه وسلم على ماهي عليه مفرقة الآيات والسور انتظارا لبلوغ الوحي تمامه ليخرج القرآن في شكل وحده كاملة مسجلة ، وهو مالم يدركه النبي صلى الله عليه وسلم لقرب وفاته من ختام ما أوحي إليه . وإن كان ذلك لم يحل دون تمامه على هيئته تلك في صدور أصحابه الذين حفظوه عنه تلقيا وعرضوه عليه سماعا وهم كثير ، أحصتهم الروايات أكثر من مائة وأربعين من المهاجرين والأنصار من الرجال والنساء .

عدد حفاظه

غير أن المتصفح لصحيح البخاري يجد به ثلاث روايات تحصى عدد الحفاظ بما لا يزيد عن سبعة .

الرواية الأولى عن عبد الله بن عمرو بن العاص : قال : سمعت النبي صلى الله عليه وسلم يقول : خذوا القرآن من أربعة : من عبد الله بن مسعود ، وسالم ،

(١) راجع البخاري ومسند أحمد في ذلك

(٢) العسب : جريد النخل ، واللخاف : حجارة رقيقة ، والأكتاف : عظام الكتف من بعير أو شاه .

ومعاذ ، وأبيّ بن كعب » والثانية عن قتادة قال : « سألت أنس بن مالك : مَنْ جمع القرآن على عهد النبي صلى الله عليه وسلم ؟ قال أربعة كلهم من الأنصار : أبي بن كعب ، ومعاذ بن جبل ، وزيد بن ثابت وأبو زيد ، قلت ومَنْ أبو زيد ؟ قال : أحد عمومتي » والثالثة من طريق ثابت عن أنس قال : مات النبي صلى الله عليه وسلم ولم يجمع القرآن غير أربعة : أبو الدرداء ، ومعاذ بن جبل وزيد بن ثابت ، وأبو زيد » .

وعدة هؤلاء ـ باستبعاد المكرر ـ سبعة هم :

عبد الله بن مسعود ، وسالم بن معقل مولى أبي حذيفة ، ومعاذ بن جبل ، وأبيّ بن كعب ، وزيد بن ثابت ، وأبو زيد بن السكن وأبو الدرداء (عويمر بن زيد) .

وقد تلقف هذه الروايات المستشرق (بلاشير رجيس) ليطلق الحكم بأن الحديث النبوي لايعرف للقرآن إلا سبعة من الحفاظ ، وهو عدد لا يكفي في إثبات التواتر للقرآن . .

ولقد فاته ماعلق به العلماء على هذه الروايات ، وبخاصة رواية أنس التي جاءت بصيغة الحصر ، فقالوا : إن الحصر في هذه الرواية حصر نسبي ، وليس حصرا حقيقيا حتى ينفي أن يكون غير هؤلاء قد جمعه على عهد الرسول صلى الله عليه وسلم ، بدليل ما رواه البخاري عن أنس نفسه في رواية قتادة عندما سأل أنسا عمن جمع القرآن في عهد النبي فذكر أربعة منهم أبيّ بدلا من أبي الدرداء . وقوله (كلهم من الأنصار) بهذا الحصر معارض برواية البخاري الأولى عن عبد الله بن عمرو إذ أن بها اثنين من المهاجرين هما : ابن مسعود ، وسالم .

ثم إن الحصر الحقيقي لايتأتى إلا أن يكون أنس رضي الله عنه قد لقي كل

واحد من الصحابة وأخبره عن نفسه أنه لم يكمل له جمع القرآن في عهد الرسول صلى الله عليه وسلم ، وهو أمر مستبعد لتفرق الصحابة في البلاد وهم كثير[١] .

وإذا انتفى الحصر الحقيقي كانت الروايات الأخرى التي عددت من أسماء الحفظة غير هؤلاء جمعا غفيرا ـ كافية في إثبات التواتر للقرآن الكريم[٢] .

وإذا سلمنا (لبلاشير) بأن الحصر حقيقي فإن مؤداه أن القرآن لم يجمعه كله سوى هؤلاء ، وقد جمع بعضه غير هؤلاء وليس من شرط التواتر أن يحفظ كل فرد جميعه ، بل إذا حفظ الكلُّ الكلَّ ولو على التوزيع كان كافيا في إثبات التواتر للقرآن كله بإثبات التواتر لكل جزء من أجزائه مادام الحافظون لكل جزء منه جمعا يؤمن تواطؤهم على الكذب .

على هذا النحو من التوثيق بالحفظ والتسجيل كانت مسيرة النص القرآني في حياة الرسول صلى الله عليه وسلم .

فهل بعد ذلك تقبل دعوى المتشككين من أن النبي أسقط شيئا من القرآن أو نسبه فلم يبلغه ؟

وكيف ؟ وقد جمعه الله في صدره وأجره على لسانه ، وتعهد تثبيته في قلبه بإيفاد جبريل عليه السلام إليه يعارضه به في كل عام مرة ، إلا عامه الأخير فقد عارضه به مرتين ، وعقب النبي على ذلك فقال : « ولا أراه إلا حضور أجلي » .

قالوا : ولم لا وقد ثبت في الصحيحين عن عائشة رضي الله عنها أن النبي

---

(١) قارن بمناهل العرفان ١ / ٢٣٦ وما بعدها ، ومباحث في علوم القرآن د. الصالح / ٦٥ وما بعدها .
(٢) راجع الاتقان في علوم القرآن : السيوطي ١ / ١٢١ (الفرع العشرون في معرفة حفاظه ورواته) .

صلى الله عليه وسلم سمع رجلا يقرأ ، فقال : رحمه الله ، لقد أذكرني آية كنت أسقطتها وفي رواية في الصحيح كنت أنسيتُها » .

وحتى هذا الحديث لايزعزع الثقة في تبليغ القرآن كاملا غير منقوص . . فقصارى ما يفهم منه أن قراءة الرجل وهو (عبّاد بن بشار) رضي الله عنه ذكرت النبي آية قد نسيها أو أسقطها (نسيانا) بعد أن حفظها النبي وأحفظها ذلك الرجل وغيره من الصحابة ، واستكتبها كتاب الوحي . . فلا ضير إذن أن تغيب عن ذهنه بعض الوقت ـ وهي في حافظة غيره حاضرة ، وفي سجلات الوحي ماثلة ـ فهو نسيان لم يخل بالرسالة والتبليغ .

وكيف وقد استحال في شأنه نسيان ما أمر بتبليغه لما يؤدي إليه من نقص الرسالة وهو في حق الرسل ، وحقه محال لقوله تعالى : ﴿سَنُقْرِئُكَ فَلَا تَنسَىٰٓ ۝٦ إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُ﴾[1] .

قالوا : ألا يكفى الاستثناء في الآية دليلا على وقوع النسيان منه ، وربما كان لآيات لم يتفق له من يذكره إياها ؟

حتى ولاذاك الاستثناء على ما تزعمون ؛ لأن إنساء الرسول شيئا قبل بلاغه يتناقض مع أمر الله له بالبلاغ في قوله تعالى ﴿ * يَـٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغْ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ۖ وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُۥ ﴾[2] إلا أن يكون النسيان لشيء تم إبلاغه ـ بمعنى أن يغيب عن ذهنه بعض الوقت بحكم بشريته فهو كما قال عن نفسه « إنما أنا بشر أنسى كما تنسون » وهو كما قلنا نسيان لايخل بالرسالة والبلاغ . أويكون النسيان لشيء أراد الله نسخه وعليه حمل العلماء دعوى النسخ في القرآن .

---

(١) الأعلى / ٦ ، ٧

(٢) المائدة / ٦٧

هذا . وللإمام محمد عبده[1] توجيه آخر لهذا الاستثناء في ضوء ما فهمه من قوله تعالى ﴿ سَنُقْرِئُكَ فَلَا تَنسَىٰٓ ﴾ بأنه وعد من الله لنبيه على وجه التأييد واللزوم ، ولكن قد يوهم أن قدرة الله لا تسع غيره ، وأنه خارج عن إرادته جل شأنه ،فجاء الاستثناء في قوله تعالى ﴿ إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُ ﴾ على معنى إن أراد أن ينسيك شيئا لم يعجزه ذلك ، ولكنه لم يرد ، فانتفى النسيان .

ودل بهذا الاستثناء على فائدتين إحداهما : إعلان النبي بأن عدم نسيانه محض فضل من الله وإحسان . وثانيتهما أن تعلم أمته أن ماخص الله به نبيها من العطايا لم يخرجه عن دائرة العبودية فلا تفتن به كما فتن النصارى في المسيح عليه السلام .

مخطوطات الصحابة

هذا ، وقد كان لبعض الصحابة رضوان الله عليهم ـ ممن كانت لهم قدرة على الكتابة ـ بجانب اهتمامهم بحفظ القرآن ، اهتمام بتسجيله كذلك في مخطوطات شخصية لاستعمالهم الخاص ، يدل لذلك ماكان من إسلام عمر رضي الله عنه بسبب قراءة آيات من سورة (طه) وجدها عند زوج أخته .

وكان من أخصاء الصحابة الذين كانت لهم تلك المخطوطات الشخصية : ابن مسعود ، وأبي بن كعب ، وعمر بن الخطاب وعلي بن أبي طالب ، وعبد الله بن عباس ، وعبد الله بن عمر وعبد اللهبن الزبير . وهذه المخطوطات الشخصية قد تختلف فيما بينها في النص القرآني باختلاف ما تلقوه من النبي صلى الله عليه وسلم

---

(١) راجع تفسير جزء (عم) في هذه الآية من سورة الأعلى

على التخيير من نصوص الوحي المتبانية كقوله تعالى ﴿ إِن جَآءَكُمْ فَاسِقُۢ بِنَبَإٖ فَتَبَيَّنُوٓاْ ﴾ أو (فتثبتوا) وكقوله تعالى ﴿ هُنَالِكَ تَبْلُواْ كُلُّ نَفْسٍ مَّآ أَسْلَفَتْ ﴾ أو (تتلو) إلخ . . . أو بسبب حريتهم في إضافات إلى تلك المخطوطات تفسيرا للنص القرآني ، أو بيانا لمجمله ، أو تقديرا لمحذوف منه ، أو حديثا سمعوه من الرسول لحاجتهم اليه ، وكانوا لا يرون في ذلك بأسا لأمن اللبس لديهم لتحققهم مما تلقوه قرآنا[1] .

تلك هي مسيرة النص القرآني في أول مراحله منذ تلقاه النبي إلى أن لحق بالرفيق الأعلى .

النص القرآني بعد وفاة النبي

في خلافة أبي بكر

من خلال المرحلة الأولى عرفنا أن النبي صلى الله عليه وسلم لحق بالرفيق الأعلى ورقاع الوحي المسجل لم تأخذ شكلها النهائي في وحدة مرتبة الآيات والسور على هيئتها المحفوظة في صدور الصحابة رضوان الله عليهم ، ولم تكن الحاجة ملحة آنذاك إلى نشر النص المكتوب إذ كان جل اعتمادهم على استظهارهم . حتى وقع ماليس في الحسبان فقد شهدت أرض الجزيرة حركة ارتداد عن الإسلام عارمة مع بداية خلافة أبي بكر رضي ا لله عنه ودارت رحى الحرب بين المسلمين والمرتدين من أتباع مسيلمة في معركة فاصلة على أرض اليمامة أبلى فيها حملة القرآن بلاء حسنا حتى قتل منهم قرابة سبعين شهيدا .

---

(١) راجع النشر : لابن الجزري ١ / ٢٢

أسباب الجمع

وترامت أنباء هؤلاء الشهداء إلى المدينة فهال عمر رضي الله عنه النبأ لما أدرك من خطورة موتهم على القرآن ، إذ هم الشهود العدول على وثاقة النص المكتوب الذي لم ينته بعد إلى شكله المطلوب ففزع إلى أبي بكر رضي الله عنه يطلب إليه جمع القرآن وتوثيقه عن طريق حفظته الباقين على قيد الحياة قبل أن يستحر القتل بهم في مواطن أخرى فيعز جمع القرآن في لقاء وثيق بين المحفوظ والمكتوب . . وفي ذلك روي البخاري في صحيحة أن زيد بن ثابت رضي الله عنه قال : أرسل إليّ أبو بكر مقتل أهل اليمامة فإذا عمر بن الخطاب عنده ، قال أبو بكر : إن عمر أتاني لآمر بجمع القرآن ، فقلت له : كيف تفعل مالم يفعله الرسول ، قال عمر : هو والله خير ، فلم يزل يراجعني حتى شرح الله صدري لذلك ، ورأيت في ذلك الذي رأى عمر . قال زيد : فقال لي أبو بكر إنك رجل شاب عاقل لانتهمك وقد كنت تكتب الوحي لرسول الله صلى الله عليه وسلم ، فتتبع القرآن فاجمعه ، فوالله لوكلفوني نقل جبل ما كان أثقل علي مما أمرني به من جمع القرآن ، قلت : وكيف تفعلون شيئا لم يفعله رسول الله ؟ قال : هو والله خير ، فلم يزل أبو بكر يراجعني حتى شرح الله صدري للذي شرح له صدر أبي بكر وعمر . . . »[1]

منهج الجمع

وحمد أبو بكر رضي الله عنه لزيد ذلك وأعانه على مهمته بعمر رضي الله عنه ورسم لهما منهجا للعمل يتمثل فيما يأتي :

١ ــ أن تكون الصحف المودعة في بيت الرسول صلى الله عليه وسلم ركيزة هذا

(١) راجع صحيح البخاري كتاب فضائل القرآن الباب الثالث والرابع

العمل ، يدل لذلك ما قاله الإمام أبو عبد الله الحارث بن أسد المحاسبي : كتابه القرآن ليست محدثة ، فإن النبي كا يأمر بكتابته ، ولكنه كان مفرقا في الرقاع والأكتاف والعسب ، وإنما أمر الصديق بنسخها من مكان إلى مكان ، وكان ذلك بمنزلة أوراق وجدت في بيت رسول الله فيها القرآن منتشر فجمعها جامع وربطها بخيط حتى لا يضيع منها شيء[١]

٢ ـ أن يُطلبَ القرآن ممن عندهم ليعارض المتفرق بالمجتمع ، وليشترك الجميع في علم ما جمع فلا يغيب عن جمع القرآن أحد عنده منه شيء ، ولا يرتاب أحد فيما يودع المصحف ، ولا يشك في أنه جمع عن ملأ منهم[٢] .

قال عمر رضي الله عنه فناديت في الناس : من كان تلقى من رسول الله شيئاً من القرآن فليأت به ، وأرسلت إلى أبيّ بن كعب فجاء فوجدنا مع أبيّ مثل ما وجدنا عند جميع الناس .[٣]

٣ ـ من جاء بشيء من القرآن مخالفا لتلك الصحف أو مفقودا منها فاطلبا على ما تنكراه شاهدين بأنه كتب بإملاء الرسول وبين يديه[٤] .

وقد أدى اشتراط شاهدين إلى استبعاد آية جاء بها عمر رضي الله عنه في رجم الزاني والزانية منطوقها (إذا زنا الشيخ والشيخة فارجموهما ألبته نكالا من الله والله عزيز حكيم)[٥] .

---

(١) راجع البرهان : للزركش ١/٢٣٨ .
(٢) المرجع السابق .
(٣) راجع المرشد الوجيز لأبي شامة /٦٢ ، ٦٣ ، والاتقان ١/١٦٦ .
(٤) المرشد /٦٣ ، والاتقان ١/١٦٧ .
(٥) راجع فتح الباري ١٢/١١٩ .

قيل لزيد ألا تكتبها ؟ قال : كيف ألا ترى بأن الشابين الثيبين يرجمان ؟ فليطلب عليها عمر شاهدا معه ، فلم يشهد على قرآنيتها أحد معه[1] .

هذا على حين أثبت زيد آخر (براءة) وقد فقدها فطلبها فلم يجدها مكتوبة إلا عند أبي خزيمة الأنصاري وحده ، لكن زيدا كان يحفظها وشهد عليها أبيّ معه . . قال ابن أبي داود عن أبي العالية : جمع القرآن في مصحف في خلافة أبي بكر ، وكان رجال يكتبون ويملي عليهم أبي بن كعب ، فلما انتهوا إلى هذهالآية من سورة براءة : ﴿ ثُمَّ ٱنصَرَفُواْ صَرَفَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُم بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَفْقَهُونَ ﴾ فظنوا أنها آخر ما نزل من القرآن ، فقال أبيّ : إن رسول الله أقرأني بعدهن آيتين : ﴿ لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ ﴾ إلى قوله تعالى ﴿ وَهُوَ رَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ ﴾ فهذا آخر ما نزل من القرآن فختم الأمر بما فتح به يعني بكلمة التوحيد[2] فكيف يدعي مدع أن هذه الآية قد أثبتت في المصحف بخبر الواحد ؟ فما كان وجودها مع أبي خزيمة كافيا لولا تواترها لدى كثير من الصحابة ، وأن زيدا كان قد سمعها وعلم موضعها ، وما كان طلبها وتتبعها إلاّ للاستظهار لا لاستحداث العلم[3] .

ومضى زيد ينفذ هذا المنهج على وجهه كأدق ما يكون التنفيذ وكأحسن ما يكون التحري ، وكأسلم ما يكون التثبت ، فلم يجامل في حق ، ولم يترك صوابا لأي اعتبار . .

وجمع بهذا المنهج وتنفيذ بهذا الأسلوب حرى بأن يحظى بإجماع الأمة وأن

---

(١) الاتقان ١/١٦٨ عن الليث بن سعد .
(٢) المرشد /٥٥ ، ٥٦ .
(٣) البرهان ١/٢٣٤ .

يظفر بتأييد الصحابة دون نكير ، قال علي رضي الله عنه : رحم الله أبا بكر ، هو أول من جمع كتاب الله بين اللوحين[1] .

وعلى الرغم من شهادة عليّ هذه . ودعائه لأبي بكر بالرحمة يزعم بعض غلاة الشيعة أن أبا بكر وعمر رضي الله عنهما أسقطا من القرآن في هذا الجمع سورة (ولاية علي) وأسقطوا من سورة الأحزاب (فضائل آل البيت) ، وأسقطوا جملا من بعض الآيات مثل : (وكفى الله المؤمنين القتال) [بعلي بن أبي طالب] ومثل : (وسعيلم الذين ظلموا [آل البيت] أي منقلب ينقلبون)

وهي كما ترى اتهامات عارية من الدليل ، ومزاعم يكفي في ردها ما ظفر به المصحف المجموع من إجماع الصحابة بما فيهم علي رضي الله عنهم أجمعين ، ودعاء عليّ بالرحمة لأبي بكر على هذا العمل الجليل الذي صان به القرآن وحفظه .

هذا ، ولو كان الأمر على ما يقول هؤلاء الغلاة ، فما الذي منع عليا رضي الله عنه ـ وقد آلت الخلافة إليه ـ أن يصحح ما أخطأ فيه أسلافه ، وأن يعيد إلى القرآن ما أسقطوا منه . . وهو إن لم يفعل أحد رجلين : إما أن يكون جبانا ، وحاشاه أن يكون فقد كان أشجع خلق الله في نصرة الدين ، فضلا عن كونه الإمام المعصوم ـ في عقيدة هؤلاء المبطلين ـ وإما أن يكون شاهد صدق على صحة هذا المصحف المجموع ، وإنه لكذلك أيها المفترون . .

ولما أتم أبو بكر رضي الله عنه هذا العمل الجليل على يد زيد وعمر بإشراف منه ، قال التمسوا له اسما ، فقال بعضهم (السفر) قال ذلك اسم تسميه اليهود ، فكرهوا ذلك . فقال بعضهم (المصحف) وارتضى الجميع هذا الاسم[2] ، وهو

(١) البرهان ١/ ٢٣٩ .
(٢) الإتقان ١/ ٨٩ .

بضم الميم لغة قيس ، وبكسرها لغة تميم ، والفتح فيها لغة لم تثبت[1] .

واحتفظ الصديق بهذا المصحف عنده طيلة حياته ، ثم استودعه عمر حين رشحه للخلافة من بعده فبقي عنده أيامه ، ثم سلمه إلى ابنته حفصه أم المؤمنين في آخر لحظة من حياته لأن الخليفةالثالث لم يكن قد بويع بعد[2] .

هدف جمع المصحف

لقد حقق جمع القرآن في عهده أبي بكر رضي الله هدفه من توثيق النص القرآني وصيانتـه من التحريف والتبـديل ، وإخـراجه كـلاّ متكامـلا على الهيئـة المحفوظة في الصدور ، ليكون مرجع الناس عند الحـاجة إليـه . . ومن ثم كان النسخ لمصحف واحد حفظه أبو بكر لديه فترة بقائه في الخلافة ، ولم يكن الناس خلال خلافته في حاجة إلى نص مكتوب ليقرءوا منه ، بل كانوا على مثل ما كانوا عليه في حياة الرسول صلى الله عليه وسلم ، أنا جيلهم في صدورهم يعتمدون في تلاوة القرآن عـلى استظهـارهم ، ويتناقلون نصـوص الوحي الكـريم فيما بينهم بالتلقين والمشافهة ، فيحفظ منهم مَنْ لم يكن قد حفظ ، ويزيد من حفظ بعضه إلى محفوظه ما بقي منه .

وتميز عدد من الصحابة بجودة الحفظ والإتقان فـاتخذهم النـاس معلمين لهم ، يأخذون عنهم ، ويقرءون عليهم ، والناس في سعة من أمرهم بمقتضى ما رخص لهم من قراءة القرآن بلهجاتهم ، ولا حرج على العاجزين منهم أن يقرءوا بما وسعتهم قدرتهم . .

---

(١) لسان العرب ١٨٦/٩ .
(٢) البرهان ١/ ٢٣٩ .

ولم تطل الحياة بأبي بكر رضي الله عنه بعد أن أتم هذا العمل الجليل سوى بضعة أشهر ، انتقلت بعدها الخلافة إلى عمر رضي الله عنه وقد استودعه النسخة الوحيدة للمصحف لتكون تحت تصرفه إذا ما احتاجت الأمة إليه .

ولم يطرأ على حياة الناس تغيير يذكر فيما اعتادوا من حفظ القرآن وتحفيظه سوى ما أبدى رضي الله عنه من رغبة في نشر النص القرآني بلهجة قريش ، حين كتب إلى ابن مسعود أن يقرىء الناس بلغة قريش ، ولا يقرئهم بلغة هذيل[1] ، وكان هذا من عمر اختياراً للأفضل لكي يتمرس الناس على لغة قريش التي نزل بها القرآن ، حتى تلين ألسنتهم بها . .

كما اقتضاه ما طرأ على الرقعة الإسلامية من اتساع إبان خلافته أن يضاعف من نشاطه في تعليم الناس القرآن ، وقد استعانه ولاة الأقاليم المفتوحة على ذلك ، وقد أعانهم بثلاثة من القراء فخرج عبادة بن الصامت إلى حمص ، وأبو الدرداء إلى دمشق ، ومعاذ بن جبل إلى فلسطين وما زالوا في سياحتهم حتى ماتوا[2] ـ رضي الله عنهم أجمعين .

وزاد اتساع الرقعة الإسلامية في أخريات حياته ، وكثر عدد المسلمين الجدد الراغبين في تعلم القرآن ، ولم يعد في الإمكان والحالة هذه ـ ضبط الرقابة على كيفية أداء المسلمين الجدد لحروف القرآن إلى أن كانت خلافة عثمان رضي الله عنه .

---

(١) المرشد / ١٠١ .
(٢) راجع طبقات ابن سعد ٢ / ٣٥٦ .

في خلافة عثمان

في خلافة عثمان اتسعت الفتوحات الإسلامية وتضاعف اتساع الرقعة الإسلامية وانساح المسلمون من جزيرتهم مع الجيوش الفاتحة ، وتلاوة القرآن عبادتهم الميسرة آناء الليل وأطراف النهار ، كل يقرأ على ما حفظ بقدرته الذاتية مصطحبا معه رخصة التيسير (بالأحرف السبعة) التي نزل القرآن عليها ، فبدت في قراءاتهم أخطاء العجز الذاتي ، ولهجات الألسنة ونسيان الذاكرة ، والخلط بين التنزيل والتأويل فيما وقفوا عليه من مخطوطات الصحابة دون تمييز لغيبة النص المكتوب المجمع عليه ـ وطبيعي مع هذه الكثرة والبعد عن مركز التنزيل ، وقلة الضابطين من الحفاظ أن يتفاقم الخلاف حول النص القرآني لدى العامة من أهل البلاد المفتوحة وأن يبلغ مداه إلى حد التكفير والتأثيم بسبب اعتزاز كل بما حفظ وظن أنه الصواب وحده فهذا يقول : قراءتي وما أخذت به ، وذاك يقول : بل قراءتي وما أنا عليه ، حتى كان الرجل يقرأ فيقول له صاحبه : كفرت بما تقول[1] ـ .

ووقف حذيفة بن اليمان على هذه الحال حين تجمعت جيوش المسلمين الوافدة من سوريا والعراق في معارك أرمينية وأذربيجان .

أسباب نسخ المصاحف

روى البخاري في صحيحه بسنده عن ابن شهاب عن أنس رضي الله عنه أن حذيفة قدم على عثمان ـ وقد أفزعه اختلافهم في القراءة ـ فقال : يا أمير المؤمنين أدرك هذه الأمة قبل أن يختلفوا في الكتاب اختلاف اليهود والنصارى .

---

(١) راجع إعجاز القرآن للرافعي / ٣٤ .

وربما كان عثمان قد وقف على مثل هذا الخلاف بين جماهير المسلمين في المدينة ، فقال يا أصحاب محمد اجتمعوا واكتبوا للناس إماما[١] . فقد أصبحت الحاجة ماسة إلى نشر النص المكتوب من القرآن فأرسل إلى حفصة رضي الله عنها يطلب المصحف المودع عندها ، فأرسلته إليه ، فأمر زيد بن ثابت ، وعبد الله ابن الزبير ، وسعيد بن العاص ، وعبد الرحمن بن الحارث بن هشام فنسخوه في المصاحف ، وقال للرهط القرشيين الثلاثة إذا اختلفتم أنتم وزيد في شيء من القرآن (في الرسم) فاكتبوه بلسان قريش (أي بطريقتهم) فإنما نزل بلسانهم ففعلوا ، حتى إذا نسخوا المصاحف رد عثمان الصحف إلى حفصة ، وأرسل إلى كل من مكة مصحفا ومعه قارئه عبد الله بن السائب ، وإلى المدينة ومعه قارئه زيد بن ثابت ، وإلى الكوفة ومعه قارئه أبو عبد الرحمن السلمي ، وإلى البصرة ومعه قارئه عامر بن عبد القيس ، وإلى الشام ومعه قارئه المغيرة بن شهاب . . وأمسك عنده مصحفاً له[٢] .

وعَمَلُ عثمان ـ على ما نرى ـ لم يزدِ عن نشر النص المجموع في عهد أبي بكر المأخوذ مما كتب بين يدي النبي صلى الله عليه وسلم بإملائه كما بينا حين دعت الحاجة إلى نص مكتوب يكون للناس إماما ولا التفات إلى الروايات التي تصور عمل عثمان هذا على أنه جمع جديد[٣] .

هدف نسخ المصاحف

وقد استهدف عثمان من عمله أن ينشر على الناس ألفاظ الوحي المنزل

---

(١) راجع كتاب المصاحف / ٢٠ .
(٢) راجع مناهل العرفان ١/٣٩٦ .
(٣) راجع هذه الروايات والرد عليها في كتاب المرشد الوجيز / ٦٥ ـ ٧٥ .

ليحسم الخلاف حول ما اعترى القرآن على ألسنتهم من تحريف بالزيادة والنقص ، واستبدال لفظ بلفظ ، وليمتاز به التنزيل عما اختلط به من ا لتأويل في المخطوطات المتداولة وما جرى على ألسنة العامة توهما أنه من الوحي المنزل . . وقد صارت هذه المصاحف العثمانية مرجع الناس في الأخذ بالمستيقن المعلوم من نصوص الوحي المنزل ، وكل نص خالف عنها ترفض قرآنيته ، بل وكل مصحف عداها ليست له شرعية البقاء معها ، ومن ثم أمر بإحراق كل مصحف عداها ، وقاية من كل خلاف وحماية من أي اختلاط[1] .

وقوبل عمل عثمان هذا بالاستحسان من جميع الأمة ـ عدا عبد الله بن مسعود الذي اتخذ موقفا مناهضا لعثمان وأبى أن يحرق مصحفه . وتنسب إليه بعض الروايات أنه قال : كيف أعزل عن نسخ المصاحف ، ويتولاه رجل ـ والله ـ لقد أسلمت وإنه لفي صلب رجل كافر » يعني زيد بن ثابت رضي الله عنه .

وقد طعن كثير من العلماء في صحة هذه الرواية ، وأن ابن مسعود رضي الله عنه أجل من أن يقول ذلك .

ولكن ابن مسعود لم يلبث أن عاد إلى رأي عثمان الذي كان في الحقيقة رأي الأمة كلها دون نكير لعمل عثمان ، ولا شيء مما نسخ في مصاحفه . . وأن ما جاء من الروايات منسوبا إليه بشأن إنكاره قرآنية سورتي المعوِّذتين وأنه لم يثبتهما في مصحفه ، فأكثر العلماء على أنه افتراء عليه وما كان لابن مسعود أن ينكر من القرآن ما أجمعت الأمة على تواتره . وربما تساهل بعض العلماء فافترض صحة هذه الروايات عنه ، على احتمال أن يكون هذه موقفه أولاً ثم رجع عنه لما تأكد لديه من تواتر قرآنيتهما .

---

(١) راجع المرشد /٤٢ .

ومن ثم فلا مستمسك لأحد من المستشرقين في طعن القرآن بعدم التواتر ، إذ ليس من شرط التواتر ألا يخالف فيه مخالف ، ولا من شرطه كذلك إجماع الكل عليه ، فمهما يكن موقف ابن مسعود فالتواتر قائم بالكثرة مقابل فرد . قال ابن قتيبة في مشكل القرآن : ظن ابن مسعود أن المعوذتين ليستا من القرآن ، لأنه رأى النبي يعوذ بهما الحسن والحسين فأقام على ظنه ، ولا نقول إنه أصاب في ذلك وأخطأ المهاجرون والأنصار .[1]

تلك هي مسيرة النص القرآني منذ تلقاه الرسول لأول مرة إلى أن تم تسجيله النهائي في المصاحف العثمانية على منهج غاية في الدقة ، يحفه التواتر في كل مرحلة من مراحله ، لم ينقطع فيه سند ، ولم يضطرب فيه اتصال . تحوطه عناية الله ومصطحبا وعده بحفظه ، يدفع عنه حماته المقيضون له كل شبهة تحاول النيل منه ، ويردون عنه كل تهمة تزعزع الثقة به ، فجاء كما قال « شفالي » : (أكمل وأدق مما يتوقعه أي إنسان)[2] والفضل ما شهدت به الأعداء .

وكان القرآن بهذا الكمال وتلك الدقة أوثق كتاب عرفته البشرية ، توفر له من العناية ما نفى عنه كل ريب ، وتهيأ له من الأسباب ما ضمن له البقاء والخلود ، إذ أوجب الله تعالى التعبد به في الصلاة فلا تصح صلاة مفروضة أو مسنونة إلّا بقراءة شيء منه . وسنّ الرسول صلى الله عليه وسلم لأمته قيام الليل به فكانوا قليلا من الليل ما يهجعون .

ورغّب في حفظه إذ أخبر أن أهل القرآن هم أهل الله وخاصته وأن حملة القرآن عرفاء أهل الجنة ، وأن خير الناس من تعلم القرآن وعلمه .

---

(١) راجع كتاب تأويل مشكل القرآن لابن قتيبة /٤٣ ط الثالثة ١٩٨١ .

(٢) مباحث في علوم القرآن د . صبحي /٨٩ .

وحذر من إهماله ونسيانه إذْ روي عنه : ما من رجل تعلم القرآن ثم نسيه إلا لقي الله يوم القيامة أجذم . .

وجعله الرسول مقياس التفاضل فكان يقدم في اللحد من الشهداء أكثرهم أخذا للقرآن

وروى عمر عنه : إن الله يرفع بهذا الكتاب قوما ويضع به آخرين . . .

مقارنة بين القرآن والكتب السابقة

فأين منه أي كتاب سماوي سبق ، إنه موعود بحفظ الله وما عداه من كتب فقد استحفظها أهلها[١] على ما فيهم من قصور البشر ، فنالت منها يد التحريف والتبديل ، وافتقدت في مسيرتها اتصال السند ، وتلقفها أتباعها ـ على تباعد الزمان بين النزول والوصول ـ قصاصات مبعثرة في زوايا الإهمال والنسيان ، وعبارات ملفقة ، وجثثا هامدة فقدت نبض السماء ، فنفخوا فيها من روحهم فاختلط ما بقي من وحي السماء بزيف البشر .

وتعدد المجموع منها منسوبا إلى كاتبيه : فهذا إنجيل (متّى) وذاك إنجيل (مرقص) وثالث إنجيل (لوقا) ورابع إنجيل (يوحنا) وخامس إنجيل (برنابا) . . على خلاف في العبارة وتناقض في المعنى . .

ودونك هذه الكتب ففيها من التناقض ، وخطل الفكر ومجافاة العلم الصحيح ، ومشاهد الكون المنظور ما يشهد بزيف نسبتها إلى الله تعالى . .

---

(١) النص القرآني : المائدة /٤٤ .

وإليك على سبيل المثال ـ لا الحصر ـ ما يؤكد زيفها ، ويقطع بانتفاء نسبتها إلى الله ، وقد شهد عليها شاهد من أهلها . .

العهد القديم[1]

اعتمد اليهود من أسفارهم تسعة وثلاثين سفرا أطلق عليها في العصور المسيحية اسم (العهد القديم) للتفرقة بينها وبين ما اعتمده المسيحيون من أسفارهم التي أطلقوا عليها اسم (العهد الجديد) واعتبروا هذه الأسفار التسعة والثلاثين أسفارا مقدسة ـ أي موحى بها ـ وتعني كلمة العهد هنا (الميثاق) ، فأولاهما تمثل ميثاقا قديما من عهد موسى عليه السلام ، والأخرى تمثل ميثاقا جديدا من عهد عيسى عليه السلام .

وتنقسم أسفار العهد القديم أربعة أقسام .

القسم الأول : كتب موسى أو الأسفار الخمسة أو (البانتاتيك) وهي [سفر التكوين ، وسفر الخروج ، وسفر التثنية ، وسفر اللاويين ، وسفر العدد] وتشتمل هذه الأسفار الخمسة على التوراة في نظر اليهود .

القسم الثاني : ويسمى بالأسفار التاريخية وهي اثنا عشر سفرا وهي [أسفار يوشع ، والقضاة ، وراعوث ، وصموئيل (وهما سفران) ، والملوك (وهما سفران) ، وأخبار الأيام (وهما سفران) ، وعزرا ، ونحميا ، وأستير] .

القسم الثالث : ويسمى أسفار الأناشيد أو الأسفار الشعرية وهي أناشيد ومواعظ معظمها ديني ، وعددها خمسة أسفار وهي [سفر أيوب ، ومزامير داود ،

---

(١) اعتمدنا في سرد هذا التقسيم على كتاب (الأسفار المقدسة في الأديان السابقة للإسلام) للدكتور علي عبد الواحد وافي /١٢ وما بعدها .

وأمثال سليمان ، والجامعة من كلام سليمان ، ونشيد الأناشيد لسليمان] .

القسم الرابع : ويسمى أسفار الأنبياء وعددها سبعة عشر سفرا وهي [سفر أشعياء ، وأرمياء ، ومراثي أرمياء ، وحذ قيال ودانيال ، وهوشع ، ويوئيل ، وعاموس ، وعوبديا ، ويونس أو يونان ، وميخا ، وناحوم ، وحبقوق ، وصفنيا ، وحجي وزكريا ، وملاخى أو ملاخيا] .

هذا . . وأهم أسفار العهد القديم هي أسفار القسم الأول التي ينسبها اليهود إلى موسى ويعتقدون أنها بوحي من الله وأنها تتضمن التوراة . . ولكن ظهر للباحثين من ملاحظة اللغات والأساليب التي كتبت بها هذه الأسفار ، وما تشتمل عليه من موضوعات وأحكام وتشريعات ، والبيئات الاجتماعية ، والسياسية التي تنعكس فيها ظهر لهم من ملاحظة هذا كله أنها قد ألفت في عصور لاحقة لعصر موسى عليه السلام بأمد غير قصير ، وعصر موسى على الأرجح يقع بين القرن الرابع عشر ، والثالث عشر قبل الميلاد . وأن معظم سفرى التكوين والخروج قد ألف حوالي القرن التاسع قبل الميلاد ـ أي بعد موسى بأربعة قرون على الأقل ـ وأن سفر التثنية قد ألف في أواخر القرن السابع قبل الميلاد ـ أي بعد موسى بسبعة قرون ـ وأن سفرى العدد واللاويين قد ألفا في القرنين الخامس والرابع قبل الميلاد ـ أي بعد موسى بحوالي تسعة أو عشرة قرون . . وكلها مكتوبة بأقلام اليهود ، وتتمثل فيها عقائد وشرائع مختلفة تعكس الأفكار والنظم المتعددة التي كانت سائدة لديهم في مختلف أدوار تاريخهم الطويل ، فهي إذن تختلف كل الاختلاف عن التوراة التي يذكر القرآن أنها كتاب سماوي مقدس أنزله الله على موسى ، وإلى هذا يشير القرآن الكريم في قوله تعالى ﴿ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ يَكْتُبُونَ ٱلْكِتَـٰبَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَـٰذَا مِنْ عِندِ ٱللَّهِ لِيَشْتَرُوا۟ بِهِۦ ثَمَنًا قَلِيلًا ۖ فَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ وَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا يَكْسِبُونَ ﴾[1] .

ولم تستطع أسفار اليهود أن تخفي هذه الحقيقة ، فقد اعترفت هذه الأسفار بأن التوراة الأصلية لا وجود لها ، وأن ما هو موجود منها لا يوثق بصحته[٢] .

وقد عزز هذه الحقيقة أيضا الشيخ رحمة الله الهندي حيث يقول : إن التوراة الأصلية فقدت عندما سبى بختنصر أورشليم وهدم هيكل سليمان سنة (٥٨٧) ق م وأقام الدليل على ذلك من سفر مزمور (سيد راس) وهو عزير الذي ورد ذكره في القرآن ، والذي ألف كتابا ادعى فيه أنه هو التوراة الأصلية[٣]

وإذاكان انقطاع السند في أسفار العهد القديم (التوراة) حقيقة قامت عليها الأدلة ـ كان ما بأيدي بني اسرائيل اليوم من أسفار ، لا صلة لها بوحي السماء ، ولعل ما فيها من فكرة الألوهية في عقائدهم يؤيد هذه الحقيقة ، فقد صوروا (الله) في صورة مجسمة ووصفوه بكثير من صفات النقص كالضعف والكذب والغفلة والجهل ، والتعصب ، والعنصرية ، وحب رائحة الشواء ، ودخان المحرقات وأنه ندم على إرسال الطوفان ، وأنه بكى حتى رمدت عيناه .

ففي سفر التكوين : أن الله بعد أن خلق السماوات والأرض في ستة أيام استراح في اليوم السابع وكان يوم سبت ، وأن الله بارك هذا اليوم من أجل ذلك فحرم فيه العمل ـ أي أنه كالبشر يدركه التعب ويحتاج إلى راحة في نهاية الأسبوع[٤] . .

---

(١) البقرة / ٧٩ .
(٢) راجع : معاول الهدم : لإبراهيم الجبهان / ٩١ ط ٤ مع الهامش / ١١١ .
(٣) راجع : إظهار الحق : رحمة الله الهندي .
(٤) راجع سفر التكوين الإصحاح الثاني / ٣ ـ ٣ واقرأ الآية / ٣٨ سورة قٓ .

وفي سفر التكوين : أن الله لقي يعقوب ذات ليلة فأخذ يصارعه حتى بزغ الفجر ولم يستطع أن يغلب يعقوب ، فطلب منه أن يخلي سبيله ولكن يعقوب لم يقبل أن يطلقه حتى يباركه ، فباركه وسماه (اسرائيل) لأنه كان قويا على الله[١] .

وبجانب فكرة الألوهية الشائهة تحتوي الأسفار على كثير من الشرائع في العبادات والمعاملات غير أن كثيرا منها يشوبه الانحراف والتضارب ، فمن مظاهر الانحراف تأكيد التفرقة العنصرية بين الشعوب فاليهود شعب الله المختار وما عداه فهو شعب وضيع ، وتبع ذلك تفريق بين هؤلاء وهؤلاء أمام القانون وفي كثير من شؤون الاجتماع ، فالاسرائيلي إذا باع نفسه بيعا اختياريا لأخيه الإسرائيلي في حالة عوزه وحاجته إلى المال فإن رقه يكون موقوتا بأجل يرجع بعده إلى حريته . . على حين أن الرق المضروب على غير الإسرائيلي يظل أبدا لآبدين[٢] .

أما التضارب فيتضح في أجل الرق الاسرائيلي حيث يتحدد في سفري الخروج والتثنية بست سنوات على حين يتحدد في سفر اللاويين بحلول اليوبيل الاسرائيلي (وهو العيد الذي يجيء كل خمسين سنة) أيا كانت المدة التي قضاها في الرق قبل ذلك . .

وإذا ذهبنا نستقصي مافي هذه الأسفار من تناقضات لضاقت بنا صفحات هذا البحث وحسبنا أن نحيلك على هذه الأسفار لترى بنفسك العجائب والغرائب والفضائح والمهازل ومن ألفاظ السباب الفاحش المنسوب إلى الله ما يقزز النفس ويستوجب لعنة الله على أولئك الأفاكين الذين يقولون منكرا من القول وزورا[٣] .

---

(١) راجع سفر التكوين الاصحاح / ٣٢ الأيات / ٢٤ ـ ٣٢ .

(٢) راجع سفر اللاويين اصحاح / ٢٥ فقرة / ١٠ ، ٣٩ ، ٤٧ .

(٣) راجع كتاب الفصل في الملل والأهواء والنحل : للعلامة ابن حزم من صفحة /٩٣ إلى ١٦٦ في ضرب أمثلة لكل ما ذكر من تناقضات وأكاذيب .

اعتمد المسيحيون ـ في أوائل القرن الخامس الميلادي ـ سبعة وعشرين سفرا من أسفارهم ، واعتبروها مقدسة ـ أي موحى بها إلى أصحابها من الرب بمعانيها لا بألفاظها ، وأطلقوا عليها اسم (العهدالجديد) .

وترجع أسفار العهد الجديد إلى ثلاث مجموعات وسفرين :

فالمجموعات هي [مجموعة الأناجيل وعددها أربعة ، ومجموعة رسائل بولس وعددها أربع عشرة رسالة ، ومجموعة الرسائل الكاثوليكية وعددها سبع رسائل] .

وأما السفران فها [سفر أعمال الرسل للوقا ، وسفر رؤيا يوحنا] .

مجموعة الأناجيل الأربعة [إنجيل متى ، ومرقص ، ولوقا ، ويوحنا] .

إنجيل (متى)

قيل ألفه (متى) وهو أحد الحواريين الاثني عشر ، بناء على طلب المؤمنين بعد صعود السيد المسيح باللغة الآرمية ، وقيل بالعبرية ، ثم ترجم إلى اليونانية ، وهي التي وصلت إلينا دون معرفة بأصله ، وقد اختلف فيمن ترجمه ، قيل متى ، وقيل يوحنا مؤلف الإنجيل الرابع وفي ذلك يقول (جيروم) ـ أحد علماء المسيحية ـ لا يوجد إسناد لهذه الترجمة ، وحتى الآن لم يعلم على وجه اليقين اسم المترجم . كما اختلف في زمن تأليفه : يقول مستر (هورن) ألف الانجيل الأول (انجيل متى) خلال الفترة من ٣٧ م إلى ٦٤ م ولكن لا يدري في أي سنة منها . .

وهو بهذا إنجيل مجهول اللغة ، مجهول المترجم ، مجهول التاريخ . . . قال

(ديوارنت) عنه : إن النقاد يميلون إلى القول بأن انجيل (متى) ليس من تأليفه ، ولكن من تأليف أحد أتباعه ، وأن اختلاف السنة التي كتب فيها يدعو إلى الشك في نسبة هذا الانجيل إلى (متى) .

إنجيل (مرقص)

قيل ألفه (مرقص) وهو أحد السبعين رسولا ، وقد صاحب الرسول بولس ، وخاله القديس برنابا في رحلاتها التبشيرية ثم صاحب الرسول بطرس كبير ا لحواريين ، وألف هذا الإنجيل تحت إشرافه ، وقيل بل ألفه بطرس ونسبه إلى تلميذه مرقص .

وقد كتب هذا الإنجيل باللغة اليونانية وإن كان بعض المؤرخين يقولون إنه كتب باللاتينية .

أما زمن تأليفه فيقول مستر (هورن) ألف الإنجيل الثاني سنة ٥٦ م أو ما بعدها إلى سنة ٦٥ م والأغلب أنه ألف سنة ٦٠ أو سنة ٦٣ م .

وهو على ما ترى إنجيل يفتقر إلى معرفة صاحبه الذي كتبه ، واللغة التي دون بها ، والتاريخ الذي ألف فيه ، وهو افتقار لا يجعل منه كتابا مقدسا .

إنجيل (لوقا)

ألفه (لوقا) البشير وهو أحد التابعين ، قيل عنه إنه طبيب أنطاكي ، وقيل عنه : مصور إيطالي ، اعتنق المسيحية ، ورافق الرسول بولس في كثير من رحلاته ، ووجهه في شكل رسائل إلى صديق له يدعى (ثا وفيلس) قيل مصري ، وقيل يوناني ، ولم يعلم على وجه التحديد متى كتبه يقول مستر (هورن) إن

الانجيل الثالث ألف سنة ٥٣ إو ٦٣ ، أو ٦٤ م ، وكانت لغة التدوين هي اليونانية ، وإن كان بعض المؤرخين يقول إنها اللاتينية وأيا ما كان الأمر فهو إنجيل ـ وإن لم يختلف على صاحبه ـ مشكوك في بعض ما جاء به يقول (جيروم) إن بعض القدماء كانوا يشكون في بعض الآيات من الباب الثاني والعشرين منه ، وبعض آخر كان يشك في الباب الأول والثاني منه ، ويصرحون بأن هذين البابين لم يكونا في نسخة فرقة (مارسيوني) .

وهو على ما ترى : صاحبه مجهول الجنسية ، والمهنة ، تاريخ تدوينه غير محدد ، بعض موضوعاته مشكوك فيه . . أبعد هذا يمكن أن يعد كتابا مقدسا ؟

إنجيل (يوحنا)

يوحنا أبوه زيدى ، وأمه سالومي قريبة السيدة مريم العذراء كان يعمل صيادا مع أبيه وأخيه يعقوب ، وقد باركهما السيد المسيح وكان يوحنا أحب الحواريين إلى المسيح ، ومن ثم أطلق عليه (الحواري الحبيب) وينسب إليه الإنجيل الرابع من الأناجيل المعتمدة عند المسيحيين ، كتبه باللغةاليونانية ، ولكن متى ؟ يقول مستر (هورن) إن الانجيل الرابع ألف في ما بين سنة ٦٧ إلى ٩٨ م دون أن يحدد سنة تأليفه .

وهذا الإنجيل لدى المسيحية المعاصرة كتاب مقدس صحيح في نسبته إلى يوحنا الحواري الصياد حبيب المسيح . . على حين أنكر قدامى الباحثين من المسيحيين نسبته إليه ، وما زال الثقات منهم حتى عصرنا هذا يقطعون بعدم صحة نسبته إليه ومن هؤلاء جماعة العلماء الذين أشرفوا على تحرير المسائل المسيحية في دائرة المعارف البريطانية ، ومن هؤلاء كذلك مؤلفو دائرة المعارف الفرنسية المشهورة

باسم (لاروس القرن العشـرين) ومن ثم يرى الكـاتب (استادلـين) أن هذا الإنجيل من عمل طالب من طلبة مدرسة الاسكندرية دون ريب ، مستندا في ذلك إلى أن هذا الإنكار وقع في القرن الثاني من الميلاد دون أن يرد عليه أحد من أحفاد يوحنا هذا . .

وسواء صحت نسبته إلى يوحنا أو لم تصح فإن (السير آرثر فندلاي) يقول في كتابه (الكون المنشور) : إن إنجيل يوحنا ليس له قيمة تستحق الذكـر في سرد الحوادث الأكيدة ، ويظهر أن كل محتوياته لعب فيها خيال الكاتب دورا بعيدا ، ولعله يشير بهذا إلى أن ما فيه مناقض للأناجيل الأخرى في كثير من التفاصيل وفي الصورةالعامة التي رسمها للسيد المسيح حيث أكد فيه الوهبة يسوع وهكذا يبدو الإنجيل الرابع مطعونا في نسبه إلى صاحبه مشكوكا في محتوياته ، مجهولا تاريخ تأليفه[1] .

هذه هي الصورة العامة للأناجيل الأربعة التي يقدسها المسيحيون ليس فيها سند يؤكد نسبتها إلى المسيح عليه السلام ، ولا يبدو على أصحابها إلهـام يصلها بالسماء ، فاختلافها في الكم يؤكد النزعة الفردية في تأليفها ، وينفي فكرة الإلهام باعثا على تدوينها .

- يقول المسيو شار جنبير : « إن أغلب فقرات الأناجيل يبدو أنها صدرت عن محرري هذه الأناجيل لا عن عيسى ، أما تلك التي يرجح أنها مبنية على حديث صحيح له فلا تعدو الأربع أو الخمس .

(١) راجع في عرضنا للعهد الجديد كتاب (الأسفار المقدسة) د . وافي وكتاب (قل يا أهل الكتاب) للدكتور رؤوف شلبي / الفصل الثالث . وكتاب (معـاول الهدم والتـدمير) للجبهـان /٤٣ وما بعدها .

● ومن المرجح كذلك أن الأحداث الخاصة بالصلب كانت قد فقدت الكثير من وضوحها في ذاكرة المؤمنين قبل تحرير الأناجيل وأنها تأثرت في مخيلتهم بالأساطير المختلفةالشائعة في الشرق .

● وكـانت هذه الكتيبـات ـ وأهمها مجمـوعـة الأحـاديث المنسـوبـة إلى (متى) والروايات المنسوبة إلى (مرقص) . . لم تكن تضم سوى عناصر شتى مشوشة من حياة عيسى كما تصورها المسيحيـون عندمـا أوشك جيـل أصحابـه على الانقراض ، وقد حاول المحررون لتلك الأنـاجيل خـلال الثلث الأخير من القرن الأول المسيحي أن ينسقوا رواياتهم ويدخلوا عليها شيئا من الانسجام ، ولكنهم وجدوا أنفسهم أمام مادة يصعب مراسها ، فضلا عن شبه استحالة تحقيق الـواقـع وتخليصـه من الإضـافـات الخيـاليـة التي كـانت في طيــات الروايات » .

تلك شهـادة مسيو شـارل تؤكد انقـطاع السند بـأسلوب النقد التحليـلي للنصوص .

● ويقول (فاستس) وهو عالم من علماء فرقة (ماني كيز) :
إن هذا العهد الجديد ما صنفه المسيح ولا الحواريون بل صنفه رجل مجهول الاسم ونسبه إلى الحواريين ورفقاء الحواريين ليعتبر الناس ، وقد آذى بذلك المـريـدين لعيسى إيــذاء بليغـا فقــد ألف الكتب التي تمتـلىء بــالأغـلاط والمتناقضات . .

● وقد تناولت دائرة المعارف البريطانية فكرة الإلهام في تلك الأناجيل فقالت : ليس كل قول منها إلهاميا . . وإن الذين قالوا إن كل قول مندرج فيها إلهامي لا يقدرون أن يثبتوا دعواهم بسهولة .

● وقد سجل التاريخ الهـزيمةالمنكـرة التي مني بها القسيسـان (فندر) ومعـاونه (فرنج) أمام الشيخ رحمة الله الهندي في محفل عام سنة ١٢٧٠ هـ فيما يتعلق بالسند ، وقد هربا ولم يستطيعا إتمام المناظرة .

ومن جهة أخرى فإن تناقض هذه الأناجيل واختلافها في نسب المسيح[١] ، وتعارضها وانقطاع سندها ، ليست بأقوى سندا من أضعف الأحاديث المنسوبة إلى نبي الإسلام ـ على حد تعبير (د : موريس بوكاي)[٢] ، وأن مؤلفيها يعتمدون فيما يروونه عن المسيح على شهادات بشرية متعددة ومختلفة ، وغير مباشرة ، حيث لا يوجد بينهم شاهد عيان واحد لحياة عيسى المسيح عليه السلام .

وقد يضيق بنا المقام عن استعراض نمـاذج الاختلافـات والتناقضـات بين الأناجيل ، وإنما يكفي أن نحيلك عليها في الموضوعات التاليـة : سلسلة نسب المسيح بين لوقا ، ومتى ، قصة العشاء الأخير بين يوحنا ، ومرقص ، ولوقا ، قيام المسيح وصعوده بين مرقص ، ولوقا ، ظهـور المسيح بعـد قيامتـه بين الأنـاجيل الأربعة . . .

إنك إن تقرأ تر عجبا من الخلط والاضطراب الأمر الذي يحملك على الشك في صحة هذه الروايات جميعا ، والقطع بأنها ليست من عند الله . . وفي ذلك يقول القرآن ﴿ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُواْ فِيهِ ٱخْتِلَٰفًا كَثِيرًا ﴾ . وصدق الله لقد وجدت في الأناجيل اختلافا كثيرا وهو دليل على أنها ليست من عند الله ولا صلة لها بالوحي الإلهي على الإطلاق . فأين هذا مما يتمتع به القـرآن من توثيق نصه ، واتصال سنده ، وتواتره جمعا عن جمع يؤمن تواطؤهم على الكذب وقـد

(١) انظر انجيل متى /١٠ ، ولوقا /٣ .

(٢) انظر كتابه : دراسة الكتب المقدسة في ضوء المعارف الحديثة .

صدق الله في وصفه حين يقول

﴿ وَإِنَّهُۥ لَكِتَٰبٌ عَزِيزٌ ﴿٤١﴾ لَّا يَأْتِيهِ ٱلْبَٰطِلُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِۦ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ[1] ﴾ .

---

(١) فصلت /٤١



الفصل الثاني

إعجاز القرآن

وجوه - وآراء



معجزات الأنبياء

اقتضت حكمة الله تعالى أن يؤيد رسله بالمعجزات ، لتكون تصديقا لهم فيما يبلغون من رسالاته ، اذا ما داخل الشك قلوب أقوامهم ، وأنكروا عليهم دعواهم ، كما قالت ثمود لصالح عليه السلام ﴿ مَآ أَنتَ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا فَأْتِ بِـَٔايَةٍ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّـٰدِقِينَ ﴿١٥٤﴾ قَالَ هَـٰذِهِۦ نَاقَةٌ لَّهَا شِرْبٌ وَلَكُمْ شِرْبُ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ ﴾[1] .

وكما قال موسى عليه السلام لفرعون ﴿ يَـٰفِرْعَوْنُ إِنِّى رَسُولٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴿١٠٤﴾ حَقِيقٌ عَلَىٰٓ أَن لَّآ أَقُولَ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْحَقَّ قَدْ جِئْتُكُم بِبَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ فَأَرْسِلْ مَعِىَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿١٠٥﴾ قَالَ إِن كُنتَ جِئْتَ بِـَٔايَةٍ فَأْتِ بِهَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّـٰدِقِينَ ﴿١٠٦﴾ فَأَلْقَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِىَ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ ﴿١٠٧﴾ وَنَزَعَ يَدَهُۥ فَإِذَا هِىَ بَيْضَآءُ لِلنَّـٰظِرِينَ ﴾[2]

وكما قال عيسى عليه السلام لبني اسرائيل ﴿ . . أَنِّى قَدْ جِئْتُكُم بِـَٔايَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ أَنِّىٓ أَخْلُقُ لَكُم مِّنَ ٱلطِّينِ كَهَيْـَٔةِ ٱلطَّيْرِ فَأَنفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيْرًۢا بِإِذْنِ ٱللَّهِ وَأُبْرِئُ ٱلْأَكْمَهَ وَٱلْأَبْرَصَ وَأُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ بِإِذْنِ ٱللَّهِ وَأُنَبِّئُكُم بِمَا تَأْكُلُونَ وَمَا تَدَّخِرُونَ فِى بُيُوتِكُمْ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَةً لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴾[3]

---

(١) الشعراء / ١٥٤ ، ١٥٥

(٢) الاعراف / ١٠٤ ـ ١٠٨

(٣) آل عمران / ٤٩

وكما قالت قريش لمحمد صلى الله عليه وسلم ﴿ فَلْيَأْتِنَا بِآيَةٍ كَمَا أُرْسِلَ الْأَوَّلُونَ ﴾[1] . وكأنهم أرادوها آيات حسية على غرار آيات صالح ، وموسى ، وعيسى ، فقال الله لهم : ﴿ قُلْ إِنَّمَا الْآيَاتُ عِندَ اللَّهِ وَإِنَّمَا أَنَا نَذِيرٌ مُّبِينٌ ۝ أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ﴾[2]

فلفت الله أنظارهم إلى أن القرآن أية محمد ومعجزته وهو قائم مقام معجزات غيره من الأنبياء .

تعريف المعجزة

هذا . . والشأن في المعجزة أن تكون أمرا خارقا للنواميس المعروفة ، وأن تشذ عن السنن المطردة في حوادث الكون ، وأي محاولة في تفسيرها بما يطابق المعهود من السنن الطبيعية يبطل حكمتها ، ويلحقها بالحوادث الشائعة التي لا دلالة لها في هذا المعنى ، ولن تكون أمرا خارقا للمعهود من براعة القوم إلا بما فيها من حسن ورجحان ، وأن التفوق فيها راجع إلى قدرة الله وحده لا لأحد سواه ، ومن ثم يكون الرجل الذي ساقها مساق الدليل رسولا من عند الله[3] .

تفوق المعجزات

وفي قصص القرآن ما يشير إلى تفوق المعجزات عما يشاكلها من قدرات البشر كما في معجزة موسى عليه السلام حين ظن فرعون وملؤه أن ما أتى به موسى نوع من السحر المألوف لديهم ، وأن في استطاعة السحرة المنتشرين في أنحاء مملكته أن

(١) الأنبياء / ٥

(٢) العنكبوت / ٥٠ ، ٥١

(٣) راجع كتاب : ساعات بين الكتب للعقاد ط /٢ ص /٢٣

يغلبوه عليه فقال ﴿ . . أَجِئْتَنَا لِتُخْرِجَنَا مِنْ أَرْضِنَا بِسِحْرِكَ يَٰمُوسَىٰ ﴿٥٧﴾ فَلَنَأْتِيَنَّكَ بِسِحْرٍ مِّثْلِهِۦ . . ﴾ ولما جاء السحرة ﴿ قَالُوا۟ يَٰمُوسَىٰٓ إِمَّآ أَن تُلْقِىَ وَإِمَّآ أَن نَّكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَلْقَىٰ ﴿٦٥﴾ قَالَ بَلْ أَلْقُوا۟ ۖ فَإِذَا حِبَالُهُمْ وَعِصِيُّهُمْ يُخَيَّلُ إِلَيْهِ مِن سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تَسْعَىٰ ﴿٦٦﴾ فَأَوْجَسَ فِى نَفْسِهِۦ خِيفَةً مُّوسَىٰ ﴿٦٧﴾ قُلْنَا لَا تَخَفْ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْأَعْلَىٰ ﴿٦٨﴾ وَأَلْقِ مَا فِى يَمِينِكَ تَلْقَفْ مَا صَنَعُوٓا۟ ۖ إِنَّمَا صَنَعُوا۟ كَيْدُ سَٰحِرٍ ۖ وَلَا يُفْلِحُ ٱلسَّاحِرُ حَيْثُ أَتَىٰ ﴿٦٩﴾ فَأُلْقِىَ ٱلسَّحَرَةُ سُجَّدًا قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا بِرَبِّ هَٰرُونَ وَمُوسَىٰ ﴿٧٠﴾ ﴾[1] فلم يكن سجود السحرة إلا إدراكا منهم لتفوق المعجزة ، وأنها من قدرة الله ، لا ضربا من السحر الذي يأتونه ، وهم أقدر الناس على هذا الإدراك فهم أرباب السحر وعلماؤه المبرزون لذلك كانوا أول المؤمنين برب العالمين رب موسى وهارون .

معجزة القرآن

ولما كان التفوق عنصرا مشتركا بين المعجزات الحسية والعقلية على حد سواء ، كان القرآن ـ وهو معجزة نبينا محمد صلى الله عليه وسلم ـ متفوقا عما يشاكله من كلام البشر ، غير أن القوم أنكروا هذا التفوق وقالوا حين تليت عليهم آياته ﴿ قَالُوا۟ قَدْ سَمِعْنَا لَوْ نَشَآءُ لَقُلْنَا مِثْلَ هَٰذَآ ۙ إِنْ هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴾[2] وجاء التحدي ﴿ فَلْيَأْتُوا۟ بِحَدِيثٍ مِّثْلِهِۦٓ إِن كَانُوا۟ صَٰدِقِينَ ﴾[3] .

---

(١) راجع آيات القصة في سورة طه / ٥٧ الى ٧٠

(٢) الانفال / ٣١

(٣) الطور / ٣٤

وحار القوم في إجابة هذا التحدي ، كيف يأتون بكلام مثل هـذا الكلام كله ؟

ربما قد حاولوا ، ولكنهم عجزوا ، وقالـوا ﴿ إِنْ هَٰذَآ إِلَّآ إِفْكٌ ٱفْتَرَىٰهُ وَأَعَانَهُۥ عَلَيْهِ قَوْمٌ ءَاخَرُونَ ﴾[1] . فتجاوز لهم عن بعض ما طولبوا به ، ولم يشأ أن يفلتوا بما أعذروا أنفسهم به ، فلئن كان حديثا مفترى أعـين عليه ﴿ فَأْتُوا۟ بِعَشْرِ سُوَرٍ مِّثْلِهِۦ مُفْتَرَيَٰتٍ وَٱدْعُوا۟ مَنِ ٱسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴾[2]وما أجداهم أن يستعينوا بمن شاءوا ومن استـطاعوا في أن يـأتوا بالعشر المفتريات ؛ فأرخى لهم إمعانا في التحدي الساخر بقدرتهم ؛ فتجاوز عن العشر إلى واحدة مع العون أيضا فقال ﴿ قُلْ فَأْتُوا۟ بِسُورَةٍ مِّثْلِهِۦ وَٱدْعُوا۟ مَنِ ٱسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴾[3] . . ولئن تقاصرت قدرتكم أن تأتوا بسورة مماثلة لسوره على التحديد ﴿ فَأْتُوا۟ بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِۦ وَٱدْعُوا۟ شُهَدَآءَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴾[4] . فربما كانت مماثلته على التقريب أيسر عليكم من مماثلته على التحديد . . وهذا ما أشارت إليه آية البقرة باستخدام لفظ (من مثله) .

وقد لفتنا إلى هذا المعنى اللطيف المرحوم الدكتور محمد عبد الله دراز حيث قال : انظر كيف تنزل معهم في تحديهم بسورة من طلب المماثلة إلى طلب شيء مما يماثل . . . وهذا أقصى ما يمكن من التنزل ولذا كان آخر صيغ التحدي نزولا ،

---

(١) الفرقان / ٤
(٢) هود / ١٣
(٣) يونس / ٣٨
(٤) البقرة / ٢٣

فلم يجيء التحدي بلفظ (من مثله) الا في سورة البقرة المدنية ، وسائر المراتب قبله بلفظ (مثله)[1]

وكان هذا الفهم جديرا بالتقدير والاعتبار ؛ حيث نفى مظنة التكرار لشيء واحد في مراتب التحدي .

ترى ما الذي منع قريشا من إجابة هذا التحدي على أدنى مراتبه ؟

حالة العرب الفكرية

لن نعجل بالجواب ، قبل أن نلقي نظرة على حالة العرب الفكرية والبيانية قبيل عصر المبعث ، لنرى مبلغ رقيهم الفكري والأدبي ، ممثلا في أسواقهم الأدبية ، يعرضون فيها أنفس بضاعتهم من الكلام ، وأغلى صناعتهم من الشعر والبيان ، يتبارون في عرضها ونقدها ، واختيار أحسنها ، والمفاخرة بأجودها .

كذلك لم يكن غريبا أن نرى القرآن ـ وقد صادف هذا المستوى الفكري لدى هؤلاء العرب ـ أن يناقش ويجادل عن نفسه ، وأن يشتد في جداله ودفاعه ويعلو صوته حتى يصافح وجه السماء . فما ذاك إلا أنه وجد أمامه خصوما ألداء ، وأعداء أشداء أوتوا حظا من نضج الفكر ، وبلاغة القول ، وعزة النفس .

كذلك لم يشأ الله أن تكون آيته إليهم إلا القرآن ، آية عقلية تناسب نضجهم الفكرى ، ورتبتهم في سلم الرقي البشري ، وكلما ارتكسوا في حمأة اليأس من معارضته ، ونكسوا على رؤوسهم في طلب معجزة حسية ، أبى الله ذلك ـ وكان قادرا على أن ينزل عليهم آية فتظل أعناقهم لها خاضعين ـ لأنهم تجاوزوا دور الطفولة البشرية ، وتخطوا مرحلة البلادة الفكرية التي اقتضت ان تكون معجزة

(١) النبأ العظيم هامش / ٨٤ بتصرف .

البشرية في تلك المرحلة حسية .

نحن إذا أمام مجتمع حي قادر على التفكير ، ترى ما الذي منعه أن يرد على هذا التحدي ؟

وجوه الإعجاز

ما الذي أعجزه أن يبذل جهده في المعارضة ؟

وهنا يأتي الجواب ، إنه العجز عن التشبع بالمعاني الجديدة التي كان يطرقها القرآن ، وهذا بعض المعجزة ، انه العجز عن الوقوف على أسرار البلاغة القرآنية ، وطريقة تناول الآيات للمعاني ، وهذا باقي المعجزة .

وهكذا أنبأنا التاريخ بهذا العجز في عصر القرآن ، ولكن لم تطو صفحة التحدي في العصر الذي بعده ـ وأهله بعد على سلائقهم العربية ، وفيهم من يود ان يتأتى على هذا الدين من أساسه وما أيسره عليه لو دخل اليه من باب القرآن بقبول التحدي ، ولكن التاريخ لم يسجل لاحد فيه قدرة على ذلك ، بل حيل بينهم وبين ما يشتهون كما فعل بأشياعهم من قبل .

ومضت القرون ، وورث هذه اللغة عن أهلها الوارثون ، وكلما تطاول الزمان بين عصر المبعث والعصور التالية له ، كان أهلها أشد عجزا ، وأقل طمعا في هذا المطلب العزيز ، لانحراف ألسنتهم وفساد سلائقهم ، وكانت شهادة عجزهم على أنفسهم مضافة إلى شهادة التاريخ على أسلافهم أكبر شهادة على إعجاز القرآن إلى ان تطوي صفحة هذا الوجود ، ويرث الله الأرض ومن عليها .

ونحن وإن كنا نذهب مذهب القائلين بأن عجز القوم راجع إلى نُظم القرآن وبلاغته ، وشرف معناه ودقته ، فما ذاك إلا لأنه لم يصح وجه آخر لإعجاز القرآن

سواه عند التحدي أول عهد العرب به ، وأن ما أضيف إلى إعجازه البلاغي من وجوه أخرى كالإعجاز الغيبي ، والاعجاز العلمي ، والاعجاز التشريعي ، فإنما كان ذلك عندما اكتمل عقد القرآن ، ونظر الباحثون اليه جملة .

ونحن لا ننكر هذه الوجوه أن تكون من آيات إعجازه وإنما نريد أن نؤكد .

أولا أن التحدي بالقرآن كان في حدود ما نزل من سوره في بداية الدعوة .

وثانيا أن التحدي كان في أدنى مراتبه بأقصر سورة منه .

وثالثا أن التحدي كان بوجه مما برع القوم فيه شأن المعجزات

فأين في ذلك من التشريع المحكم ، والنبوءات الغيبية ، والعلوم الكونية ، ولم يكن شيء من ذلك توافر للقرآن بعد ، ولم يكن للقوم علم بشيء منه ؟

فما وجه الإعجاز إذاً إن لم يكن الإعجاز البلاغي ؛ فهو عنصر قائم في أقصر سورة من القرآن ، وهو مناط براعة القوم وهو أسبق من غيره تمثلا فيما نزل .

وقد تضافرت الروايات التي سيقت من شهادات قريش حول القرآن على تأكيد هذا الوجه . فهو منبع السحر الذي وصفوا القرآن به ، ومهوى أفئدتهم في الاستماع إليه ، وسبب الإيمان لمن اهتدى به .

منبع السحر

أما أنه منبع السحر الذي أخذ بقلوب العرب منذ الوهلة الأولى ، فذلك فيما قاله الوليد بن المغيرة عنه حين استمع إلى شيء منه ، وكأنما رق له ، فقالت قريش صبأ والله الوليد ولتصبون قريش كلهم ، فأوفدوا إليه أبا جهل يثير كبرياءه واعتزازه بنسبه وماله ، ويطلب إليه أن يقول في القرآن قولا يعلم به قومه أنه له

كاره . قال فماذا أقول فيه ؟

فوالله ما منكم رجل أعلم مني بالشعر ، لا برجزه ، ولا بقصيده ولا بأشعار الجن ، والله ما يشبه الذي يقوله شيئا من هذا والله إن لقوله لحلاوة ، وان عليه لطلاوة ، وإنه لمنير أعلاه مشرق أسفله ، وانه ليعلو ولا يعلى ، وإنه ليحطم ما تحته . قال أبو جهل : والله لا يرضى قومك حتى تقول فيه ، قال : فدعني أفكر فيه ، فلما فكر ، قال : إنْ هذا إلّا سحر يأثره عن غيره أما رأيتموه يفرق بين الرجل وأهله ومواليه[1] ؟

وفي ذلك يقول القرآن ﴿ إِنَّهُۥ فَكَّرَ وَقَدَّرَ ﴿١٨﴾ فَقُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ ﴿١٩﴾ ثُمَّ قُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ ﴿٢٠﴾ ثُمَّ نَظَرَ ﴿٢١﴾ ثُمَّ عَبَسَ وَبَسَرَ ﴿٢٢﴾ ثُمَّ أَدْبَرَ وَٱسْتَكْبَرَ ﴿٢٣﴾ فَقَالَ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ يُؤْثَرُ ﴾[2]

فأي سحر هذا الذي اضطرب له الوليد هذا الاضطراب ؟ إنه سحر بلاغة القرآن .

مهوى الأفئدة

أما أنه مهوى أفئدة قريش في الاستماع اليه ، فذلك فيما رواه ابن اسحاق قال : إن أبا سفيان وأبا جهل والأخنس خرجوا ليلة ليستمعوا القرآن من الرسول وهو يصلي في بيته ، فأخذ كل رجل منهم مجلسا ليستمع فيه ، وكل لا يعلم بمكان صاحبه ، فباتوا يستمعون حتى إذا طلع الفجر تفرقوا فجمعهم الطريق فتلاوموا ، وقال بعضهم لبعض لا تعودوا ، فلورآكم بعض سفائكم لأوقعتم في نفسه شيئا ،

(١) من رواية الحاكم عن ابن عباس ، وهو صحيح على شرط البخاري
(٢) سورة المدثر / ١٨ ـ ٢٤

ثم انصرفوا .

حتى إذا كانت الليلة الثانية عاد كل رجل منهم الى مجلسه فباتوا يستمعون حتى إذا طلع الفجر تفرقوا فجمعهم الطريق فقال بعضهم لبعض مثل ما قالوا أول مرة ثم انصرفوا .

حتى إذا كانت الليلة الثالثة ، أخذ كل منهم مجلسه فباتوا يستمتعون حتى إذا طلع الفجر تفرقوا فجمعهم الطريق فقال بعضهم لبعض لا نبرح حتى نتعاهد ألا نعود ، فتعاهدوا على ذلك ثم تفرقوا .

فلما أصبح الأخنس أخذ عصاه ثم خرج حتى أتى أبا سفيان في بيته فقال له : أخبرني أبا حنظلة عن رأيك فيما سمعت من محمد . فقال : ياأبا ثعلبة ، والله لقد سمعت أشياء أعرفها وأعرف ما يراد بها ، وسمعت أشياء ما عرفت معناها ، ولا ما يراد بها ، فقال الأخنس : وأنا والذي حلفت به كذلك ثم خرج من عنده حتى أتى أبا جهل فدخل عليه بيته ، وقال له : ياأبا الحكم ما رأيك فيما سمعت من محمد ؟ فقال : ماذا سمعت ؟ تنازعنا نحن وبنو عبد مناف الشرف ، أطعموا فأطعمنا وحملوا ، فحملنا ، وأعطوا فأعطينا ، حتى اذا تحاذينا على الركب وكنا كفرسى رهان ، قالوا : منا نبي يأتيه الوحي من السماء ، فمتى ندرك مثل هذه ؟ والله لا نؤمن به أبدا ولا نصدقه فقام عنه الأخنس وتركه .

هؤلاء هم سادة قريش الذي دعوا أهل مكة الى الانصراف عن سماع القرآن[1] ، فما كانت بهم طاقة على تنفيذ هذا الأمر لما يحسون في أنفسهم من شغف لسماع هذا التنزيل الذي لاعهد لهم ببلاغته .

---

(١) مصداق قوله الله تعالى (وقال الذين كفروا لا تسمعوا لهذا القرآن والغوا فيه لعلكم تغلبون) فصلت / ٢٦

سبب الإيمان

أما أنه سبب الايمان لمن اهتدى به فذلك شأن إسلام عمر رضي الله عنه ، حين خرج متوشحا سيفه يريد رسول الله وصحبه ، فلقيه نعيم بن عبد الله فسأله عن وجهته ، فأخبره بغرضه ، فحذره بني عبد مناف ، ودعاه أن يرجع إلى بعض أهله : ختنه سعيد بن زيد ؛ وأخته فاطمة زوج سعيد فقد صبآ عن دينهما .

فذهب إليهما عمر وهناك سمع خبابا يتلو عليهما القرآن ، فبطش بختنه ، وشج رأس أخته ، ثم أخذ الصحيفة فقرأ بها صدر سورة (طه) ثم قال : ما أحسن هذا الكلام وأكرمه . ورق له ، ثم ذهب إلى النبي صلى الله عليه وسلم فأعلن إسلامه[1] .

فأي شيء في صدر سورة طه من وجوه الإعجاز سوى جمال العرض وقوة الأداء ، وايقاع العبارة ، وإيحاء الإشارة على نحو فريد ، وهذا ماراع عمر فأنطقه : ما أحسن هذا الكلام وأكرمه ، وهز كيانه فأسلم لله وجه ثم اهتدى .

كتب الإعجاز :

ولعل ما سقناه من شهادة القوم حول الإعجاز البلاغي للقرآن يغني عن أن نأخذ في تفصيل هذه القضية والاستدلال عليها بعرض طائفة من القرآن في مقابلة طائفة أخرى من كلام فصحاء العرب لنرى مبلغ تفوق القرآن عليه ؛ فقد احتشد جهد العلماء قديما وحديثا حول هذه القضية سواء ما جاء منها في ثنايا كتب التفسير (كالكشاف للزمخشري) ، أو في كتب متخصصة (كنظم القرآن للجاحظ ت

(١) راجع كتاب السيرة لابن هشام .

٢٥٥) هـ ، (وإعجاز القرآن للواسطى ت ٣٠٦) هـ ، (والنكت في إعجاز القرآن للرماني ت ٣٨٤) هـ ، (وبيان إعجاز القرآن للخطابي ت ٣٨٨) هـ، (وإعجاز القرآن للباقلاني ت ٤٠٣)هـ ، (ودلائل الإعجاز لعبد القاهر الجرجاني ت ٤٧١)هـ وقد شهد له اللاحقون عليه بأنه كان أنفذ حسا ، وأدق تذوقا للبلاغة القرآنية من كل من كتبوا حول هذه القضية . (ومعترك الأقران في إعجاز القرآن للسيوطي ت ٩١١هـ) وقد رتبه على خمسة وثلاثين وجها من وجوه الإعجاز ويقدم لكل وجه بمن ألف فيه قبله . وهو يعد سجلا للمؤلفين والكتب في هذا الفن .

ولم يعدم القرن الأخير كتّابا شغلهم إعجاز القرآن فألفوا فيه كالرافعي في كتابيه (آداب العرب ، وإعجاز القرآن) ، والدكتور محمد عبد الله دراز في كتابه (النبأ العظيم) في بعض مباحثه ، والمرحوم سيد قطب في كتابه (التصوير الفني في القرآن) .

ومازال في الساحة كثير ممن لا أحصيهم عددا ، وفي ضمير الغيب كثير وكثير ممن سيقيضون لهذا العمل الجليل ، ويُورِّثون علم هذا الكتاب العزيز حتى آخر الزمان .

شهادة العرب بالإعجاز :

أما نحن وأنت فحسبنا شهادة القوم ، وأي شيء أكبر من شهادة أهل اللغة أنفسهم ، وقد أجمعوا على تفوق القرآن وأقروا بسحره سواء منهم من آمن به أو صد عنه ، ولم يتكلفوا لذلك أمثلة يضربونها ، ولاصورا يعرضونها ، فقد كانوا في شغل عن ذلك كله بما يتملونه منها في أنفسهم ، وما يحسونه منها في مشاعرهم بذوقهم الفطري الذي لا يخطيء ، وحسهم اللغوي الذي لا يكذب .

وقد أغنْوا بهذه الشهادة من قصّر به حسه اللغوي ، وذوقه الفطري والمكتسب عن إدراك هذا الإعجاز عن أن يتكلف ماليس في قدرته ، وقدنابوا عنه في ذلك ، فليأخذ بما شهدوا ، وليقنع بما حكموا كما يقنع العاديون من الناس بشهادة لجان التحكيم في هذا العصر فيما يحسنون من الفنون ثقة بخبرتهم وإيمانا بأهليتهم . .

افتراءات المستشرقين :

وإذا كنا ننكر على غير ذوي الاختصاص من أهل اللغة أن يخوضوا فيمالم يعرفوا من أسرار القرآن وبلاغته ، فلنحن أشد إنكارا على أولئك المستشرقين الذين عدموا الذوق العربي ، والحس اللغوي ، وإشراق الروح وصفاء النفس ـ أن يقحموا أنفسهم في ميدان ليسوا من فرسانه وعلى كتاب ليسوا من أهله ؛ ليخرجوا على الناس برأي في أسلوب القرآن ، ينم عن نفوس مريضة ، وأذواق معلولة من ذلك ما ورد في (كتاب الأديان) : من أن أسلوب محمد في القرآن كان أول عهده بالدعوة مفعما بالعواطف ، قصير العبارات ، فخم الصور ، يقدم أوصاف العقاب والثواب في ألوان صارخة ، وكثيرا ما يكرر الآيات تكرارا مملا حتى تنقلب معانيها إلى الضد ، فلما تقدم الزمن بالنبي فقد الأسلوب حيويته الأولى ، وأخذ يقص في نغمات هادئة بديعة قصص الأنبياء مثلما تراه في تأريخه لقصة حب يوسف وزوجه بوتيفار . وكانت هذه الصورة مثيرة لخيال كثير من شعراء الفرس والترك . وفي آخر عهد النبي فقد الأسلوب كل حرارة وكل فن وأغرم بالجدل الديني مع اليهود والنصارى .

وهؤلاء ليسوا أول قائل بهذا الهراء ، ولا آخره ، فالحياة ملأى بأدعياء المعرفة ، والمصابين في أذواقهم . وحسبنا واياهم قول الشاعر :

وكم من عائب قولا سليما   وآفته من الفهم السقيم

والآن وقد انتهى بنا البحث إلى أن قعود القوم عن إجابة التحدي كان بسبب عجزهم ، وأن مرجع عجزهم هو ذات القرآن لتفوق بلاغته .

ولكن قد يعترض سبيلنا احتمالان آخران يجعلان أمر التسليم بهذه النتيجة عسيرا .

أما أولهما فقد أثاره المستشرقون وهو أن عدم إجابة التحدي كان قلة اكتراث بشأن القرآن وصاحبه ، لاعجزا عن معارضته . وأما ثانيهما فقد أثاره النظام (ابراهيم بن سيار ت ٢٢١هـ) إمام المعتزلة وهو أن العجز ليس لذات القرآن وخاصته وإنما بصرف الله الناس عن معارضته بسلب قدرتهم ؛ وكان في مقدورهم الإتيان بمثله ـ على حد ما نسب إليه ـ

أما الاحتمال الأول ـ وهو عدم الإكتراث بشأن القرآن ـ فهو احتمال لا يعززه الواقع بل يدحضه ؛ فإن قريشا قد أهمهم أمر محمد وقرآنه منذ صدع فيهم بما أمر فأنكروا عليه رسالته ونبوته ، ونصبوا أنفسهم للصد عنه ، وكثيرا ما تجادلوا حول هذا القرآن فقالوا : شعر شاعر ، بل سحر ساحر ، بل سجع كاهن ، بل هذيان مجنون .

وقد سجل عليهم القرآن ما أهمهم من أمره وحسبك أن تقرأ خواتيم (الحاقة) : ﴿ فَلَآ أُقْسِمُ بِمَا تُبْصِرُونَ ﴿٣٨﴾ وَمَا لَا تُبْصِرُونَ ﴿٣٩﴾ إِنَّهُۥ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ﴿٤٠﴾ وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ قَلِيلًا مَّا تُؤْمِنُونَ ﴿٤١﴾ وَلَا بِقَوْلِ كَاهِنٍ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ ﴿٤٢﴾ تَنزِيلٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾[1]

---

(١) الحاقة / ٣٨ ـ ٤٣

أو أن تقرأ آيات من سورة (الطور) : ﴿ فَذَكِّرْ فَمَآ أَنتَ بِنِعْمَتِ رَبِّكَ بِكَاهِنٍ وَلَا مَجْنُونٍ ﴿٢٩﴾ أَمْ يَقُولُونَ شَاعِرٌ نَّتَرَبَّصُ بِهِۦ رَيْبَ ٱلْمَنُونِ ﴿٣٠﴾ قُلْ تَرَبَّصُوا۟ فَإِنِّى مَعَكُم مِّنَ ٱلْمُتَرَبِّصِينَ ﴾[1] .

أبعد هذا يقال إنهم لم يكترثوا بشأنه ، فقيم إذاً جدلهم ؟ ولماذا كانت إذًا حربهم واقتتالهم ؟ وقد دلهم على ما يسكته إلى الأبد ، ويصرف الناس عنه إلى غير رجعة ، وهو أن يأتوا بحديث مثله . ولكنهم ركبوا في حربه كل صعب إلا هذه فأي شيء يكون الاهتمام والعجز ، إن لم يكن هذان هما الاهتمام والعجز ؟

النظام والإعجاز بالصرفة

أما الاحتمال الثاني وهو القول بالصرفة ؛ فهو أمر قد استفاضت شهرته بين العلماء ، وحاول كل مَنْ لم يسلم به أن يدفعه ، وتكاثرت الردود ، وتناقلها الخلف عن السلف مع بسط العبارة أو إيجازها . وهي في مجملها لاتخرج عما نسوقه إليك .

١ ــ يدل على فساد هذا القول قوله تعالى : ﴿ قُل لَّئِنِ ٱجْتَمَعَتِ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأْتُوا۟ بِمِثْلِ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِۦ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا ﴾[2] . فإنه يدل على عجزهم مع بقاء قدرتهم ولو سلبوا القدرة لم تبق فائدة لاجتماعهم ؛ لمنزلته منزلة اجتماع الموتى ، وليس عجز الموتى مما يحتفل بذكره .

٢ ــ أن الإجماع منعقد على إضافة الإعجاز إلى القرآن ؛ فكيف يكون معجزا وليس فيه صفة إعجاز ، بل المعجز هو الله تعالى حيث سلبهم القدرة على الإتيان

(١) الطور / ٢٩ ـ ٣١

(٢) الإسراء / ٨٨

بمثله .

٣ ــ يلزم من القول بالصرفة زوال الإعجاز بزوال زمان التحدى وخلو القرآن من الإعجاز ؛ وفي ذلك خرق لإجماع الأمة ؛ أن معجزة الرسول باقية ولا معجزة باقية سوى القرآن .

٤ ــ لوكانت المعارضة ممكنة ، وإنما منع منها الصرفة لم يكن الكلام معجزا ، وإنما يكون بالمنع معجزا فلا يتضمن الكلام فضيلة على غيره في نفسه .

٥ ــ لوكان عدم إتيانهم بمثله لطاريء أصابهم فعطل مواهبهم وأضعف بلاغتهم وبيانهم ، لأثر عنهم ضعف فصاحتهم بعد نزول القرآن عما كانت عليه قبل نزوله . وهذا باطل .

٦ ــ لوكان الأمر على ماسبق من تعطيل مواهبهم بعد نزول القرآن لرجعوا إلى كلامهم القديم فجاءوا بشيء منه على محاذاته ، ولكنهم لم يجيئوا فيه بقديم ولا جديد[١] .

فهم جديد للصرفة

هذا ما تناقله الباحثون في الرد على النظام ، بناء على ما فهموه من قوله بالصرفة ، وماكان النظام بغافل عن كل ماقيل في الرد عليه ، لو أنه أراد ما فهموه عنه ، وإنما رأى النظام أن صرف الناس عن الإتيان بمثل القرآن أدخل في باب المعجزة من أن يكون القرآن معجزا في حد ذاته بنظمه وتأليفه ؛ لأن التأليف والنظم قد يعجز الناس عنه كعجز بعضهم عن أعمال بعض لبراعة ظاهرة في الفعل

(١) راجع في هذه القضية : الاتقان للسيوطي ، مناهل العرفان للزرقاني النبأ العظيم للدكتور دراز .

المعجز ، أولغير براعة فيه ، كأن يتحدى صبي يتهجى بسطر من خطه أقدر القادرين في كتابة الخطوط أن يأتوا بمثله ، فإنهم لامحالة عاجزون ، لالحسن رائع في الخط المحكى ، بل لأن يد الصبي غير سائر الأيدي ومعرفته بالخط غير سائر المعارف . وقد يعجز أيضا البارعون في كتابة الخطوط عن أن يحاكى بعضهم بعضا فيه لبراعة ظاهرة تستوجب رجحان واحد على الآخرين . .

فهل يقال لفعل الصبي الساذج ، أو لفعل المتمرس الماهر والحالة تلك إنه معجزة لمجرد العجز عن محاكاته ؟

لا يقال . . والقرآن كذلك ؛ إلا أن يخرق العادة وأن يمنع كل ريب في أنه من قدرة الله .

وقد رأى النظام أن خرق العادة ، ومنع كل ريب في أنه من قدرة الله في صرف الناس عن الإتيان بمثله ، كما رآه أيضا فيما جاء في القرآن مما استأثر الله بعلمه من أخبار الغيب إذ ليس لبشر أن يتطاول إلى هذا المقام .

غير أن الناس فهموا من كلامه أن سلب قدرة العرب عن الإتيان بمثله يعني أن ليس للقرآن فضل مزية على كلامهم ، وأن في مقدورهم أن يأتوا بمثله لولم يمنعوا عنه . وهو فهم يسأل عنه فاهموه ، لا أن يسأل النظام عنه ، ولا أن يسفّه قوله بالصرفة ؛ لأنهم تزيدوا عليه في الفهم ، والدليل على ذلك : أن عبارتهم في تأويل رأيه تتسم حينا بالشك كقول بعضهم عنه : (أما التأليف والنظم فقد يجوز أن يقدر عليه العباد مالم يصرفوا عنه)[1] . وحينا تتسم باليقين الوقح كقول بعضهم (فأما نظم القرآن ، وحسن تأليفه فإن العباد قادرون على مثله ، وعلى ماهو أحسن منه في

(١) راجع ضحى الإسلام لأحمد أمين ٣/٢٥ نقلا عن مصدره مقالات الإسلاميين .

النظم والتأليف)[1] .

ولا أرى هذا أوذاك بفهم منصف لما يعنيه النظام بالصرفة وإنما تقوله الناس عليه ، لما أثارته آراؤه في غير هذه مما يتصل بفروع الدين من لغط شديد في محيط الفلاسفة والمتدينين ، لشدة ذكائه ، وسعة حريته في التفكير ، وجرأته في الرأي[2] .

رأي ابن الراوندي

وربما كان أثر النظام واضحا فيما جهر به أبو الحسن أحمد بن يحيى المعروف بابن الراوندي ت ٢٩٣هـ في كتابه (الفريد) من أن المسلمين احتجوا لنبوة نبيهم بالقرآن الذي تحدى به النبي العرب فلم يقدروا على معارضته ، فيقال لهم : ماذا لو ادعى مدع لمن تقدم من الفلاسفة مثل دعواكم في القرآن فقال : إن الدليل على صدق (إقليدس) أن الخلق قد يعجزون عن أن يأتوا بمثل كتابه أكانت تثبت نبوته ؟

وقد أورد الرافعي هذا القول في كتابه (إعجاز القرآن) وقد سفه صاحبه وأقذع في شتمه[3]

ولم يعجب العقاد رد الرافعي فعقب عليه بعد أن ذكره فقال : « ذلك هو رد الرافعي على ابن الراوندي وليس فيه كما رأيت تفنيد لحجة الرجل ، ولا إقناع لمن يقف موقف الحيدة بين الطرفين . . »[4] هكذا قاس النظام وابن الراوندي القرآن

(١) راجع الفرق بين الفرق للأسفرائيني / ١٤٣
(٢) ضحى الاسلام ٣/١١٦
(٣) الإعجاز / ١٨١ الطبعة الثامنة
(٤) ساعات بين الكتب / ٣٠

على الفعل المعجز من أعمال البشر ليخلصا إلى أن الإعجاز وحده ليس كافيا في نسبة الفعل المعجز إلى الله وثبوت نبوة مدعيه .

رد على النظام وابن الراوندي

ولكن قد فاتها أن يفرقا بين إعجاز وإعجاز ، بين إعجاز القرآن للبشر ، وإعجاز البشر بعضهم لبعض ؛ ذلك أن التفاوت بين البشر في أعمالهم وبيانهم مما يتفق في مجاري العادات ولايكون إلا بمقدار التفاوت بين البليغ والأبلغ ، والفصيح والأفصح والحسن والأحسن ، والماهر والأمهر ، وهذا النحو من العلو إن حال بينهم وبين بعض في المجيء بمثل العمل المحكى - على صورة المماثلة التامة - لم يكن ليحول بينهم وبين بعض في المجيء بماهو قريب منه ، بمعنى أنه إذا قيس العملان بمقياس الخصائص الفنية تقاربا بمقدار وفائهما بتلك الخصائص ، لأن الطبيعة الإنسانية العامة واحدة ، والطبائع الشخصية تقع فيها الأشباه والأمثال ، وكم من أناس تشابهت قلوبهم وعقولهم وألسنتهم فتوافقت خواطرهم وعباراتهم حينا وتقاربت أحيانا . .[1] ولا يحول رجحان ذلك العمل الراجح أن يتفق لسوي صاحبه إن لم يكن في عصره ففي عصر بعد عصره ، وإن لم يكن في كل خصائصه ففي بعض خصائصه . .

أما إعجاز القرآن للبشر فكان أمرا خارقا للعادة كلية ، خرج عن طوق البشر ، واستعلى على مقدرتهم بخصائصه ، فكان صنعة ليس كمثلها شيء لصانع (ليس كمثله شيء) . . وإلا كان من عمل محمد - صلى الله عليه وسلم - على حد زعمهم - وفيهم الأكفاء والأنداد له في الفطرة والسليقة العربية ، أومن هم أكمل

---

(١) النبأ العظيم/ ٩٧ بتصرف

فيها منه ـ فرضا ـ ، أو من هم دونه في تلك المنزلة ؛ فكان خليقا بالأعلون أن يأتوا بأحسن منه ، وبالأنداد أن يأتوا بمثله ، ومن هم دونه أن يقاربوه فيأتوا بشيء من مثله . وشيء من هذه المراتب الثلاث لوتم لكان كافيا في رد الإعجاز وإبطال التحدي . .

على أن المماثلة التي طلبها القرآن أن يجيئوا بكلام من عندهم أيا كانت صورته وأيا كان نمطه ومنهجه لكن على شرط ألا يطيش في الميزان إذا قيس هو والقرآن بمقياس واحد من البيان ، بل يظهر أنه يماثله أو يقاربه في خصائصه ، وإن كان على صورة بيانية غير صورته . .[1]

وإن لم يقع هذا التماثل أو التقارب بينهم وبين محمد كان من الإنسان ماليس بإنسان ـ وهو باطل ـ أوهو التسليم بأن ما يجيء به هذا الإنسان لايكون من عمل الإنسان .

---

(١) راجع مناهل العرفان ٢/ ٣٢٤



الفصل الثالث

ترجمة القرآن
أنواع - وأحكام



ترجمة القرآن بين الحظر والإباحة

لمحة تاريخية

ترجمة القرآن قضية جديدة قديمة ترجع في أبعادها الزمانية إلى عصر النبوة حين وجه النبي صلى الله عليه وسلم رسله بكتبه إلى الملوك والأمراء يدعوهم فيها إلى الإسلام ، وقد تضمنت بعض آيات القرآن الكريم التي ستترجم لامحالة إلى لسانهم عند عرضها عليهم ليقفوا على معانيها . .

وكانت مكاتبة الملوك والأمراء خارج الجزيرة العربية ودعوتهم إلى الإسلام التطبيق العملي لعالمية الرسالة المحمدية ، وقد بدأ النبي صلى الله عليه وسلم خطواتها الأولى ، وترك لأمته من بعده إتمام هذا البلاغ لجميع الأمم المختلفة بألسنتها المتباينة والقرآن قوام هذه الرسالة ، ولا يتحقق البلاغ إلا به لقوله تعالى ﴿ وَأُوحِيَ إِلَيَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ لِأُنذِرَكُم بِهِۦ وَمَنۢ بَلَغَ ﴾[1] ثم سلط العلماء أنظارهم على هذا البلاغ المترجم أهو بلفظ القرآن ومعناه ، أم بمعناه فقط ، ورأوا أن البلاغ المترجم عن معاني القرآن كاف في الإنذار بالقرآن ، وأن كل من بلغه معنى القرآن بلغته تمت دعوته ولزمته الحجة .

وظلت قضية الترجمة على هذا النحو بسيطة في معناها وأدائها حتى مطلع هذا

---

(١) الأنعام / ١٩

القرن ، وقد آذنت فيه شمس الخلافة الإسلامية بالمغيب ، وجاء (أتاتورك) ليقطع تركيا الخلافة عن كل صلة لها بالإسلام شكلا وموضوعا ، وليعلن تركيا (العلمانية) ويحدد سماتها قانونا ولغة ؛ فالغى القوانين الإسلامية ، وحظر استخدام اللغة العربية ، واستبدل بهما القوانين الوضعية ، واللغة التركية .

وكان أمرا طبيعيا آنذاك أن تكون اللغة التركية هي لغة التعليم والعبادة بقوة القانون والإكراه وإمعانا في قطع صلة تركيا بالإسلام ولغته خطط لترجمة القرآن إلى اللغة التركية . . وكانت مصر أسرع الأقاليم التابعة للخلافة العثمانية تأثرا بأحداث تركيا ، وشغلها من أمر هذه الأحداث (قضية ترجمة القرآن) فأدانتها مصر ، كما أدانت ضياع الخلافة الإسلامية ، واتخذت ترجمة القرآن مفهوما ضيقا لدى بعض العلماء (عرف بالترجمة الحرفية) ليصدروا حكمهم عليها بالتحريم ، وربما كان هذا التحريم هو إعلان المواجهة لكل ما تفرزه (الأتاتوركية) العلمانية من محاولات القضاء على الإسلام ولغته[1] .

ولكن هذا الحكم بالتحريم لم يكن موضع رضا من جميع العلماء إذا نظروا إلى الترجمة نظرة موضوعية بعيدة عن ملابساتها السياسية . وأخذت القضية طابع الصراع بين فريقين يرى أولهما صيانة القرآن عن التحريف والتبديل ، ويرى ثانيهما وجوب إبلاغ الدعوة بكل اللغات التي يتكلم بها البشر ، وكانت أشد المعارك بين الفريقين ضراوة تلك التي حدثت في الأزهر عام ١٩٣٦م حين دعا الشيخ . محمد مصطفى المراغي شيخ الأزهر آنذاك ـ رحمه الله ـ إلى استفتاء العلماء بشأن ترجمة القرآن .

وأثارت هذه القضية اهتمام علماء الأزهر ، وتناولتها الأقلام بالشرح

(١) راجع بتوسع (السياسة والترجمة) في كتاب : ترجمة المعاني القرآنية د. محمد السنباطي .

والتفصيل تحديدا لمفهومها وتقسيما لكيفياتها وحكم كل قسم منها مستعينين في كل ذلك بأقوال العلماء السالفين منطوقا أو مفهوما . . وإليك هذا البيان .

مفهوم الترجمة

جاء في (لسان العرب) : الترجمان : هو الذي يترجم الكلام أي ينقله من لغة إلى أخرى ، وجمعه (تراجم) .

وفي (الصحاح) : ترجمه وترجم عنه : إذا فسر كلامه بلسان آخر وقد تطلق الترجمة في الاستعمال على (تبليغ الكلام واضحا مبينا لمن لم يبلغه) كما تطلق على (تفسير الكلام بلغته التي جاء عليها) ومن ثم قال ابن كثير والبغوي إن كلمة (ترجمة) هي التبيين مطلقا سواءا تحدت اللغة أم اختلفت .

الترجمة عرفا

غير أن المراد بالترجمة في عرف التخاطب العام هو (نقل الكلام من لغة إلى لغة أخرى) وهو ما نُص عليه في كتب اللغة .

أنواع الترجمة

الترجمة الحرفية

تتوقف أنواع الترجمة على كيفية نقل الكلام من لغة إلى لغة ؛ (فإن طابقت الأصل في نظمه وترتيبه ، والوفاء بما تضمنه من معان أصلية وثانوية ، مع الاحتفاظ

للأصل بتأثيراته الوجدانية بسبب خصائصه في الصياغة والتركيب) فهي الترجمة التي أطلق عليها العلماء (الترجمة الحرفية أو الترجمة اللفظية) .

ولا تتأتى هذه الترجمة ـ على تلك الصورة ـ إلا إذا تساوت اللغة المنقول منها واللغة المنقول إليها في المفردات ودلالتها ، وتشابهت في الضمائر وأدوات الربط وأسرار أمكنتها . وهي وإن جازت ـ فرضا ـ بين اللغات سوى العربية ، فإن استحالتها مؤكدة بين اللغة العربية وغيرها من اللغات لما تمتاز به العربية من خصائص في التركيب والصياغة ، والوصل والفصل والتقديم والتأخير . والذكر والحذف ، والعطف والاستئناف والحقيقة والمجاز .

وإذا كان هذا شأن العربية ؛ فإن القرآن منها في ذروة بيانها وقمة بلاغتها ، بحيث انقطعت دونه بلاغة البلغاء ، وفصاحة الفصحاء وارتدوا أمام نظمه وتأليفه عاجزين عن معارضته ومحاكاته بلغته ؛ فكيف يتأتى نقله مع الاحتفاظ بخصائصه إلى لغة أخرى ليس لها ما للغته من خصائص . . إنه أمر فوق قدرة البشر . ومن ثم فقد استبعد كثير من الباحثين هذا النوع من الترجمة ، لاستحالته عادة ، ولم يكن مناط حل أو حرمة إلا على فرض تخيله . وهو على هذا الفرض حرام مقارفته لما يؤدي من تلبيس على الناس أنه (قرآن مترجم) مع مافيه من العبث بكلام الله وتحريفه ، وصرفه عن إعجازه .

الترجمة المعنوية

أما إذا عمد المترجم إلى المعنى الذي يدل عليه تركيب الأصل وفهمه ثم أداه بلغة أخرى على نحو ما تقضي به قواعدها وأساليبها ، متحررا من مطابقة الأصل في نظمه وترتيبه وخصائصه فهي الترجمة التي أطلق عليها العلماء (الترجمة المعنوية) .

وهي على هذه الكيفية ممكنة بين اللغات ، وجائزة في ترجمة المعاني القرآنية بعد أن تتوفر لها الشروط الآتية : -

١ ــ أن يكون المترجم ممن له علم بقواعد اللغتين وخصائصهما .
٢ ــ أن يكون لديه قدر كبير من مفردات اللغتين .
٣ ــ أن يؤهله علمه لإدراك معاني الألفاظ في سياق نظمها وتأليفها ، وتمييز مايكون منها حقيقة أو مجازا .
٤ ــ أن يفي بجميع معاني الأصل ومقاصده على وجه مطمئن بقدر ما وسعته قدرته ، وما تسمح به لغة الترجمة .

وقد ضرب الزرقاني رحمه الله في (مناهله) مثلا يوضح حقيقة كل من الترجمتين : الحرفية ، والمعنوية ، ويبين الفرق بينهما فقال في ترجمة قوله تعالى ﴿ وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ ٱلْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَّحْسُورًا ﴾[1] ؛ إن أردت ترجمة هذه الآية ترجمة (حرفية) أتيت بكلام من اللغة الأجنبية يدل على النهي عن ربط اليد في العنق ، وعن مدها غاية المد مع رعاية ترتيب الأصل ونظامه ، بأن تأتي بأداة النهي أولا ، يليها الفعل المنهى عنه متصلا بمفعوله ومضمرا فيه فاعله وهكذا ولكن هذا التعبير الجديد قد يخرج في أسلوب غير معروف ولا مألوف في تفهيم المترجم لهم ما يرمى إليه الأصل من النهي عن التقتير والتبذير ، بل قد يستنكر المترجم لهم هذا الوضع الذي صيغ به هذا النهي ، ويقولون : ماله ينهى عن ربط اليد بالعنق وعن مدها غاية المد ؟ وقد يلصقون هذا العيب بالأصل ظلما ، وما العيب إلا فيما يزعمونه ترجمة للقرآن من هذا النوع .

أما إذا أردت ترجمة هذه الآية ترجمة (معنوية) فإنك بعد أن تفهم المراد وهو

(١) الإسراء / ٢٩

النهي عن التقتير والتبذير في أبشع صورة منفرة منهما ، تعمد إلى اللغة الأجنبية فتأتي فيها بعبارة تدل على هذا النهي المراد في أسلوب يترك في نفس المترجم لهم أكبر الأثر في استبشاع التقتير والتبذير ، ولاعليك بعد ذلك من عدم رعاية الأصل في نظمه وترتيبه اللفظي[1] .

غير أن نقل المعاني القرآنية مترجمة إما أن يلتزم فيه المترجم بمطابقة معاني الأصل كما وكيفا من غير زيادة ولا نقصان ، وحينئذ يطلق على عمله هذا (الترجمة المعنوية) بخصائصها وشروطها السابقة .

الترجمة التفسيرية

وإما أن يزيد معانى الأصل بيانا وإيضاحا فيستطرد إلى الكشف عن أسرارها وما توحي به من أحكام وآداب ، وحينئذ يطلق العلماء على عمله هذا (الترجمة التفسيرية) .

وهاتان الترجمتان وإن كانتا تشتركان في نقل المعاني القرآنية إلا أنهما يفترقان عند التزام الأولى بمعاني الأصل كما وكيفا ، وعدم التزام الأخرى بهذا التحديد ، بل تأتي بمعاني الأصل والزيادة عليها إيضاحا وبيانا .

وهنا لابد لنا من التأكيد على أمرين لازمين (للترجمة التفسيرية) .

١ ــ فباعتبارها ترجمة يجب أن تلتزم بالشروط السابقة في الترجمة المعنوية .
٢ ــ وباعتبارها تفسيرا يجب أن تتوفر لها شروط التفسير وهي :
أ ــ الاعتماد على مانقل عن الرسول صلى الله عليه وسلم وأصحابه .

---

(١) راجع مناهل العرفان / ٢/ ٨

ب ــ سعة علم المفسر بقوانين اللغة وخصائص أساليبها .

جـ ــ بصر المفسر بقانون الشـريعة حتى ينـزل كلام الله عـلى المعروف من تشريعه .

د ــ أن يستعين على عمله بدراسة العلوم المعينة له كالنحو ، والصرف ، والاشتقاق ، والبلاغة ، والقراءات ، وأسبـاب النزول ، والفقـه ، والحديث ، وسيرة الرسول .

هذا ، وقد يطلق بعض العلماء على (الترجمة التفسيرية) تفسير القرآن بلغة أجنبية . .

ترجمة التفسير

ويبقى بعد ذلك في مجال الترجمة نوع رابع هو (ترجمة التفسير القرآني بلغة أجنبية) بمعنى أن يقصد المترجم إلى تفسير من تفاسير القرآن . كتفسير الكشاف مثلا ، أو تفسير ابن كثير فيترجمه إلى أي لغة أجنبية . . وبهذا العرض يكون قد تحصل لنا أربعة أنواع من الترجمة تدور حول القرآن نجملها فيما يلي تمهيدا لمعرفة حكم كل منها من الحظر والاباحة :

١ ــ الترجمة الحرفية

٢ ــ الترجمة المعنوية

٣ ــ الترجمة التفسيرية (تفسير القرآن بلغة أجنبية)

٤ ــ ترجمة تفسير من تفاسير القرآن بلغة أجنبية .

أحكام أنواع الترجمة

١ ـ حكم (الترجمة الحرفية) وقد سبق أن بينا أنها مستحيلة عادة بالنسبة للقرآن ، وهي بالتالي ليست مناطا للحل والحرمة إلا على فرض تخيلها ، وهي على هذا الفرض حرام مقارفتها لما تؤدي من تلبيس على الناس أنها (قرآن مترجم) وهي ليست منه في شيء فضلا عما يشوبها من العبث بكلام الله ، وتحريفه وصرفه عن إعجازه .

٢ ـ حكم (الترجمة المعنوية) وقد سبق أن بينا أنها ممكنة بالنسبة للقرآن بشروطها ، لكن العلماء افترقوا حيالها فريقين باعتبار ما اشترط فيها من الوفاء بمعاني القرآن ومقاصده .

وقد حددوا للقرآن دلالتين على معانيه :

الأولى : دلالته على المعاني الأصلية وهي المعاني التي تستفاد من الكلام بأي صيغة أدى بها كمجرد إثبات فعل لفاعل ، أو خبر لمبتدأ .

الثانية : دلالته على المعاني الثانوية وهي المعاني التي تستفاد زائدة عن المعاني الأصلية .

مثال ذلك : (إن أنت إلا نذير ، إنما أنت نذير) ؛ فالمعنى الأصلي في هاتين الآيتين هو إثبات صفة الإنذار لرسول الله صلى الله عليه وسلم .

أما المعنى الثانوي فيهما فهو قصر الموصوف على الصفة أي قصر الرسول على صفة الإنذار فضلا عن معنى التوكيد أذا قيست بقولنا (أنت نذير) . وقد فهم القصر والتوكيد من أدوات الحصر وهي إن وإلاّ ، وإنما ـ

وما أكثر دلالة القرآن على المعاني الثانوية التي تمتاز بها عن أي كلام بليغ كالذكر والحذف ، والتقديم والتأخير ، والوصل والفصل والتعريف والتنكير .

هذه طرق دلالته على معانيه ، أما مقاصده فهي ثلاثة مقاصد رئيسية :

أ ــ أن يكون هداية لجميع الخلق من أنس وجن .
ب ــ أن يكون باعجازه معجزة مؤيدة للنبي صلى الله عليه وسلم .
ج ــ أن يتعبد الله خلقه بتلاوته لفظا ومعنى .

لقد افترق العلماء إلى فريقين إزاء وفاء الترجمة بمعانيه الأصلية والثانوية ، وبجميع مقاصده بحيث يمكن أن تستقل بها عن الأصل العربي المنزل :

١ ــ فريق يرى أن وفاء الترجمة بمعانيه ومقاصده أمر مستحيل وقد استدل الشيخ . الزرقاني - رحمه الله تعالى - على هذه الاستحالة فقال : إن المعاني الثانوية للقرآن مدلولة لخصائصه العليا التي هي مناط بلاغته وإعجاز ؛ وما كان لبشر أن يحيط بها فضلا عن أن يحاكيها في كلام له ، والا لما تحقق هذا الإعجاز .

أما مقاصده ، فان مقصده الأول وهو (الهداية) ان أمكن تحقيقه في الترجمة بالنسبة إلى ما يفهم من معاني القرآن الأصلية ، فهو لأيمكن تحقيقه بالنسبة الى كل مايفهم من معاني القرآن الثانوية لأنها مدلولة لخصائصه العليا التي هي مناط إعجازه البلاغي كما سبق وكذلك مقصده الثاني وهو (كونه معجزة) لا يمكن تحقيقه فيما سواه من كلام البشر عربيا كان أو أعجميا ، والا لما صح ان يكون معجزة حين تتناول هذا المقصد قدرة البشر .

ويجرى هذا المجرى مقصده الثالث وهو (التعبد بتلاوته) فإنه لا يمكن أن يتحقق في الترجمة ، لأن ترجمة القرآن غير القرآن قطعا ، والتعبد بالتلاوة

إنما ورد بخصوص القرآن لفظا ومعنى ونظما وترتيبا [1]

ثم رتب هذا الفريق على هذه الاستحالة العادية ، الحكم بالاستحالة الشرعية وهي من المحظور الذي حرمه الله تعالى[2] لأن المستحيل العادي حرمه الإسلام لأنه ضرب من العبث ، ومضيعة للوقت فيما لا يمكن ولا ما يفيد .

٢ ــ وان محاولة هذه الترجمة فيها ادعاء لمعارضة القرآن من الاتيان بشيء من مثله .

٣ ــ وأن محاولة هذه الترجمة قد تشجع الناس على الانصراف عن كتاب ربهم بأبدال يزعمون أنها ترجمة له ، ومع امتداد الزمان قد يذهب (اسم الترجمة عنها) ويبقى اسم القرآن وحده علما عليها ، ويقولون : هذا قرآن بالانجليزية ، وهذا قرآن بالفرنسية ، ويصير شأنه كشأن الأناجيل تنوسى أصلها ، وأطلقت على ترجماتها .

٤ ــ إن جواز هذه الترجمة قد يحمل الناس على الاستغناء عن القرآن بترجماته ، وضياع الأصل العربي كما ضاع أصل التوارة والأنجيل وبقاء الترجمات على ما بينها من اختلاف يشيع في القرآن على امتداد الزمان ـ اختلاف نصوصه ، ويعرضه في مستقبل الأيام للتحريف والتغيير والتبديل ، وكل ما يعرض القرآن لهذا العبث حرام شرعا .

٥ ــ إن جواز هذه الترجمة يعني جواز رواية القرآن بالمعنى ، ورواية القرآن بالمعنى بكلام عربي ممنوعة إجماعا ، فهذه الترجمة ممنوعة كذلك قياسا على هذا المجمع عليه ، بل هي أحرى بالمنع للاختلاف بين لغتها ولغة الأصل .

هذه خلاصة حجج المانعين للترجمة المعنوية كما سجلها الزرقاني في (مناهله) .

---

(١) راجع مناهل العرفان ٢ / ٤٠ ، ٤١

(٢) الزرقاني في مناهل العرفان ٢ / ٤٣ ، ٤٩

غير أن هذه الحجج لا تثبت أمام النقد ، لأنها قد بنيت على تصور غير متفق عليه لمفهوم (الترجمة المعنوية) ، فالترجمة المعنوية على ما اتفق عليه في تعريفها - نقل ما فهمه المترجم من معاني الأصل إلى لغة أخرى على نحو ما تقضي به قواعدها وأساليبها ، مع توخيه مطابقة الأصل كما وكيفا ومضمونا على قدر ما تسمح به لغة الترجمة ، ومن ثم فلا يتصور في هذه الترجمة أن تماثل الأصل أو تطابقه تمام المطابقة ، فإن هذا المطلب قد يكون أليق بما عرف بالترجمة الحرفية - على فرض إمكانها - ثم ان شرط الوفاء بجميع معاني القرآن ومقاصده فليس إلى غايته ، بل يكفي فيه أن يكون على (وجه مطمئن) وهو المنصوص عليه في جانب هذه الترجمة . . وقد يتحقق الاطمئنان بنقل ما تسمح به لغة الترجمة من معان أصلية وثانوية ، والمام بمقاصده في الهداية ، أما في الاعجاز البلاغي والتعبد بتلاوته فهما مقصدان مرتبطان بالأصل العربي للقرآن مهما بلغت دقة المترجم وتحريه للوفاء بوجه الاعجاز البلاغي فإنه لن يتأتى له منه شيء ، غير أنه إن فاته هذا الوجه فلن يعجز عن نقل بعض وجوه الاعجاز الأخرى كالإعجاز العلمي ، والإعجاز الغيبي ، والإعجاز التشريعي وبه تتحقق بعض مقاصده في الإعجاز .

والترجمة المعنوية في نطاق هذا التعريف وفي ضوء مفهوم شرط الوفاء (على وجه الاطمئنان) - ممكنة ، وغير مستحيلة ، ومن ثم لا يكون طلبها أو محاولتها عبثا منهيا عنه .

كما أنه ليس في محاولتها ادعاء لمعارضة القرآن من الاتيان بمثله لما بين الأصل والترجمة من بون شاسع في النظم والتأليف وما يؤديان فيه من بلاغة وفصاحة . تستحيل معه الترجمة أن تماثله أو تقرب منه فلا مجال إذاً لتوهم شبهة ادعاء المعارضة .

كما ان العبارات المترجمة عن تلك المعاني القرآنية لا تسمى قرآنا بأي حال من

الأحوال فالقرآن هو اللفظ العربي المنزل ، ولا هي رواية للقرآن بالمعنى ـ على حد ما زعموا ـ فإنما هي تعبير بلفظ أجنبي عن المراد بالآيات كالتعبير بلفظ عربي عن معناها في كتب التفسير المجمل .

ثم إن دعوى الانصراف عن القرآن (العربي) والاستغناء عنه بترجمته ، وما قد يؤدي إليه من ضياع هذا الأصل بالقياس على الكتب السابقة (التوراة ـ والإنجيل) ـ فهي دعوى يأباها الواقع ، وقياس مع الفارق ؛ فان ترجمة معاني القرآن لن تقوم مقامه ولا يتأتى الاستغناء بها عنه لانعدام المماثلة التامة بين الأصل والترجمة ـ على ما هو مسلم به في وظيفتها ـ وإن حرص المسلمين الناطقين بالعربية على الأصل العربي كفيل بحفظه وبقائه ، فهو لديهم مناط استنباط الأحكام ، والمتعبد بتلاوته . وان ضياع الأصول المنزلة للكتب السماوية السابقة فهو أمر سابق على أصولها الموضوعة وترجمتها ، ومن ثم كانت الأصول الموضوعة للكتب السابقة وترجمتها سواء ، فكلاهما من أعمال البشر . وسواء ضاع الأصل الموضوع أو بقى فليس كتابا مقدسا حتى عند بعض أهل هذه الديانات .

أما أصول الكتب السماوية المنزلة بالقياس إلى القرآن فليس شأنها كشأن القرآن من حيث هو معجزة خالدة باقية موعودة بحفظ الله .

ثم إنه لا يضير القرآن أن يتوهم بعض الناس أن هذه الترجمات هي (القرآن) مادام الأصل العربي محفوظا ومنشورا بين الناس ليكون شاهدا على أنه الأصل المنزل ، وهذه الترجمات عمل المترجمين في نقل معانيه ، وأي اختلاف فيما بينها فسيظل اختلافا فيما عمله الناس وأن فصل الخطاب في كل خلاف هو ذلك الأصل العربي المحفوظ والمسطور .

ولعل هذه المناقشة قد ذهبت بحجة المانعين للترجمة المعنوية .

وفريق آخر يرى أن (الترجمة المعنوية) في حدود وظيفتها قادرة على نقل المعاني القرآنية بقدر يفي بالهدف منها وهو الإنذار بالقرآن ، وإبلاغ دعوته للناس كافة على اختلاف ألوانهم وتباين ألسنتهم ، وهي ضرورة دينية لتوفر دواعيها ومن تلك الدواعي ما يلي :

١ ــ القيام بواجب تبليغ الدعوة . والانذار بالقرآن والتذكير به لعموم رسالة الاسلام ، والتوجه بها إلى الناس كافة على اختلاف أجناسهم وتباين ألسنتهم لئلا تكون لهم على الله حجة متى بلغتهم الدعوة بِلُغَتِهِمْ .

٢ ــ مواجهة ترجمات القرآن المحرفة التي نشرها المستشرقون وقد زعموا مطابقتها للنص العربي ، مع ما فيها من حرية التصرف وتعدد الأخطاء وتعمد التشويه للطعن في الإسلام .

٣ ــ عرض المعاني القرآنية في صورة دقيقة تكشف عن أهداف القرآن ومقاصده في الهداية والتوجيه والتشريع ، وتجلي حقائق الإسلام وغاياته السامية أمام غير المسلمين من الأجانب الباحثين عن الحقيقة في هذا الخضم الزاخر بالأباطيل ضد الاسلام ، وتيسر سبيل الدخول إليه أمام الراغبين فيه .

٤ ــ توثيق الصلة بين المسلمين الأجانب وبين القرآن على صورة صحيحة ، وتيسير المشقة عليهم في ورود منابعه الأصيلة ، والتزود منه بما يعمق إيمانهم ويهذب أخلاقهم ويدفع بهم الى تعلم لغته للاستزادة من أسراره والوقوف على وجوه إعجازه .

وقد وجد الداعون إلى هذه الترجمة ما يؤيد دعوتهم فيما يلي :

١ ــ في أعمال الرسول صلى الله عليه وسلم من إرسال كتبه إلى الملوك والحكام

خارج الجزيرة العربية مع رسل يتكلمون بلسان القوم الذين وجهوا إليهم[1] ، وقد أعدهم النبي لإنجاح مهمتهم في ترجمة كتبه مع ما تضمنته من النصوص القرآنية .

٢ ـ فيما أشار إليه الزمخشري في كشافه عند تفسيره لقوله تعالى ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِۦ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ ﴾[2] من أن الله أرسل رسوله محمدا إلى الناس كافة ـ وهم على ألسنة مختلفة ـ وقد أنزل القرآن عليه بلسان قومه من العرب ، ولم تكن هناك حاجة لإنزاله بجميع الألسنة ، لأن الترجمة تنوب عن ذلك[3] . وفي هذه المؤيدات ما يفيد جواز الترجمة .

وقد اعترض المانعون لهذا النوع من الترجمة ؛ بأن الدواعي التي تذرع بها الداعون مع مؤيداتها ، يمكن أن تتحقق عن طريق (الترجمة التفسيرية) أو ترجمة (تفسير قرآني) على نحو ما سيأتي ، دون اللجوء الى تلك الترجمة التي قد تعرض كلام الله للتحريف .

ويقال في رد هذا الاعتراض أن (الترجمة المعنوية) تحقق من الأهداف ما لا يستطيع أن يقوم به نوع آخر سواها ، حيث يتحقق من خلالها الوقوف على المعاني القرآنية الخالصة ، دون اختلاط باضافات المفسرين أو المترجمين وهو مطلب أساسي في مواجهة الترجمات المحرفة لتلك المعاني ، والرد بها عليها . ولنحفظ على الأجنبي المسلم يقينه في أن ما يقرؤه هو المعنى المنزل من الله فحسب ، ونترك له أن يفهمه بما فتح الله به عليه دون وقوع تحت سيطرة آراء المترجمين أو المفسرين ، وربما قد جانبها الصواب .

---

(١) راجع الطبقات الكبرى لابن سعد ٢/٢٢

(٢) ابراهيم / ٤

(٣) من الكشاف ملخصا بتصرف

وأن التحريف مأمون في هذا الترجمة بمقتضى ما يفرضه إسلام المترجم من أمانة الأداء .

٣ ــ حكم الترجمة التفسيرية (تفسير القرآن بلغة أجنبية) قد سبق أن بينا أنها تجمع بين معاني الأصل وتفسيرها ، وهي جائزة باتفاق جميع العلماء بعد ان تستكمل شرائطها باعتبارها ترجمة ، وشرائطها باعتبارها تفسيرا .

وجاء الاتفاق على جوازها عند الطرفين السابقين من العلماء من حيث رأى فيها الفريق الأول أنها ليست ترجمة للقرآن ، ومن ثم فلا يضيرها عدم الوفاء بجميع معاني القرآن ومقاصده بل يكفي فيها ما يتصوره المترجم من معاني القرآن ومقاصده وتفسير ما يتصوره ، كما لا يخشى معها وقوع أي محذور من المحذورات السابقة ؛ ففي عنوانها ما ينفي عنها شبهة أنها ترجمة للقرآن ، بل هي تفسيره بلغة أجنبية .

ورأى فيها الفريق الثاني أنها تحقق أهداف الترجمة المعنوية وتزيد عليها ما تضمنته من تفسير تلك المعاني وبيان أسرارها وما فيها من تشريعات وآداب ، ومادام الأصل الذي قامت عليه وهو (الترجمة المعنوية) مسلما به فيكون التسليم بها من باب أولى لعموم فائدتها ، ولقدرتها على نقض الشبهات التي ضلت فيه الترجمات الزائفة . .

والترجمة التفسيرية لدى الكثير من العلماء بحكم نتائجها وأهدافها لا تخرج عن ترجمة أي تفسير من تفاسير القرآن ، ومن ثم فهم لا يفرقون بين تفسير القرآن بلغة أجنبية ، وترجمة التفسير العربي بلغة أجنبية[١] ، وان كان العملان يختلفان في طريقة التناول .

---

(١) راجع مناهل العرفان ٢/ ٦٨

٤ ــ حكم ترجمة التفسير بلغة أجنبيةواضح مما قدمناه أن كثيرا من العلماء لا يفرقون بين هذا النوع من الترجمة وبين سابقه وهو (تفسير القرآن بلغة أجنبية) ومن ثم يكون حكم الجواز حكما عاما عليهما . .

ولعلك ترى فيما نعرضه عليك في ختام هذا المبحث من اعتبارهما شيئا واحداً لدى لجنة الفتوى بالأزهر ، وان الأزهر قد أقام مشروعه في الترجمة على هذا الاعتبار .

مشروع الأزهر في الترجمة

في غضون عام ١٩٣٦ تقدم فضيلة المرحوم الشيخ محمد مصطفى المراغي شيخ الأزهر بكتاب إلى هيئة كبار علماء الأزهر يتضمن ما يلي : (ما قول حضرات أصحاب الفضيلة في السؤال الآتي ـ بعد ملاحظة المقدمات الآتية :

١ ــ لا شبهة في ان القرآن اسم للنظم العربي المنزل على سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم ، ولا شبهة أيضا في أن التعبير عن معانيه بعد فهمها من النص العربي بأية لغة من اللغات لا يسمى (قرآنا) .

٢ ــ ومما لا خلاف فيه أيضا أن ترجمة القرآن ترجمة لفظية (حرفية) بمعنى نقل المعاني مع خصائص النظم العربي المعجز ـ مستحيلة .

٣ ــ قد وضع الناس تراجم للقرآن بلغات مختلفة اشتملت على أخطاء كثيرة ، واعتمد عليها بعض المسلمين الأجانب ، وبعض العلماء من غير المسلمين ممن يريدون الوقوف على معاني القرآن الكريم .

٤ ــ وقد دعا هذا الحال إلى التفكير في نقل معاني القرآن الكريم الى اللغات

الأخرى على أساس فهم معاني القرآن بواسطة رجال من خيرة رجال الأزهر بعد الرجوع لآراء أئمة التفسير ، وصوغ هذه المعاني بعبارات دقيقة محددة ، ثم نقل المعاني التي فهمها العلماء إلى اللغات الأخرى بواسطة رجال موثوق بأمانتهم واقتدارهم في تلك اللغات بحيث يكون ما يفهم في تلك اللغات من المعاني هو ما تؤديه العبارات العربية التي يضعها العلماء فهل الاقدام على هذا العمل جائز شرعا أو غير جائز ؟ هذا مع العالم بأنه سيوضع تعريف شامل يتضمن أن الترجمة ليست قرآنا ، وليست هي ترجمة كل المعاني التي فهمها العلماء وأنه ستوضع الترجمة وحدها بجوار النص العربي للقرآن الكريم .

وجاءت فتوى العلماء بأن الاقدام على الترجمة على الوجه المذكور تفصيلا في السؤال (جائز شرعا)

ثم أرسلت الفتوى إلى مجلس الوزراء مشفوعة برأي الشيخ المراغي في أهداف هذا العمل وقيمته في خدمة الإسلام والمسلمين لاستصدار قرار المجلس بالموافقة على ترجمة معاني القرآن ترجمة رسمية يقوم بها الأزهر مع وزارة المعارف . والاعتماد اللازم لذلك المشروع الجليل .

وجاء قرار المجلس بالموافقة على هذا المشروع مع تقدير المجلس لمشقة العمل وصعوبته ، ومنعا لأضرار التراجم المنتشرة الآن .

وبناء على قرار الموافقة شكل الأزهر لجنة من خيرة رجاله لوضع تفسير عربي دقيق تمهيدا لترجمته بواسطة لجنة فنية مختارة .

ووضعت اللجنة منهجا للتفسير يقوم على الأسس الآتية :

١ ــ خلو التفسير ما أمكن من المصطلحات والمباحث العلمية إلا ما استدعاه فهم

الآية .

٢ ـ عدم التعرض فيه للنظريات العلمية كظواهر الطبيعة والكون وإنما تفسر الأيات الكونية بما يدل عليه اللفظ العربي مع توضيح موضع العبرة والهداية فيها .

٣ ـ عدم التقيد في التفسير بمذهب من المذاهب الفقهية أو الكلامية وانما بالأيسر والأوضح من كل ذلك .

٤ ـ تحرير معاني الكلمات بدقة في عبارة واضحة قوية مع وضع أسباب التنزيل وما يؤخذ من الآيات في الوضع المناسب .

٥ ـ توضع للتفسير مقدمة في التعريف بالقرآن وبيان مسلكه .

هذا وقد نبه بعض العلماء على أشياء ينبغي مراعاتها في هذا المشروع منها :

١ ـ عدم كتابة النص القرآني بحروف لاتينية خوفا من تحريفه .
٢ ـ أن تسمى الترجمة : ترجمة تفسير القرآن ، أو تفسير القرآن بلغة (كذا) مع تجنب أن تسمى (ترجمة القرآن) خوفا من الوقوع في بعض المحاذير السابقة[1] .

(١) راجع الألىء الحسان : للدكتور موسى لاشين / ٢٢٠

الفصل الرابع

تفسير القرآن
مناهج - ورجال



التفسير والتأويل
معناهما : لغة - واصطلاحاً

التفسير :

يرجع أصل هذه الكلمة إلى مادة (ف س ر) ومعناها : الإبانة ، وكشف المغطى ، وباب فعلها كما جاء في معاجم اللغة - فَعَلَ يَفْعِل ، كضرب يضرب ، أو فَعَلَ يفعُل كنصر ينصر . وقال الراغب الأصفهاني : ومنه فسرت الريح الغيم : كشطته .

والمادة بتقاليبها تدل على الكشف والبيان ، فالسفر : الكشف ، ومنه المرأة السافر ، أي الكاشفة عن وجهها والرفس : الإزالة - وهي نوع من الكشف ، والرسف : إزالة الحرية التي يستمتع بها الإنسان . ومنه الفِراسة : وفيها استكشاف ما خفي عن طريق النظر .

وقد استخدم القرآن هذه المادة بمعنى البيان والكشف كقوله تعالى : ﴿ وَلَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلَّا جِئْنَٰكَ بِٱلْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا ﴾[1] - أي بيانا وكشفا .

واستخدم مقلوبها بمعنى الوضوح والإشراق كقوله تعالى ﴿ وَٱلصُّبْحِ إِذَآ أَسْفَرَ ﴾[2] - أي أضاء وأشرق

---

(١) الفرقان / ٣٣

(٢) المدثر / ٣٤

ولكلمة (التفسير) اصطلاح في لسان العلماء يراد بها على وجه الخصوص (علم يبحث فيه عن القرآن من حيث دلالته على مراد الله تعالى بقدر الطاقة البشرية) .

وهذا المصطلح لايبعد بالكلمة عن مدلولها اللغوي السابق من البيان والكشف ؛ فغاية المفسر لكلام الله أن يبين ويوضح ويستكشف مراد الله تعالى منه على قدر طاقته البشرية .

التأويل :

يرجع أصل هذه الكلمة إلى مادة (أول) والأوْل : الرجوع ، ومنه : المآل : المرجع ، وآل إليه الأمر : عاد ورجع .

ومقلوبها (وأل) إليه : لجأ ، وبابه وعد يعد ، ومنه (الموئل) : الملجأ ، ولايبعد عن معنى الرجوع . . ومنه (الأوّل) : مرجع ما تتابع بعده . . .

واستخدم القرآن كلمة (التأويل) في سبع سور منه :
في آل عمران / ٧ ﴿ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُۥٓ إِلَّا ٱللَّهُ وَٱلرَّٰسِخُونَ فِى ٱلْعِلْمِ ﴾
وفي النساء / ٥٩ ﴿ ذَٰلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا ﴾
وفي الأعراف / ٥٢ ﴿ هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا تَأْوِيلَهُۥ ۚ يَوْمَ يَأْتِى تَأْوِيلُهُۥ ﴾ .
وفي يونس / ٣٩ ﴿ بَلْ كَذَّبُوا۟ بِمَا لَمْ يُحِيطُوا۟ بِعِلْمِهِۦ وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُۥ ﴾ .
وفي يوسف / ٦ ﴿ وَيُعَلِّمُكَ مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِ ﴾ .
وفي الإسراء / ٣٥ ﴿ ذَٰلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا ﴾ .
وفي الكهف / ٨٢ ﴿ ذَٰلِكَ تَأْوِيلُ مَا لَمْ تَسْطِع عَّلَيْهِ صَبْرًا ﴾ .

ويرى بعض الباحثين أن كلمة (التأويل) في جميع هذه المواضع أريد بها الأمر العملي الذي يقع في المآل تصديقا لخبر أو رؤيا ، أو تصديقا لعمل غامض يقصد به شيء في المستقبل[1] .

والكلمة بهذا المراد وثيقة الصلة بمعناها اللغوي السابق على حين يرى آخرون أن المراد بها في بعض هذه المواضع هو التفسير بمعنى البيان والكشف والإيضاح[2] مستندا إلى ماجاء في بعض معاجم اللغة ؛ أوّل الكلام تأويلا ، وتأوّله : دبره ، وقدره وفسره ، والتأويل عبارة الرؤيا .

والكلمة بهذا المراد أيضا تتصل بمعنى الرجوع ، فكأن المؤول صرف الكلام عن ظاهره ، وعاد به إلى ما يحتمله من المعاني .

غير أن اقتران كلمة (التأويل) بالآيات المتشابهات والأحلام والرؤى ، والمصير المجهول يوحي بما يحتاجه التأويل من الدقة البالغة في البيان ، ولا يتأتى التأويل إلا لذي خبرة وثقافة واسعة من لغة ، إلى فكر ، إلى نفاذ بصيرة ، إلى دقة إدراك . . ولعل في قوله تعالى ﴿ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُۥٓ إِلَّا ٱللَّهُ وَٱلرَّٰسِخُونَ فِى ٱلْعِلْمِ ﴾
وفي قوله تعالى ﴿ ۞ رَبِّ قَدْ ءَاتَيْتَنِى مِنَ ٱلْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِى مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِ ﴾ وفي قوله تعالى بشأن العبد الصالح معلم موسى عليه السلام ، ومؤول الأعمال التي حار موسى في أمرها ﴿ فَوَجَدَا عَبْدًا مِّنْ عِبَادِنَآ ءَاتَيْنَٰهُ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا وَعَلَّمْنَٰهُ مِن لَّدُنَّا عِلْمًا ﴿٦٥﴾ قَالَ لَهُۥ مُوسَىٰ هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَىٰٓ أَن تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْدًا ﴾ . لعل في هذا كله ما يشير إلى مبلغ علم المؤول وسعة ثقافته ، ونفاذ بصيرته .

---

(١) دراسات في التفسير : د. مصطفى زيد / ٦٠

(٢) مناهل العرفان : الشيخ الزرقاني ١ / ٤٧٢

وربما رأى (الألوسي) فيما وراء هذه الآيات من إشارات للعلم (اللدني) ماحمله على القول بأن التأويل معان قدسية ، ومعارف ربانية ، تنهل من سحب الغيب على قلوب العارفين . .

الفرق بين التفسير والتأويل :

وكان (الألوسي) بهذا القول من جملة العلماء الذين يفرقون بين التفسير والتأويل إذ جعل (التأويل) خاصا بما كان مأخوذا بالإشارة ، و (التفسير) بماكان مفهوما من العبارة .

وعلى هذا النحو من التفرقة بين التفسير والتأويل جاء قول (أبي طالب الثعلبي) : التفسير : بيان وضع اللفظ إما حقيقة أو مجازا كتفسير الصراط بالطريق ، والصيب بالمطر ، والتأويل : تفسير باطن اللفظ ، بمعنى أن التفسير يستكشف المراد من اللفظ والعبارة ، على حين يعني التأويل الإخبار عن حقيقة المراد . . ففي قوله تعالى ﴿إِنَّ رَبَّكَ لَبِالْمِرْصَادِ﴾ تفسيره : إنه من الرصد يقال رصدته : رقيته ، والمرصاد مفعال منه ، وتأويله : التحذير من التهاون بأمر الله تعالى والغفلة عن الأهبة والاستعداد للعرض عليه .

أما (الراغب الأصفهاني) فيجعل التفسير أعم من التأويل بمعنى أن التأويل بيان مدلول اللفظ بغير المتبادر منه لدليل ويريد من التفسير بيان مدلول اللفظ مطلقا أعم من أن يكون بالمتبادر أو بغير المتبادر مثل لفظ (الظلم) المتبادر منه تجاوز الحد ، غير المتبادر منه (الشرك) لقوله تعالى : ﴿ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ ﴾ .

ويقرر بجانب هذا أن التفسير أكثر ما يستعمل في الألفاظ ، والتأويل في المعاني كتأويل الرؤيا ، والتأويل أكثر ما يستعمل في الكتب الإلهية ، والتفسير

يستعمل فيها وفي غيرها . والتفسير أكثره في مفردات الألفاظ ، والتأويل أكثره في الجمل . .

أما (أبو منصور الماتريدي) فيرى بينهما تباينا بمعنى أن التفسير هو القطع بأن مراد الله كذا ، والتأويل ترجيح أحد المحتملات بدون قطع .

ويرى آخرون أن الفرق بينهما راجع إلى أن التفسير بيان اللفظ عن طريق الرواية ، وأن التأويل بيان اللفظ عن طريق الدراية .

ويذهب (أبو عبيدة)[1] وطائفة معه إلى أن التفسير ، والتأويل بمعنى واحد ، فهما مترادفان ، وهذا هو ماشاع عند المتقدمين من علماء التفسير كابن جرير الطبري الذي يستعمل في تفسيره عبارة : (وتأويل الآية عندي) ، (واختلف أهل التأويل في هذه الآية) . كما يتضح ذلك في عناوين بعض كتب التفسير . .

هذا ويحمل بعض الباحثين قول الطبري وهو (وتأويل الآية عندي) على أنه يريد حقيقة ما يؤول إليه معنى الآية بعد تفسير مفرداتها ، والجمل الغامضة فيها . وكأنه يلحظ عند الطبري الفرق بين التفسير والتأويل .[2]

وخلاصة مانرى في هذه الآراء أن القول بالتفرقة بين التفسير والتأويل أرجح من القول بتساويهما في المراد منهما ، على نحو ما عرضناه - ويؤيده قول (الزركشي) : والسبب في اصطلاح كثير من العلماء على التفرقة بين التفسير والتأويل إنما هو التمييز بين المنقول عن طريق الرواية ، والمستنبط عن طريق الاجتهاد والدراية . كما تتفق هذه التفرقة مع ماذهب إليه الأصوليون من أن

---

(١) معمر بن المثنى صاحب مجاز القرآن

(٢) دراسات في التفسير : د. زيد / ١٧

التأويل : هو صرف اللفظ عن المعنى الراجح إلى المعنى المرجوح لدليل يقترن به .
وهو قائم على الاجتهاد وإعمال الفكر ، وإجالة النظر في لغة العرب ، والوقوف على دلالة الألفاظ بحسب السياق . كلفظ (ضرب) في قوله تعالى : ﴿ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا ﴾ ، وقوله تعالى ﴿ يَضْرِبُونَ فِى ٱلْأَرْضِ ﴾ . وقوله تعالى ﴿ فَٱضْرِبُوا۟ فَوْقَ ٱلْأَعْنَاقِ ﴾ .

تاريخ التفسير
نشأته - تطوره

أولا : التفسير في عصر النبوة :

١ ــ تفسير القرآن للقرآن

لقد تزامن التفسير مع الوحي إبان نزوله ، فكانت نصوصه المنزلة يفسر بعضها بعضا ، وتتضح دلالة آياته بمقارنتها بآيات أخرى .

وهذا التفسير إما أن يكون متصلا بالمفسَّر فى سياق واحد كتفسير (الهَلُوع) في قوله تعالى ﴿ ۞ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ خُلِقَ هَلُوعًا ﴿١٩﴾ إِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ جَزُوعًا ﴿٢٠﴾ وَإِذَا مَسَّهُ ٱلْخَيْرُ مَنُوعًا ﴾[١] .

وكتفسير (الطارق) في قوله تعالى ﴿وَٱلسَّمَآءِ وَٱلطَّارِقِ ﴿١﴾ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلطَّارِقُ ﴿٢﴾ ٱلنَّجْمُ ٱلثَّاقِبُ ﴾[٢] .

وكتفسير (الهاوية) في قوله تعالى ﴿ فَأُمُّهُۥ هَاوِيَةٌ ﴿٩﴾ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا هِيَهْ ﴿١٠﴾ نَارٌ حَامِيَةٌۢ ﴾[٣] .

وإما أن يكون المبهم في آية ، وتفسيره في آية أخرى ، كتفسير قوله تعالى

(١) المعارج / ١٩ ، ٢١

(٢) الطارق / ١ - ٣

(٣) القارعة / ٩ - ١١

﴿ فَتَلَقَّىٰٓ ءَادَمُ مِن رَّبِّهِۦ كَلِمَٰتٍ ﴾[1] ، بقوله تعالى ﴿ قَالَا رَبَّنَا ظَلَمْنَآ أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴾[2] .

وكتفسير (القول اللين) في قوله تعالى ﴿ ٱذْهَبَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ ﴿٤٣﴾ فَقُولَا لَهُۥ قَوْلًا لَّيِّنًا لَّعَلَّهُۥ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ ﴾[3] . بقوله تعالى ﴿ فَأْتِيَاهُ فَقُولَآ إِنَّا رَسُولَا رَبِّكَ فَأَرْسِلْ مَعَنَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَلَا تُعَذِّبْهُمْ قَدْ جِئْنَٰكَ بِـَٔايَةٍ مِّن رَّبِّكَ وَٱلسَّلَٰمُ عَلَىٰ مَنِ ٱتَّبَعَ ٱلْهُدَىٰٓ ﴾[4] .

وكتفسير الآيات التسع في قوله تعالى ﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَىٰ تِسْعَ ءَايَٰتٍۭ بَيِّنَٰتٍ ﴾[5] . بقوله تعالى ﴿ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلطُّوفَانَ وَٱلْجَرَادَ وَٱلْقُمَّلَ وَٱلضَّفَادِعَ وَٱلدَّمَ ءَايَٰتٍ مُّفَصَّلَٰتٍ ﴾[6] . فهذه خمس آيات ، وثنتان في قوله تعالى ﴿ وَأَلْقِ عَصَاكَ فَلَمَّا رَءَاهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَآنٌّ . . . وَأَدْخِلْ يَدَكَ فِى جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضَآءَ مِنْ غَيْرِ سُوٓءٍ فِى تِسْعِ ءَايَٰتٍ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَقَوْمِهِۦٓ ﴾[7] . والثامنة في قوله تعالى : ﴿ فَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنِ ٱضْرِب بِّعَصَاكَ ٱلْبَحْرَ فَٱنفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَٱلطَّوْدِ ٱلْعَظِيمِ ﴾[8] . والتاسعة في قوله تعالى ﴿ وَلَقَدْ أَخَذْنَآ ءَالَ فِرْعَوْنَ بِٱلسِّنِينَ وَنَقْصٍ مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ ﴾[9] .

---

(١) البقرة / ٣٧
(٢) الأعراف / ٢٣
(٣) طه / ٤٣ ، ٤٤
(٤) طه / ٤٧
(٥) الاسراء / ١٠١
(٦) الاعراف / ١٣٣
(٧) النمل / ١٠ ـ ١٢
(٨) الشعراء / ٦٣
(٩) الأعراف / ١٣٠

ومثل ذلك كثير كتفسير المجمل بالمفصل من قصص الأنبياء ، كقصة آدم وإبليس ، وقصة موسى وفرعون ، ورأى بعض العلماء كذلك أن من تفسير القرآن للقرآن حمل مطلقه على مقيده ، وحمل عامه على خاصه ، ورد متشابهه إلى محكمه[١] .

ومن ذلك تفسير النبي صلى الله عليه وسلم (الظلم بالشرك) لما نزل قوله تعالى ﴿ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَمۡ يَلۡبِسُوٓاْ إِيمَٰنَهُم بِظُلۡمٍ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلۡأَمۡنُ وَهُم مُّهۡتَدُونَ ﴾[٢] . شق على الناس ذلك فقالوا : يارسول الله وأينا لا يظلم نفسه ؟ قال : إنه ليس الذي تعنون ، إنما الظلم هو الشرك ، ألم تسمعوا قوله تعالى على لسان لقمان لابنه يعظه : ﴿ يَٰبُنَيَّ لَا تُشۡرِكۡ بِٱللَّهِۖ إِنَّ ٱلشِّرۡكَ لَظُلۡمٌ عَظِيمٌ ﴾[٣] .

هذا بعض مايفهم من قوله تعالى ﴿ ثُمَّ إِنَّ عَلَيۡنَا بَيَانَهُۥ ﴾ . وبعضه الآخر هو ما علمه لنبيه صلى الله عليه وسلم ليبين للناس مانزل إليهم مصداقا لقوله تعالى ﴿ فَإِنَّمَا يَسَّرۡنَٰهُ بِلِسَانِكَ لِتُبَشِّرَ بِهِ ٱلۡمُتَّقِينَ وَتُنذِرَ بِهِۦ قَوۡمًا لُّدًّا ﴾[٤] . وهذا هو :

٢ ـ تفسير السنة للقرآن

وتلك قضية أشار إليها القرآن بوضوح في قوله تعالى ﴿ وَأَنزَلۡنَآ إِلَيۡكَ

---

(١) التفسير والمفسرون ١ / ٣٨ ـ ٤١ د. محمد حسين الذهبي
(٢) الأنعام / ٨٢ ،
(٣) لقمان / ١٣
(٤) مريم / ٩٧

ٱلذِّكۡرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيۡهِمۡ وَلَعَلَّهُمۡ يَتَفَكَّرُونَ ﴾[1] . وفي قوله تعالى ﴿ وَمَآ أَنزَلۡنَا عَلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ إِلَّا لِتُبَيِّنَ لَهُمُ ٱلَّذِي ٱخۡتَلَفُواْ فِيهِ ﴾[2] .

وأكدها النبي صلى الله عليه وسلم بقوله : « ألا وإني أوتيت الكتاب ومثله معه ، ألا يوشك رجل شبعان على أريكته . (أو متكيء على أريكتـه) ـ يقول عليكم بالقرآن فما وجدتم فيه من حلال فأحلوه وما وجدتم من حرام فحرموه . » [رواه أبو داود] .

أي أنه صلى الله عليه وسلم أوتي من الوحي غير المتلو مثل الوحي المتلو تبيانا له وتوضيحا ، وكلٌ من عند الله لقوله تعالى ﴿ وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلۡهَوَىٰٓ ۝ إِنۡ هُوَ إِلَّا وَحۡيٞ يُوحَىٰ ﴾[3] . وليس إذا على صواب من يستمسك بظاهر القرآن ـ كالروافض والخوارج ـ ويتركون الاستدلال بالسنة المبينة للقرآن ، والشارحة له .

والناظر في كتب السنة يجد من أبوابها الكثيرة بابا للتفسير المأثور عن النبي صلى الله عليه وسلم ، كصحيح البخاري ، ومسلم . وتفسير السنة للقرآن على وجوه :

١ ــ منها بيان المجمل في القرآن ، كبيان مواقيت الصلوات الخمس ، وعدد ركعاتها ، وكيفياتها . . وبيان مقادير الزكاة وأوقاتها وأنواعها وبيان مناسك الحج . وغير ذلك مما جاء مجملا في القرآن وتولت السنة تفصيله .

٢ ــ ومنها بيان أحكام زائدة على ماجاء به القرآن كتحريم نكاح المرأة على عمتها ،

---

(١) النحل / ٤٤

(٢) النحل / ٦٤

(٣) النجم / ٣ ٤

وتحريم أكل الحمر الأهلية ، وكل ذي ناب من السباع ، والقضاء باليمين والشاهد ، وغير ذلك مما هو مقرر في علم أصول الفقه .

٣ ـ ومنها بيان لفظ أو متعلقه كتفسير المغضوب عليهم باليهود ، والضالين بالنصارى ، والصلاة الوسطى : بصلاة العصر [فيما رواه الترمذي وابن حبان عن ابن مسعود]

وتفسير (القوة) بالرمي فيما أخرجه مسلم وغيره عن عقبة بن عامر قال : سمعت رسول الله يقول وهو على المنبر (وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة) ألا إن القوة : الرميّ .

وتفسير (يوم الحج الأكبر) بيوم النحر فيما رواه الترمذي عن علي قال : سألت رسول الله عن يوم الحج الأكبر ، فقال يوم النحر ، وتفسير كلمة (التقوى) بقوله : لا آله إلا الله فيما أخرجه الترمذي عن أبي قال سمعت رسول الله يقول : (وألزمهم كلمة التقوى) أي لا آله إلاّ الله .

وتفسير (الكوثر) بنهر في الجنة فيما رواه مسلم وأحمد عن أنس قال : قال رسول الله : الكوثر نهر أعطانيه ربي في الجنة .

مقدار ما فسره النبي من القرآن

اختلفت كلمة العلماء حول مقدار ما فسره النبي صلى الله عليه وسلم من القرآن ؛ فذهب ابن تيمية وطائفة معه إلى أن رسول الله فسر لأصحابه جميع آي القرآن ، على أساس ما فهمه من قول الله تعالى ـ عن وظيفة النبي ـ ﴿ وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ ﴾ فأي قصور في بيان معانيه يكون

إخلالا بالبيان المكلف به . وعلى فحوى ما يفهم من حديث عمر رضي الله عنه فيما رواه أحمد وابن ماجه قال : من آخر ما نزل آية الربا ، وإن رسول الله قبض قبل أن يفسرها ؛ فلولم يفسر لهم كل مانزل ، لما كان للتخصيص بها وجه . .

على حين يذهب (الخوبي)[1] فيما نقله عنه السيوطي وارتضاه أن رسول الله لم يبين لأصحابه من معاني القرآن إلا القليل واستندا في ذلك على ما أخرجه البزار عن عائشة رضي الله عنها قالت : ماكان رسول الله يفسر شيئا من القرآن إلا آيا بعدد علمه إياهن جبريل عليه السلام .

وبين هذه الكثرة البالغة حد التمام ، والقلة البالغة حد الندرة ، يتوسط فريق من العلماء في هذه القضية بأن النبي فسر من القرآن ما احتاج إليه أصحابه مما أشكل عليهم ، وسألوه عنه وبعض المغيبات التي أخفاها الله عنهم وأطلعه عليها وأمره ببيانها لهم . وبقي دون تفسير ما استأثر الله بعلمه ، ولاحاجة لعباده به كقيام الساعة ، وحقيقة الروح وما إلى ذلك . وكذلك ماكان ظاهرا يتبادر إلى الأفهام لوضوحه وعدم خفائه مما لا يعذر أحد بجهله ؛ لأنهم كانوا عُرْب الألسن فاستغنوا بعلمهم عن المسألة عما فيه مما في كلام العرب مثله من وجوه الإعراب ومن الغريب والمعاني . وبهذا يكون الرسول صلى الله عليه وسلم قد أدى ماعليه من البيان وانتفى عنه فيما سكت عنه الملام .

وحملوا حديث عمر رضي الله عنه على أن الآية كانت من المشكل الذي لم تتسع له حياة الرسول للسؤال عنه .

أما حديث عائشة رضي الله عنها فهوعند العلماء حديث منكر غريب ـ وعلى

---

(١) شهاب الدين الخوبي الدمشقي ت ٦٣٩هـ واسمه أحمد بن خليل الخوبي .

فرض صحته ـ فهو محمول كما قال أبو حيان على مغيبات القرآن مما لاسبيل إليه إلا بتوقيف من الله[1] .

وفي ضوء هذا التحليل يتضح لنا أن التفسير في أول مراحله كان جزءا من الحديث النبوي . . ولم يسلم هذا الجزء من الأحاديث ـ كشأن غيره من أحاديث النبي ـ من وضع الوضاعين واضافات المتزيدين حتى غدا كثير منه غير صحيح في نسبته إلى النبي صلى الله عليه وسلم . وهذا ما دعا كثيرا من المحققين إلى التوقف عن الاعتماد عليه والأخذ به ، بل ذهب بعضهم إلى أبْعَدَ من ذلك فأنكـره كله أو معظمه مستندين إلى مانقل عن الإمام أحمد من قولـه : (ثلاثـة لا أصل لهـا : التفسير ، والملاحم ، والمغازي) .

ولكن الإنصـاف يقتضينا ألا نغـالي في رفض كل مـا نسب إلى النبي من أحاديث التفسير فقد جاء بعضها بسند صحيح عنه . ومثل هذا ليس من الصواب رده . وغاية ما يحمل عليه قول الامام أحمد أن أغلب ما نسب إلى النبي ليس له أسانيد صحاح متصلة[2] .

ثانيا : التفسير في عصر الصحابة

تمهيد

لحق رسول الله صلى الله عليه وسلم بالرفيق الأعلى بعد أن أدى رسالته ، وبلغ أمانته ، وترك أصحابه على المحجة الواضحة فقد حفظوا عنه القرآن ، وتلقوا عنه بيانه فيما احتاجوا إليه ، واستغنوا به عن الزيادة عليه ، ولم يحدثوا ـ أولا ـ الا بما

---

(١) راجع البحر المحيط لأبي حيان ١/١٣ ، والقرطبي ١/ ٣١

(٢) الاتقان للسيوطي ٢/١٧٨

تعلموه من رسول الله صلى الله عليه وسلم، فأشفقوا على أنفسهم من أن يقولوا في القرآن برأي لم يقفوا عليه من رسول الله ، ويبلغ بهم التحرج حدا قال معه أبو بكر رضي الله عنه : أي سماء تظلني ، وأي أرض تقلني اذا قلت في القرآن برأيي ، أو بما لا أعلم .

وكان قصاري ما أثر عنه في بعض المواقف أنه قال : أيها الناس إنكم تقرءون هذه الآية ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ عَلَيۡكُمۡ أَنفُسَكُمۡ لَا يَضُرُّكُم مَّن ضَلَّ إِذَا ٱهۡتَدَيۡتُمۡ ﴾ وانكم تضعونها على غير موضعها واني سمعت رسول الله يقول : إن الناس اذا رأوا المنكر فلم يغيروه أوشك الله أن يعمهم بعقابه[1] .

ولكن قد تحملهم أمانة الرسالة التي نيطت بهم بعد رسول الله أن يبينوا للناس ما خفي عليهم من أمر الدين ، فكانوا إزاء ما لم يؤثر عن النبي فيه حكم أو رأي ؛ أن يقولوا فيه برأيهم على قدر ما فهموا ، مع التحرج والاشفاق ، فقد استفتى أبو بكر رضي الله عنه في الكلالة حين سئل عنها في الآية الكريمة ﴿ يَسۡتَفۡتُونَكَ قُلِ ٱللَّهُ يُفۡتِيكُمۡ فِي ٱلۡكَلَٰلَةِ ﴾فقال أقول فيها برأيي فان كان صوابا فمن الله وان كان غير ذلك فمني ومن الشيطان : الكلالة : كذا وكذا[2]

ولعل دعوة رسول الله صلى الله عليه وسلم لعبد الله بن عباس (اللهم فقهه في الدين وعلمه التأويل) كانت إذنا لهم أن يفسروا للناس من بعده ما يخفى على عامتهم من معاني القرآن بقدر ما يفتح الله به عليهم لتتصل بهم هدايات الرسالة ، ويتواصل بعلمهم هذا الدين .

ولقد كان أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم أقدر الناس من بعده

---

(١) أخرجه أحمد في مسنده

(٢) راجع مناهل العرفان ١ / ٥٢٥

على تفسير القرآن فهم الراسخون في العلم بما تهيأ لهم من شهود الوحي والتنزيل ، ومعرفة أسباب النزول ، والتلقي عن رسول الله مع ما لهم من سلامة الفطرة ، وصفاء القريحة ، وعلم باللغة وعلو في الفصاحة والبيان .

وهم وان تفاوتت أقدارهم في تلك الخصائص فقد شارك كثير منهم في هذه المهمة ، غير أن من بينهم من وقف نفسه عليها ، واحتملها عن مقدرة حتى شهد له أصحابه بالتفوق . .

وقد اشتهر بذلك عشرة منهم حصر السيوطي أسماءهم : هم الخلفاء الأربعة ، وابن مسعود ، وأبي بن كعب ، وزيد بن ثابت ، وأبو موسى الأشعري ، وعبد الله بن الزبير ، وعبد الله بن عباس .

١ ـ علي رضي الله عنه

وأشهر الخلفاء الأربعة علي بن أبي طالب رضي الله عنه فقد طالت حياته بعد أصحابه الثلاثة وتأخر زمانه فاتسعت الرقعة الاسلامية ودخل كثير من غير العرب في الاسلام ، وصار الناس في حاجة إلى من يفسر لهم القرآن ، فاضطلع علي رضي الله عنه بهذه المهمة أقدر ما يكون عليها لخصوبة فكره ، وصفاء قريحته ، واشراق روحه وطول معاشرته لرسول الله صلى الله عليه وسلم .

ولم يأل جهدا في دعوة الناس إلى الأخذ عنه ، فقد روى عنه أنه كثيرا ما كان يقول للناس : سلوني عن كتاب الله فما من آية نزلت إلا وقد علمت فيم أنزلت ، وأين نزلت؟ وإن الله قد وهب لي قلبا عقولا ولسانا سؤولا[1]

---

(١) أخرجه أبو نعيم في الحلبة

وبهذا صار حجة فيما يقول فقد روى سعيد بن جبير عن ابن عباس أنه قال : اذا ثبت لنا الشيء عن علي لم نعدل عنه إلى غيره . وقد أخذ عنه ابن عباس أكثر تفسيره[1]

غير أن ما صح عن علي رضي الله عنه في التفسير قليل بالنسبة لما وضع عليه ، فقد ابتلى بمن أحبوه فغالوا في حبه فقولوه ما لم يقل ، ونسبوا اليه ما ليس له ، ترويجا لمذهبهم ، وإعلاء لشأن إمامهم ـ في زعمهم ـ وما علموا أنهم أفسدوا الكثير من علمه . وغضوا من شأنه . وتوقف كثير عن الأخذ بما نسب اليه دون تمحيص .

وأنصفه النقاد فصححوا طرق الرواية عنه : فالبخاري لا يأخذ من رواياته الا ما كان عن طريق هشام عن محمد بن سيرين عن عبيدة السلماني .

وعلي رضي الله عنه وان كان أكثر الخلفاء رواية في التفسير ؛ فقد يتقدم عليه في كثرة الرواية ابن عباس وابن مسعود ويتأخر عنه باقي العشرة . .

٢ ـ عبد الله بن عباس

أشهر الصحابة في التفسير والمقدم عليهم لطول حياته بعد التسعة السابقين ، انتهت إليه الرئاسة في التفسير والفتوى في جيل لم يجد الناس فيه إماما أتم اضطلاعا بهما منه . فإنه لم يبق عند منتصف القرن الأول من الهجرة من بين الصحابة وغيرهم إلا مذعن لابن عباس ، مسلم له مقدرته الموفقة وموهبته العجيبة ببركة دعاء النبي له (أن يفقهه الله في الدين ويعلمه التأويل)

وقف نفسه على تعليم الناس لا تشغله إمارة ولا تصرفه رئاسة فكان يجلس يوما للفقه ، ويوما للتأويل ، ويوما للمغازي ، ويوما للشعر ، ويوما لأيام

(١) أسد الغابة ٤/ ١٦ ـ ٤٠

العرب . وما جلس إليه عالم إلا خضع له ، ولا سأله سائل الا وجد عنده علما . حتى قال عنه ابن عمر رضي الله عنهما - (أعلم أمة محمد بما نزل على محمد) . وأثنى علي رضي الله عنه على تفسيره فقال (كأنما ينظر إلى الغيب من ستر رقيق)

وانتهى إليه سعيد بن جبير يوما بمسألة يهودي من الكوفة لا يدري لها سعيد جوابا وهي : أي الأجلين قضى موسى عليه السلام ؟ فقال ابن عباس : أخبره بأنه قضى أكثرهما وأطيبهما ؛ ان النبي اذا وعد لم يخلف . فقال اليهودي حين بلغه ذلك : صدق ابن عباس ، هذا والله هو العالم[1] .

وبحسبه فضلا أن يعتد عمر رضي الله عنه بعلمه مع حداثة سنه ولا يدعو لمعضلة تطرأ عليه أحدا سواه .

وامتاز ان عباس في تفسيره برواية الشعر يستعين بها على فهم معاني الغريب في القرآن . ونقل عنه الطبري أنه قال : إذا تعاجم شيء من القرآن فانظروا في الشعر ؛ فان الشعر عربي - وسجل السيوطي في الإتقان[2] بعض ما كان بين نافع بن الأزرق وابن عباس من محاورة يطلب فيها ابن الأزرق تفسير أشياء من كتاب الله بمصادقة من كلام العرب فسأله عن قول الله ﴿ عَنِ ٱلْيَمِينِ وَعَنِ ٱلشِّمَالِ عِزِينَ ﴾ قال ابن عباس (العزون) : حلق الرفاق ، قال وهل تعرف العرب ذلك ، قال نعم أما سمعت عبيد بن الأبرص وهو يقول :

فجاءوا يهرعون اليه حتى يكونوا حول منبره عزينا

قال أخبرني عن قوله تعالى ﴿وَٱبْتَغُوٓاْ إِلَيْهِ ٱلْوَسِيلَةَ﴾ قال : (الوسيلة :

---

(١) راجع الطبري ٤٣/٢٠

(٢) الاتقان ١٢٠/١

الحاجة) قال وهل تعرف العرب ذلك ؟ قال : نعم أما سمعت عنترة وهو يقول :

ان الـرجـال لهـم إلـيـك وسـيـلة   ان يـأخـذوك تـكحـلي وتخضبي

وأضاف ابن عباس الى تفسيره بيان مجمل القرآن ومبهماته بـرجوعـه الى مصادر المعرفة لتي توفرت لديه يومئذ من التاريخ العام وأخبار الأمم ولاسيما الأمتين الكتابيتين : اليهود والنصارى .

ورأى بعض النقاد أن مسلك ابن عباس في الأخذ عن أهل الكتاب يخالف النهي الصريح من النبي عن مساءلة أهل الكتاب ؛ فقد روى أحمد والبزار من حديث جابر : (لا تسألوا أهل الكتاب عن شيء فإنهم لن يهدوكم وقد ضلوا ، وإنكم إما أن تكذبوا بحق ، أو تصدقوا بباطل ، والذي نفسي بيده ـ لو كان موسى بين أظهركم ما حل له إلا اتباعي)

والحق أن ظاهر هذه الروايات يدل على أن ابن عباس لم يسأل أحدا من أهل الكتاب بقي على دينه ، وانما سأل من دخل في الاسلام منهم ؛ كعبد الله بن سلام ، وكعب الأحبار ، وأولهما صحابي جليل روى الترمذي عن معاذ رضي الله عنه ، عن رسول الله صلى الله عليه وسلم (أنه عاشر عشرة في الجنة) وثانيهما تابعي جليل أسلم في خلافة أبي بكر رضي الله عنه . أخذ عن الصحابة وأخذوا عنه . وله شيء في صحيح البخاري .

وسؤال هؤلاء لا يتوجه إليه النهي الوارد في الحديث لأنهم قد اهتدوا ، وهدوا . وان الذي أخذ عنهم لم يكن شيئا من أمور العقيدة وانما سألهم عما أجمله القرآن من شئون الخليقة ، وقصص الأنبياء ، وأخبار الأمم الماضية ، مما فصلته التوراة . وكان لا يقبل منه الا ما اتفق مع القرآن وصدقه العقل . . بل كان شديد

الحذر والتحذير حيال هذا المسلك ؛ فقد روى البخاري عنه أنه قال : (يامعشر المسلمين تسألون أهل الكتاب ، وكتابكم الذي أنزل على نبيكم صلى الله عليه وسلم أحدث الأخبار بالله ، تقرءونه ولم يشب ، أفلا ينهاكم ما جاءكم من العلم عن مساءلتهم) فأنّى لرجل يقول هذا ثم يأخذ عن كفار أهل الكتاب وقد جاءه من العلم ما يستغني به عن مساءلتهم .

ابن عباس والوضاعون

فاق المروى عن ابن عباس في التفسير حد المعقول ، فلا تكاد تجد في كتب التفسير قولا الا ولابن عباس فيه رواية ، ولا تدقق النظر فيها نسب إليه الا وجدت أكثره متناقضا ، أو هراء لا يتفق مع علم ابن عباس وجلال قدره ، وكان أمرا ملفتا لأنظار النقاد من علماء الحديث فتتبعوا رواياته ونقبوا فيها نسب إليه فوجدوا أكثره من عمل الوضاعين الذين ابتلى بهم ابن عباس ، شأن كل النابهين في كل زمان ومكان .

وقد أرجع المرحوم الدكتور الذهبي أسباب كثرة الوضع على ابن عباس إلى أنه كان من بيت النبوة ، والوضع عليه يكسب الموضوع ثقة وقوة أكثر مما لو وضع على غيره ، أضف إلى ذلك أنه كان من نسله الخلفاء العباسيون ، وكان الناس يتزلفون إليهم ، ويتقربون منهم بما يروونه عن جدهم إن صدقا وإن كذبا[1] .

وقد أنصف النقاد من رجال الاسناد حبر الأمة ابن عباس فحفظوا له حقه في الثقة به ؛ إذ حددوا أصح الطرق في النقل عنه فكانت طريق علي بن أبن طلحة

---

(١) راجع : التفسير والمفسرون ١ / ٨٢ ، ٨٣ الدكتور محمد حسين الذهبي .

الهاشمي عنه ، وطريق قيس عن عطاء بن السائب عن سعيد بن جبير . وهذه الطريق صحيحة على شرط الشيخين . و أو هي الطرق عنه طريق الكلبي عن أبي صالح ، وكذا طريق مقاتل بن سليمان ، وطريق الضحاك بن مزاحم عن ابن عباس منقطعة ، فإن الضحاك لم يلقه .

ومن ثم تردد كثير من النقاد في قبول نسبة التفسير المشهور (بتنوير المقباس بتفسير ابن عباس) إليه ، وهو مطبوع على هامش كتاب الدر المنثور للسيوطي عن مخطوطة في المكتبة الحميدية باستانبول .

ويذهب المرحوم أمين الخولى إلى أن هذا التفسير ليس لابن عباس وانما هو لمجد الدين الفيروزابادي صاحب (القاموس المحيط في اللغة) ومعظم هذا التفسير برواية السدى الصغير عن محمد بن السائب الكلبي عن ابي صالح ، وهي من أو هي الطرق بالنسبة لابن عباس رضي الله عنه . .

٣ ــ عبد الله بن مسعود

صاحب رسول الله صلى عليه وسلم وأمين طهوره وسواكه ، وملازم بيته ، أخذ القرآن من فم رسول الله ، والعلم به ، وقد أحب النبي قراءته ، فكان كثيرا ما يطلب منه أن يقرأ عليه ، وقال فيه الرسول : من سره أن يقرأ القرآن رطبا كما أنزل فليقرأه على قراءة ابن أم عبد .

عرف له الصحابة قدره فأجلوا منزلته حتى إذا بعث به عمر رضي الله عنه معلما لأهل الكوفة قال لهم : لقد آثرتكم بعبد الله على نفسي .

أقام بالكوفة يعلم الحديث والتفسير والفقه ، قال عنه مسروق : كان عبد الله يقرأ علينا السورة ثم يحدثنا فيها ويفسرها عامة النهار وله في كتب التفسير أسانيد

كثيرة ، ولكن النقاد يرون معظمها غير صحيح النسبة إليه ، وقد تتبعوا طرقه فوجدوا أصحها إليه طريق الأعمش عن أبي الضحى عن مسروق ، وكذلك طريق مجاهد عن أبي معمر وقد اعتمد عليها البخاري في صحيحه . . وله طرق أخرى دون ذلك .

٤ ــ أبي بن كعب رضي الله عنه .

أبو المنذر أبي بن كعب بن قيس الأنصاري أول كتاب الوحي للنبي في المدينة ، وقف من خلال صحبته للنبي صلى الله عليه وسلم وكتابته له على أسباب النزول ومواضعه ، وأفاد من تفسيره لما أشكل عليه . وزاده سعة في الفهم أنه كان قبل إسلامه حبرا من أحبار اليهود العارفين بأسرار الكتب السابقة ، أثر عنه الكثير في كتب التفسير المدونة ، وقد روى له في التفسير أبو جعفر الرازي عن الربيع بن أنس عن أبي العالية وهذه هي أصح الطرق عنه .

ويأتي من بعد أبي بن كعب باقي العشرة ، وهم مع شهرتهم في التفسير كانوا أقل من الأربعة الذين قبلهم .

ملامح التفسير في عصر النبي وصحابته

من خلال العرض السابق نستطيع أن نتبين ملامح التفسير في هذه المرحلة وهي :

١ ــ أن ما خلفه النبي صلى الله عليه وسلم من تفسير القرآن لا يعدو تفسير المشكل من آياته ، وبعض مغيباته مما أذن للنبي صلى الله عليه وسلم في بيانه . وبقى دون تفسير ما أستأثر الله بعلمه ، ولا حاجة به لعباده ، وكذلك ما كان ظاهر المعنى باديا لأفهام الصحابة .

٢ ــ تحمل الصحابة رضوان الله عليهم ما خلفه رسول الله صلى الله عليه وسلم من هذا التفسير الى من بعدهم عملا بوصيته الكريمة (ألا فليبلغ الشـاهد منكم الغائب) وقوله (احفظوه وأخبروه من وراءكم) . وقوله (نضر الله امرأ سمع مقالتي فوعاها ، فأداها كما وعاها) .

٣ ــ تحدث الصحابة في تفسير ما غمض على معاصريهم باجتهادهم واعمال رأيهم فيمالم يجدوا تفسيره في كتاب الله ، أو لم يؤثر عن النبي فيه قول .

٤ ــ اعتمد الصحابة في اجتهادهم على ما توفر لديهم من علم بأسباب النزول ، وما أحاط بالقرآن من ظروف وملابسات ، ومعرفة بعادات العرب ، وأحوال من حولهم من أهل الكتاب وقت نزول القرآن ثم على معرفتهم بأوضاع اللغة وأسرارها مع ما امتازوا به من قوة الفهم وسعة الإدراك .

٥ ــ امتاز التفسير في هذه المرحلة بالإيجاز وإجمال المعنى فلا يعدو تفسير اللفظ بمرادفة كتفسيرهم (غَيْرَ مُتَجَانِفٍ لِّإِثْمٍ)[١] أي غير متعرض لمعصية . أو إيضاح المعنى بوجه عام دون تفصيل كأن يفهموا من قوله تعالى ﴿وَفَٰكِهَةً وَأَبًّا﴾[٢] أنه تعداد لنعم الله على عباده .

٦ ــ ندرة الاستنباط للأحكام الفقهية من الآيات القرآنية الا ما تدعو اليه ضرورة كاختلافهم حول الحكم في قضية من مثل ما روى من أن عمر رضي الله استعمل قدامة بن مظعون على البحرين ، فقدم الجارود على عمر فقال : إن قدامة شرب فسكر . فقال عمر : من يشهد على ما تقول ؟ قال الجارود : أبو هريرة يشهد على ما أقول . فقال عمر : ياقدامة اني جالدك . قال قدامة : والله لو شربت كما يقول ما كان لك، أن تجلدني . قال عمر ولم ؟ قال : لأن الله يقول ﴿ لَيْسَ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جُنَاحٌ فِيمَا طَعِمُوٓا۟ إِذَا مَا ٱتَّقَوا۟ وَّءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ ثُمَّ ٱتَّقَوا۟ وَّءَامَنُوا۟ ثُمَّ ٱتَّقَوا۟ وَّأَحْسَنُوا۟﴾[٣]. فأنا منهم ، شهدت مع رسول الله المشاهد كلها . فقال عمر : ألا تردون عليه قوله ؟

فقال ابن عباس رضي الله عنه : إن هذه الآية أنزلت عذرا للماضين ، وحجة على الباقين ؛ لأن الله تعالى يقول ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِنَّمَا ٱلْخَمْرُ وَٱلْمَيْسِرُ وَٱلْأَنصَابُ وَٱلْأَزْلَٰمُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ فَٱجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾[٤] .

---

(١) المائدة / ٣

(٢) عبس / ٣١

(٣) المائدة / ٩٣

(٤) المائدة / ٩٠

قال عمر رضي الله : صدقت . وأقام الحد عليه[1]

٧ ــ قلة الاختلاف بين الصحابة في التفسير ، وما عهد من ذلك فهو قليل . ويرجع سببه إلى اختلاف حظوظهم من الفهم والادارك على نحو ما كان بين قدامة بن مظعون ، وابن عباس في الحديث السابق ذكره .

٨ ــ لم تشهد هذه المرحلة تفسيرا كاملا مرتبا لآيات القرآن بل ظل ـ في نطاق ما تدعو اليه الحاجة ـ تفسيراً لآيات متناثرة على غير ترتيب يتناقلونه مشافهة . ولم يدون منه إلا القليل في مخطوطات الصحابة بجوار النص القرآني .

٩ ــ تميز لنا في هذه المرحلة نوعان من حديث التفسير :

أولهما : المرفوع وهو ما أسنده الصحابي الى الرسول صلى الله عليه وسلم صراحة أو حكما .

ثانيهما : الموقوف وهو ما كان من تفسير الصحابي غير مسند الى رسول الله صلى الله عليه وسلم .

ورأى بعض العلماء أن تفسير الصحابي فيما يرجع إلى أسباب النزول ، وكل ما ليس فيه مجال للرأي فهو في حكم المرفوع .

ويبقى الموقوف عندهم ما كان من تفسير الصحابي في غير ذلك مما للرأي فيه مجال .

ويطلق على هذا الحديث المرفوع وما في حكمه لفظ (المأثور) ويحكم بوجوب الأخذية به ولا يجوز رده اتفاقا مادام بسند صحيح .

(١) راجع فجر الاسلام : أحمد أمين / ٢٤٣ ، ٢٤٤ ، التفسير . د . الذهبي ١/٦٠

أما (الموقوف) فقد اختلف العلماء فيه ، فيرى بعضهم عدم وجوب الأخذ به لأنه رأى مجتهد ، والمجتهد يخطىء ويصيب ، والصحابة في اجتهادهم كسائر المجتهدين .

ويرى آخرون أنه يجب الأخذ به والرجوع إليه لظن سماعهم له من رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ولأنهم ان فسروا برأيهم فرأيهم صواب ، لأنهم أعلم الناس بكتاب الله لما توفر لهم من أدوات الاجتهاد ولاسيما علماؤهم وكبراؤهم كالعشرة الذين سبق ذكرهم[1] .

وعلى ذلك يكون الموقوف مطلقا عند هؤلاء العلماء من (المأثور) ويمكن بناء على ذلك تعريف (المأثور) بأنه المنقول عن السلف من قول الصحابي مرفوعا أو موقوفا . ويسمى التفسير المعتمد عليه (التفسير بالمأثور) أو (التفسير الأثري)

ثالثا : التفسير في عصر التابعين

تمهيد :

اتصلت روايات التفسير عن الصحابة بالتابعين الذين تتلمذوا على أيديهم فأخذوا عنهم ما رووا عن رسول الله صلى الله عليه وسلم وما كان من أقوالهم موقوفا عليهم .

فقد أخذ عن ابن عباس رضي الله عنه أصحابه من التابعين وهم : مجاهد بن جبر ، وعطاء بن أبي رباح ، وعكرمة مولي ابن عباس ، وسعيد بن جبير . وهؤلاء يمثلون مدرسة مكة في التفسير .

---

(١) راجع تفسير ابن كثير ١/٣ ، والتفسير : د . الذهبي ١/٩٥

وأخذ عن أبي بن كعب رضي الله عنه ، أصحابه من التابعين وهم : أسلم بن زيد ، وأبو العالية الرياحي ، ومحمد بن كعب القرظي وغيرهم وهؤلاء يمثلون مدرسة المدينة في التفسير .

وأخذ عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه أصحابه من التابعين وهم : علقمة بن قيس ، ومسروق بن الأجدع ، ومرة الهمداني ، والأسود بن يـزيد ، وعامر الشعبي ، والحسن البصري وقتادة بن دعامة السدوسى ، وهؤلاء يمثلون مدرسة الكوفة في التفسير .

وقام رجال هذه المدارس في هذه الأمصار الثلاثة بدورهم في تفسير القرآن معتمدين على ما جاء في القرآن مفسرا وما رووه عن الصحابة مرفوعا وموقوفا . وعلى ما أخذوه من أهل الكتاب المعاصرين لهم مما جاء في كتبهم ، وعلى اجتهادهم بقدر ما فتح الله عليهم ، فزادوا في التفسير على قدر ما دعت إليه حاجة معاصريهم من علم هذا الكتاب . . ونما التفسير على أيديهم بما أضافوه من آرائهم الاجتهادية حتى شارف على التمام . .

رجال مدرسة مكة

١ ـ سعيد بن جبير :

أحد رجال مدرسة التفسير بمكة الذين أخذوا القراءة عن ابن عباس وسمع منه التفسير ، وأكثر الرواية عنه ، وكان جماعا للقراءات فازداد بها قدرة على التوسع في معرفة معاني القرآن وأسراره .

كان يقف في تفسيره عند المأثور ، ويتورع عن القول في التفسير برأيه ، روى

عنه ابن خلكان : سأل رجل سعيدا أن يكتب له التفسير فغضب ، وقال : لأن يسقط شقي أحب إلي من ذلك .

وكان ابن عباس يثق بعلمه ويحيل عليه من يستفتيه . ويرى قتادة أن سعيدا كان أعلم التابعين بالتفسير ، لذلك وثقه رجال الاسناد وأجمع عليه أصحاب الكتب الستة . . قتله الحجاج صبرا عام ٩٥ هـ

٢ ـ مجاهد بن جبر :

تلميذ من تلامذة ابن عباس في التفسير يقول : عرضت القرآن على ابن عباس ثلاثين مرة ، وفي ثلاث منها قال : كنت أقف عند كل آية أسأله فيم نزلت ، وكيف كانت ؟ وكانت له ألواح يسجل فيها كل ما سمعه من تفسير ابن عباس .

ومع الإجماع على الثقة به كان بعض العلماء لا يأخذ بتفسيره لما اشتهر عنه أنه كان يسأل أهل الكتاب ـ وأغلب الظن أنه ما كان يتخطى حدود ما يجوز من ذلك ، ولاسيما وهو تلميذ ابن عباس الذي كان شديد الحذر والتحذير من مساءلة أهل الكتاب[1]

ولم يكن مجاهد وقافا عند المأثور بل أعطى عقله حرية واسعة في فهم بعض نصوص القران التي يبدو وظاهرها بعيدا فينزلها بكل صراحة ووضوح على التشبيه والتمثيل[2] .

وكان هذا المسلك من مجاهد بالإضافة إلى سؤاله أهل الكتاب مما حمل بعض المتورعين على لومه وعدم الثقة بتفسيره .

(١) التفسير : د . الذهبي ١/١٥٠
(٢) المرجع السابق / ١٠٦

ولكن الرجل لم يكن صاحب هوى أو بدعة فيها استعمل عقله في فهمه من نصوص القرآن ، وهو وإن بدا مجددا في منهج التفسير باستخدام العقل وإعمال الفكر ـ لا يعدو ما وقف عليه من منهج أستاذه في مزج المأثور بالرأي ، لذلك بكى حين قيل له : أنت الذي تفسر القرآن برأيك . وقال : اني إذا لجريء ، لقد حملت التفسير عن بضعة عشر رجلا من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم .

ومهما يكن من شيء فهذه الحرية لا تغض من قيمته ولا تقلل من مكانته ، فقد روى ابن جرير عن أبي بكر الحنفي قال : سمعت سفيان الثوري يقول : إذا جاءك التفسير عن مجاهد فحسبك به[1] .

٣ ـ عكرمة مولى ابن عباس

هو أبو عبد الله عكرمة البربري من بربر المغرب وثقه رجال الجرح والتعديل على الرغم مما نسب إليه ؛ وقيل فيه ، شهد له ابن حبان بالعلم في الفقه والقرآن . . .

كان يتمتع بفطرة نقية ، فقد روى عنه ابن حجر أنه بين لابن عباس بعض ما أشكل عليه من القرآن قال : روى ابن أبي هند عن عكرمة قال : قرأ ابن عباس قوله تعالى ﴿ لِمَ تَعِظُونَ قَوْمًا ٱللَّهُ مُهْلِكُهُمْ أَوْ مُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا ﴾[3] ـ قال ابن عباس : لم أدر أنجا القوم أو هلكوا ؟ قال : فما زلت أبين له حتى عرف أنهم نجوا فكساني حلة .

ولعل هذه الفطنة المتوفرة ، والحافظة الواعية ميزة عكرمة ، كانت وراء

---

(١) تفسير ابن جرير ١ / ٣٠

(٢) الاعراف / ١٦٤

شهرته في التفسير ؛ روى حبيب بن ثابت : أن مجاهدا وسعيدا أقبلا على عكرمة يسألانه عن التفسير فما سألاه عن آية الا فسرها لهما حتى اذا نفذ ما عندهما جعل يقول : أنزلت آية كذا في كذا وأنزلت آية كذا في كذا . واستفاضت هذه الشهرة حتى قال يحيى بن أيوب المصري : سألني ابن جريج : هل كتبتم عن عكرمة ؟ فقلت : لا . قال : فاتكم ثلثا العلم[1] . وقد توفى رضي الله عنه سنة ١٠٤ هـ .

٤ ــ عطاء بن أبي رباح

أحد رجال مدرسة مكة أدرك مائتين من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم تتلمذ على ابن عباس ، وروى عن ابن عمر ، وابن عمرو ، وانتهت إليه فتوى أهل مكة حتى توفى سنة ١١٤ هـ .

كان قليل الرواية في التفسير ، ولعل إقلاله منها كان راجعا الى تحرجه من القول في التفسير بالرأي ، فقد روى عبد العزيز بن رفيع : سئل عطاء عن مسألة فقال : لا أدري فقيل له : ألا تقول فيها برأيك ؟ قال : إني أستحي من الله أن يدان في الأرض برأيي[٤] .

رجال مدرسة المدينة

١ ــ أبو العالية الرياحي

من ثقات التابعين المشهورين بالتفسير ، أجمع على عدالته أصحاب الكتب الستة قيل فيه : ليس أحد بعد الصحابة أعلم منه بالقراءة .

---

(١) انظر تهذيب التهذيب ٧/١٩٩ ـ ٢٠٣

(٢) التفسير : د . الذهبي ١/١١٤

وقد روى أبو جعفر الرازي عن الربيع بن أنس عن أبي العالية عن أبي نسخة كبيرة من التفسير . توفى سنة ٩٠ هـ على الأرجح .

٢ ـ محمد بن كعب القرظي

روى عن علي وابن مسعود وابن عباس ، وروى عن أبي بالوساطة وهو من التابعين الثقات عند أصحاب الكتب الستة وقد اشتهر بكثرة الحديث وتأويل القرآن . قال عنه ابن عون ما رأيت أحداً أعلم بتأويل القرآن من القرظي[1] .

توفى رحمه الله تحت الهدم في مسجد كان يقص فيه سنة ١١٨ هـ .

٣ ـ زيد بن أسلم

مولى عمر بن الخطاب رضي الله عنه ، فقيه مفسر عرف بغزارة علمه بين معاصريه ، واشتهر بتفسير القرآن برأيه لا يتحرج من ذلك مقتديا بمن عرف من كبار الصحابة ، ولم يذهب في تفسيره بالرأي مذهبا بدعيا ، لذلك شهد له بالعدالة أصحاب السنن وأخذ عنه التفسير مالك بن أنس امام دار الهجرة وقد توفى عام ١٣٦ هـ .

رجال مدرسة الكوفة

١ ـ علقمة بن قيس

ولد في حياة الرسول صلى الله عليه وسلم ، روى عن كثير من الصحابة ،

(١) راجع خلاصة تهذيب الكمال / ٢٠٥

وأشهر رواياته عن ابن مسعود ؛ فكان أعرفهم به وأعلمهم بعلمه .

وكان رحمه الله ثقة مأمونا مشهودا له بالصلاح والورع قال عنه مرة الهمذاني :

لقد كان علقمة من الربانيين . وكانت وفاته رضي الله عنه سنة ٦٢ من الهجرة .

٢ ـ مسروق بن الأجدع

روى عن الخلفاء الأربعة وابن مسعود ، وأبي بن كعب يمتاز بعلمه وورعه وتقواه . روى شعبة عن أبي اسحاق قال : حج مسروق فلم ينم الا ساجداً .

لازم ابن مسعود فكان أعلم أصحابه بعلمه ، وقد حدث عنه فقال : كان ابن مسعود يقرأ علينا السورة ثم يحدثنا فيها ويفسرها عامة النهار .

وكان شريح القاضي يستشيره في معضلات المسائل التي تعرض له . . وقد توفى رحمه الله عام ٦٣ هـ

٣ ـ عامر الشعبي

أبو عمرو عامر بن شراحيل الشعبي قاضي الكوفة ، أدرك خمسمائة من الصحابة ، وسمع من ثمانية وأربعين منهم .

رزق حظا وافرا من العلم ، ونال إعجاب معاصريه . وكان ممن يتورعون عن التفسير بالرأى .

وكانت وفاته على الأرجح سنة ١٠٥ هـ .

٤ ــ الحسن البصري

من كبار التابعين المشهود لهم بالعلم والتقوى ، وحسن الموعظة حتى قيل عنه : إن كلامه يشبه كلام الأنبياء . وكان أنس بن مالك رضي الله عنه يقول عنه : سلوا الحسن فإنه قد حفظ ونسينا . لقب بشيخ البصرة لغزارة علمه بكتاب الله وسنة رسوله .

وروى حمادين سلمة عن حميد قال : قرأت القرآن على الحسن البصري ففسره على الإثبات ـ يعني إثبات القدر ـ وكان يقول : من كذب بالقدر فقد كفر . . وكانت وفاته سنة ١١٠ هـ .

٥ ــ قتادة بن دعامة السودسى

روى عن أنس وعكرمة وعطاء وابن مسعود ـ وكان قوي الحافظة واسع الاطلاع في الشعر ، وأيام العرب وأنسابهم خبيرا بأساليب العربية ومن هنا جاءت شهرته في التفسير وفاق أقرانه فلم يتقدم أحد عليه فيه ، قال عته أبو عمرو بن العلاء ـ لولا كلامه في القدر ـ ما عدلت به أحدا من أهل دهره .

وكانت وفاته رحمه الله تعالى سنة ١١٧ هـ .

الطابع العام لتفسير هذه المرحلة

تميز التفسير في هذه المرحلة لدى أصحاب هذه المدارس الثلاث بطابع خاص نجمله فيما يلي :

١ ــ كان مزيجا من التفسير بالرواية والدراية .

٢ ــ دخله كثير من الاسرائيليات عن طريق الرواية عن مسلمي أهل الكتاب من الديانتين السابقتين من اليهود والنصارى . . وان الأخذ عنهم ـ وإن كان ملحوظا في عصر الصحابة ـ الا ان الصحابة كانوا على حذر منه وتمحيص لما يروونه ـ على حين كان التابعون يتساهلون في روايته دون تحر أو نقد .

٣ ــ خاض بعض رجال هذه المدارس في بعض القضايا المذهبية كالقضاء والقدر ، فظهرت تفسيرات تحمل في طياتها نواة الخلاف المذهبي الذي اتسع نطاقه لدى تابعيهم من بعدهم .

٤ ــ كثرة الخلاف في هذه المرحلة لدى التابعين عما كان في عصر الصحابة في كثير من تفسيرهم لآيات القرآن ، وان كان اختلافهم في الأحكام أكثر منه في التفسير .

٥ ــ ظل التفسير على طابعه المعهود من عصر الصحابة يعتمد على التلقي والرواية ، ولم يدون منه شيء سوى ما ذكر عن مجاهد أنه كان يدون ما سمعه عن ابن عباس ، وهو عمل فردي لا يخرج بالتفسير عن طابعه العام من التلقي والرواية .

٦ ــ اختلف العلماء حول القيمة العلمية لتفسير التابعين فيرى أكثرهم عدم وجوب الأخذ به ، ولا يرون بأسا في رده ويعرف بالحديث (المقطوع) . قال أبو حنيفة : ما جاء عن رسول الله صلى الله عليه وسلم فعلى الرأس والعين ، وما جاء عن الصحابة تخيرنا ، وما جاء عن التابعين فهم رجال ونحن رجال ، ذلك لأن التابعين غير منصوص على عدالتهم كما نص على عدالة الصحابة رضي الله عنهم أجمعين .

ويذهب آخرون من العلماء إلى الأخذ بقول التابعين مطلقا لغلبة الظن أنهم تلقوه عن الصحابة ، والصحابة ممن يعتد بتفسيرهم .

ويتحفظ آخرون ازاء هذا الاطلاق ؛ فيرون أخـذ قولهم ممـا لا مجال فيـه للرأي . لعدم الريبة في نقله عن الصحابة ، كذلك ما أجمعوا عليه لقوته بالاجماع .

وعلى ضوء هذا الخلاف بين العلماء إزاء تفسير التابعين ، اختلف المفسرون من بعدهم في اعتبار أقوال التابعين من (المأثور) فابن جرير الطبري يعـده من المأثور ويأتي به في كتابه في نسق مع ما روى عن رسول الله وصحابته .

على حين يذهب كثير من المفسرين إلى اعتباره من التفسير بالرأي ولا حجة فيه وهذا مذهب ابن تيمية رضي الله عنه[1] .

---

(١) راجع مناهل العرفان ١/٤٩٠ ، التفسير : د . الذهبي ١/١٢٩

رابعا : التفسير في عصر التدوين

تمهيد

انقضى عهد الصحابة ، والتابعين ولم يدون شيء من التفسير سوى ما عرفنا من بعض المحاولات الفردية عند بعض التابعين ، وهي محاولات محدودة لم تخرج التفسير في هذين العهدين عن طابعه من التلقي والرواية .

بدء التدوين

حتى إذا استهل القرن الثاني الهجري ، وبدأ عصر التدوين مع أواخر عهد بني أمية ، وأوائل العصر العباسي ؛ كان الحديث النبوي من أول العلوم تدوينا ، جمعه ودونه رجال من أئمة الحديث بدءا من يزيد بن هارون السلمي (ت ١١٧ هـ) ، وانتهاء بعبد بن حميد (ت ٢٤٩) هـ . وكان التفسير اذ ذاك بابا من أبواب الحديث فدون ما جمع منه منسوبا الى النبي وصحابته غير مستقل بتدوين خاص .

وفي خلال تلك الفترة وقف عبد الملك بن جريج[1] ت (١٥٠) هـ جهده على جمع ما يتصل بالتفسير من هذه الآثار في كتاب عده بعض الباحثين أول كتاب ألف في التفسير بالمأثور .

فقد رويت عن ابن جريج أجزاء كثيرة في التفسير عن ابن عباس منها

(١) من أصل رومي نصراني يعد من أقطاب الاسرائيليات في عهد التابعين .

الصحيح ومنها ما ليس بصحيح ، ذلك لأنه لم يقصد الصحة فيها جمع بل روى ما ذكر في كل آية من الصحيح والسقيم .[٢]

ثم خطا التفسير خطوة أخرى انفصل فيها عن الحديث ليبرز علما مستقلا بذاته متجها نحو الشمول لآيات القرآن على ترتيب المصحف ، متوخيا طريقة جمع الأقوال على نحو ما انتهت إليه من طرق الإسناد قويها وضعيفها على حد سواء .

غير أن بعض رجال هذه المرحلة لم يقفوا عند حد جمع الروايات على علاتها ، بل أعادوا النظر فيها بالنقد والتمحيص ليميزوا الصحيح من السقيم مستعينين بما اتصل بهذه الروايات من تعليقات نقدية كانت متداولة قبل عصر التدوين . وأضافوا إلى تلك التعليقات النقدية المروية إليهم عناصر أخرى في نقد تلك الآثار وتمحيصها .

منها (القراءة) لضبط اللفظ وتحقيق حروفه ، وكان رجحان قراءة من قراءتين يرجح أحد المعنيين في تفسير الآية .

ومنها (الاعراب) لتحليل التركيب القرآني وبيان مواقع المفردات بعضها من بعض ليصلوا إلى المعنى المستفاد من خلال التركيب ومواقع مفرداته .

وبهذا تحصل لهم عن طريق النقد والتقدير ، والاسقاط والتحصيل ، أو الجمع والتأويل حكم موضوعي فاصل بين الروايات بحسب اجتهادهم .

وقد نبه الشيخ محمد الفاضل بن عاشور إلى أن أول سابق إلى هذا المنهج هو :

---

(١) راجع شذرات الذهب ١/٢٢٦ ، وقارن : التفسير للذهبي ١/١٩٩

وهو تميمي بصري إفريقي ت (٢٠٠) هـ ألف تفسيره بالقيروان في ثلاثة مجلدات ضخمة ، وقد بناه على إيراد الأخبار مسندة ، ثم تعقبها بالنقد والاختيار ، فبعد أن يورد الأخبار المروية مفتتحا إسنادها بقوله (حدثنا) ، يأتي بحكمه الاختياري مفتتحا بقوله : (قال يحيى) ويجعل مبنى اختياره على المعنى اللغوي والتخريج الإعرابي ، ثم يتدرج من اختيار المعنى إلى اختيار القراءة التي تتفق مع المعنى .

وقد تلقى هذا التفسير عن مؤلفه فقيه افريقيا أبو داود العطار ت (٢٤٤ هـ) .

وثقة ابن الجزري وشهد بأنه كتاب ليس لأحد من المتقدمين مثله . وقال عنه أبو عمر والداني : ليس لأحد من المتقدمين مثل تفسير ابن سلام .

وأشار ابن عاشور إلى أنه توجد منه نسخة عظيمة القدر بتونس حصل التعريف بها منذ ستين سنة ، وأخذت عنها صور لمعهد المخطوطات العربية وكثير من دور الكتب في المشرق والمغرب .

ومن ثم كان خطأ شائعا وقع فيه كثير من الكاتبين حديثا في التفسير أن ينسبوا هذا المنهج إلى ابن جرير الطبري (ت ٣١٠) هـ ، ويضربون المثل فيه بكتابه (جامع البيان عن تأويل القرآن) متجاهلين ابن سلام الذي يعد بحق مؤسس طريقة التفسير الأثري النظري في القرن الثاني وما ابن جرير الطبري إلا ربيب تلك الطريقة وثمرة ذلك الغراس[1] .

---

(١) راجع التفسير ورجاله : ابن عاشور / ٢٨ ، ٣٠

ويستهل القرن الثالث فيكثر التأليف في التفسير . وان كان لم يتجاوز بـه حدود المأثور إلا أنه كان خليطا من الصحيح والعليل والمأثور والموضوع ، والأصيل والدخيل مما أفقد الثقة به والاطمئنان إليه ، فـاستخف الناس بتلك الأخبـار ، وزيفوها واستخفوا تبعا لذلك بهذا المنهج من التفسير ، وأعرضوا عنه .

ووجد المعتزلة في التفسير بالرأي مندوحة عن التفسير بالأثر وقد مكن لهم وضع التفسير الأثري من النيل منه ، ونقد رجاله بسبب ما شاع بين الناس من ضعيف الأسانيد وسقيمها .

ويحمل النظام ت (٢٢١) هـ على اعلام التفسير بالأثر فيقول فيما يرويه عنه الجاحظ : لا تسترسلوا إلى كثير من المفسرين وإن نصبوا أنفسهم للعامة وأجابوا في كل مسألة ، فإن كثيرا منهم يقول بغير رواية ، على غير أساس . . . وليكن عندكم عكرمة ، والكلبي ، والسدى والضحاك ، ومقاتل بن سليمان في سبيل واحـدة فكيف أثق بتفسيرهم وأسكن إلى صوابهم[1] .

دور البخاري

وفي خضم هذا الصراع بين أهل الأثر وأهل النظر ، ظهر من بين أهل الأثر الإمام محمد بن إسماعيل البخاري ت (٢٥٦ هـ) ، يحاول تقوية حصون التفسير بالأثر وتمتين أسسه ، وإزاحة عوامل التداعي والوهن عنه ، حتى يتمكن من الثبات في وجه الهجمة الشرسة التي شنها عليه أهل النظر ، فجعل أساس عمله في التفسير اللغة بتحقيق معاني الألفاظ المحتاجة إلى بيان ، وضبط مراجع اشتقاقها ومواقع

---

(١) راجع دراسات في القرآن : د . السيد أحمد خليل / ١١٨ ، والتفسير لابن عاشور / ٤٣ نقلا عن مصدره .

استعمالها ، وتحرى ما هو مأثور عن الصحابة أو مرفوع للنبي صلى الله عليه وسلم من قول في معاني الآيات بجعله معلقا على الثبوت من طرق ثبوت الحديث عنده بشروطه الدقيقة في المتن والاسناد ، فان ورد بذلك الطريق التزمه وحدّث به بأسانيده ، وإلا أبقاه على تعليقه غير ملتزم الأخذ به ؛ كما فعل ذلك بالنسبة إلى أخبار السنة . .

وقد ألف على هذا المنهج تأليفا مستقلا سماه (التفسير الكبير) وقد ذكره صاحب (كشف الظنون) وإذا كان هذا التفسير لم يصل الينا ، فقد وصل إلينا من عمل البخاري هذا في التفسير ما اشتمل عليه (جامعه الصحيح) من كتاب التفسير الذي رتبه على سور القرآن .

وبذلك رد البخاري للتفسير بالمأثور اعتباره وأعاد إليه قداسته وحرمته بحصر الأحاديث المعتد بها في التفسير ، وطرح ما عداها مما لا يسع المفسر أن يرد صحيحه ، أو يقبل سقيمه .

غير أن الصحيح من تلك الأحاديث كان قليلا ، مما أفسح مجال النظر والتأويل على نسبة ما ضاق من مجال الرواية بالمأثور[1] .

ابن جرير الطبري ت (٣١٠) هـ

وأفاد ابن جرير الطبري من عمل البخاري بالتزامه الرواية بالاسناد ونقدها ، وحذا حذو ابن سلام في منهجه الجامع بين الأثر والنظر ، فكان فريدا بين معاصريه من أمثال ابن ماجه (ت ٢٧٣ هـ) وأبي بكر بن المنذر النيسابوري (ت

---

(١) راجع التفسير ورجاله / ٤١

٣١٨ هـ) ، وابن أبي حاتم (ت ٣٢٧ هـ) وابن حيان ت (٣٦٩ هـ) ، وغيرهم ممن قصروا عملهم في التفسير على المأثور من الرواية عن الرسول والصحابة والتابعين .

وأعان ابن جرير على تفرده بين علماء عصره سعة علمه بالقراءات ، والتفسير ، والفقه ، والحديث ، والتاريخ ، حتى قال فيه الخطيب البغدادي : جمع من العلوم ما لم يشركه فيه أحد من أهل عصره .

وكان جديرا بالتفسير حين يتناوله ابن جرير بهذه المشاركة الواسعة أن يبلغ به أوجه من الكمال ، فجاء كتابه (جامع البيان عن تأويل القرآن) نقطة تحول في تاريخ التفسير بما درج عليه في تحقيق دلالات القرآن الكريم ، والافصاح عن معانيه ، بصورة محكمة ، وطريقة واضحة المعالم ، تركت آثارها على كل ما ظهر بعده من كتب التفسير ، وكان كما قال عنه السيوطي - أجل التفاسير وأعظمها .

خصائص تفسيره

ويمتاز تفسير ابن جرير الطبري بعدة خصائص نجملها فيما يلي :

١ ـ يفسر الآية ويفصح ببيانه عن المعنى المراد معتمدا ربط السياق ، والعود بمراجع الكلام إلى معاقدها الواردة في مواضع أخرى من القرآن .

٢ ـ يعتمد في استنباط المعنى على الاستعمالات اللغوية للألفاظ ببيان المعنى الأصلي للفظ ، والمعنى المنقول إليه ، والعلاقة بين المعنيين ، والاستشهاد بالشعر العربي على ما يثبت استعمال اللفظ في المعنى الذي حمله عليه[٢] .

---

(٢) انظر تفسيره للآية ٢٢ / البقرة

٣ ـ يدعم ما يذهب إليه من معنى الآية بمايرويه بسنده عن الصحابة أو التابعين من التفسير المأثور عنهم في هذه الآية .

٤ ـ عند اختلاف المأثور يقسم الآراء ويضع تحت كل رأي مروياته ، ثم يعقب عليها بالنقد ، ويرجح منها ما يراه أهلا للترجيح ، وقد يردها كلها وينص على ما يراه هو[١] .

٥ ـ يرفض من آراء المفسرين ما يعتمد فيه المفسر على رأيه دون الرجوع إلى المأثور في مثله ، ويخطئه لمخالفته أهل العلم من الصحابة والتابعين[٢] .

٦ ـ يجعل من إجماع الأمة دليلا على صحة ما يذهب إليه من تفسير اذا لم يتعين المراد من النص[٣] .

٧ ـ يعنى بذكر القراءات وينزلها على المعاني المختلفة ، ولا يعتد منها الا بما عليه قراء الأمصار المعول عليهم في الاحتجاج[٤] .

٨ ـ يكثر ابن جرير من الاحتكام إلى ما هو معروف من لغة العرب ومن التعرض للمذاهب النحوية بقدر ما تدعو إليه حاجة التفسير[٥] .

٩ ـ يكثر من الإسرائيليات في تفسير آيات القصص ، وغالبا ما يذكر سنـده في النقل ، وقد يعقب على بعض الروايات بالنقد وقد يتساهل في بعضها ، ولعله يرى في ذكر السند مع كل رواية يرويها ما يبرىء ذمته ، ويلقي بالتبعة على

---

(١) انظر تفسيره للآية ٢٣٢ / البقرة .
(٢) انظر تفسيره للآية ٤٩ / يوسف
(٣) انظر تفسيره للآية ٢٣٠ / البقرة
(٤) انظر تفسيره للآية ٨١ / الأنبياء .
(٥) انظر تفسيره للآية ١٤٠ / هود . ١٨/ ابراهيم

المنقول عنه[1] .

١٠ ـ يعالج كثيرا من القضايا الفقهية ، ويتعرض لكثير من المسائل الكلامية ، ويتصدى للرد على المذاهب المنحرفة التي تخالف تعاليم أهل السنة[2] .

تلك هي معالم منهج ابن جرير الطبري في تفسيره ، يمتزج فيه النظر بالأثر . ومن ثم كان مرجعا لدى المعنيين بالتفسير النقلي ، والمعنيين بالتفسير العقلي على حد سواء . وليس من الصواب أن يعد مثالا للتفسير بالمأثور فحسب .

وربما كان عذر الذين قصروه على التفسير بالمأثور نظرتهم العجلى إلى ظاهره ، أما النظرة المتأنية في طريقته وغايته فإنها لتذهب به إلى جانب النظر أكثر من جانب الأثر . .

مرحلة التشعيب

إذا كان الطبري ممن جمع بين التفسير بالنظر والأثر على نحو ما قدمنا ، فقد عاصره أوقفاه رجال من أهل التفسير انشعب التفسير على أيديهم إلى شعبتين :

١ ـ شعبة استقلت بالتفسير العقلي (النظري) وهم من المعتزلة من أمثال أبي علي الجبائي ت (٣٠٢)هـ، وأبي مسلم الأصفهاني ت (٣٢٢) هـ، إلى الشريف المرتضي ت (٤٣٦) هـ

٢ ـ وشعبة تمسكت بالتفسير المأثور ؛ لكن جهودهم تقاصرت دون منهج ابن جرير

---

(١) انظر الآية ٧/الاسراء ، ٩٤ / الكهف

(٢) انظر الآية ٨/النحل ، ٧/الفاحة ، ٦٤/المائدة ، ٦٧/الزمر .

الطبري ، فاكتفوا برواية المأثور دون إسناد مفصل ، أو محقق .

وكان الأثريون فريقين :

فريق كان قليل البضاعة في الحديث لايميز بين الصحيح والموضوع ، ويكثر من النقل دون إسناد ، ويكثر من الإسرائيليات دون تعقيب ويمثل هذا الفريق (أبو اسحق الثعلبي) .

وفريق كان من المحدّثين المتقنين ، لايذكر من الأحاديث إلا الصحاح ويتحرى في المنقول ـ وإن ذكر بدون إسناد ـ أصوب الآراء ، وأدناها إلى القبول . ويمثل هذا الفريق (أبو محمد بن مسعود البغوي) .

الثعلبي وكتابه (الكشف والبيان عن تفسير القرآن) :

هو أبو اسحق أحمد بن إبراهيم الثعلبي ت (٤٢٧) هـ قال عن نفسه : (اختلفت إلى العلماء منذ الصغر ، واجتهدت في البحث والدرس حتى رزقني الله ما ميزت به الحق من الباطل ، والمفضول من الفاضل ، والبدعة من السنة ، والحجة من الشبهة . .

ووجدت في كتب السابقين عليّ خلطا بين اباطيل المبتدعين وأقوال السلف الصالحين ، أو نقلا بدون دراية ، أو جمعا بين الغث والسمين ، والواهي والمتين ، أو إطالات مملولة ، وروايات مكرورة .

ورغب الناس إليّ أن أخرج لهم تفسيرا شاملا مهذبا ، ملخصا مفهوما فكان كتابي (الكشف والبيان عن تفسير القرآن) .

وحاكمه الناظِرون في تفسيره إلى ماحدّث به ؛ فكان أبعد مايكون عما قال ، سوى أنه اختصر الأسانيد . وفيما عداها فقد أسهب في عرض المسائل النحوية ،

واستطرد في شرح الكلمات اللغوية ببيان أصولها وتصاريفها والاستشهاد عليها[1] .

وتوسع في الأحكام الفقهية فيذكر اختلاف الأقوال وأدلتها على نحو مبسوط يخرج به عن المقصود من التفسير[2] .

ويكثر من الاسرائيليات دون تعقيب مع مافيها من الغرابة والاستبعاد[3] .

وهو فوق ذلك لم يتحر الصحة في كل ما نقل من تفاسير السلف فأكثر الرواية عن الضعفاء ، ولم يميز بين حديث صحيح أو موضوع وجر بذلك على نفسه اللوم المرير والنقد اللاذع ؛ قال فيه ابن تيميه : كان حاطب ليل ينقل ماوجد في كتب التفسير من صحيح ، وضعيف ، وموضوع .

وقال فيه الكتاني : ليس له كبير بضاعة في الحديث ، وفي تفسيره أحاديث موضوعة ، وقصص باطلة[4] .

البغوي وكتابه (معالم التنزيل)

هو الإمام أبو محمد الحسين بن مسعود البغوي ت (٥١٠) هـ إمام التفسير والحديث ، صنف كتابه (معالم التنزيل في التفسير) بلفظ سهل موجز ينقل ماجاء عن السلف في تفسيرهم بدون أن يذكر السند اكتفاء بما ذكره في مقدمته من

(١) انظر تفسيره للآية ٩٠ ، ١٧١/ البقرة .
(٢) انظر الآيات ١١ ، ٢٤ ، ٣١ ، ٤٢ من سورة النساء .
(٣) انظر الآية ١٠ ، ٩٤/ الكهف .
(٤) قارن بكتاب التفسير : للذهبي ١/٢٢٧ ـ ٢٣٤ .

ذكر إسناد من يروى عنهم ، وحينا يذكر السند إذا لم يكن الراوي ممن أشار إليهم في المقدمة .

وكان بحكم كونه من رجال الحديث يتحرى الصحة فيما يسنده إلى الرسول صلى الله عليه وسلم ، ويعرض عن المناكير ، ويذكر من القراءات ما يتصل بالمعنى ، ويتحاشى الإكثار من الإعراب ونكات البلاغة ولايلم بشيء من ذلك إلا بقدر ما يحتاج إليه الكشف عن المعنى

ويؤخذ عليه ذكره لبعض الروايات الضعيفة وبعض الاسرائيليات دون تعقيب عليها[1] ، ولا يتدخل في خلاف الروايات بترجيح أو تضعيف قال عنه الخازن : ومعالم التنزيل من أجل المصنفات في علم التفسير وأعلاها ، وأنبلها وأسناها ، جامع للصحيح من الأقاويل عار عن الشبه والتصحيف والتبديل . .

وهو في جملته أحسن وأسلم من كثير من كتب التفسير بالمأثور . .[2]

المعتزلة والتفسير بالرأي

كان من شعب التفسير في هذه المرحلة شعبة التفسير العقلي وكان روادها من المعتزلة الذي مضوا قدما يدفعون التفسير بالرأي لمصادمة التفسير بالأثر والنيل منه .

ويرجع الارتباط الظاهر بين نشأة التفسير العقلي وبلوغه أشده ، وبين المعتزلة إلى أصول المذهب الاعتزالي الذي تكون منذ اعتزل واصل بن عطاء ت (١٣١) هـ مجلس الحسن البصري لانفراده برأي في مرتكب الكبيرة وتابعه عليه آخرون .

(١) انظر تفسيره للآية ٢٥١/ البقرة

(٢) قارن بكتاب التفسير د. الذهبي ١/ ٢٣٦ - ٢٣٨

وسرعان ما انتشر مذهبهم وتكونت للاعتزال مدرستان إحداهما بـالبصرة وعلى رأسها واصل بن عطاء ، والأخرى ببغداد وعلى رأسها بشـر بن المعتمر ، وأجمعت المدرستان على أصول خمسة ـ على الرغم مما بينهما من خلاف وجدال في بعض المسائل .

والأصول الخمسة للمذهب الاعتزالي هي : التوحيد ، والعدل ، والوعد والوعيد ، والمنزلة بين المنزلتين ، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر .

وهذه الأصول الخمسة في مفهومها وما يترتب عليها ليست موضع اتفاق مع مذهب أهل السنة والجماعة .

لهذا كان ضروريا للمعتزلة أن يرجعوا إلى القرآن يؤيدون بتأويله مذهبهم ، ويدفعون به حجة خصومهم بمقتضى فهمهم لقوله تعالى ﴿ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُۥٓ إِلَّا ٱللَّهُ وَٱلرَّٰسِخُونَ فِى ٱلْعِلْمِ ﴾ . وكان التأويل بابا يلجون منه إلى تقليب أوجه دلالة القرآن على ما يحتملونه له من المعاني .

وأعانهم رسوخ قدمهم في علم العربية ، وطول باعهم في العلوم الحكمية أن يبلغوا من التأويل مبلغا عجيبا ، حملهم على الغرور بادعائهم أن آلة التأويل وقف عليهم ، ولا يُحسن غيرهم أن يتعاطاها ، وقد أوردتهم العصبية المذهبية مسالك التعسف في التأويل كلما كـانت ظواهـر النصوص تصـادم مذاهبهم الاعتقـادية كالتنزيه المطلق ، والعدل ، وحرية الإدارة ، وفعل الأصلح وما إلى ذلك . .

وظهرت لهم في ساحة التفسير آراء تضمنتها كتبهم ـ وان كان معظمها قد ضاع بتقادم العهد عليه .

والمتصفح لطبقات المفسرين يجد من بينهم مفسرين من المعتزلة أمثال أبي بكر

بن الأصم ت (٢٤٠هـ)، والجبائي ت (٣٠٣هـ) ، وأبي القاسم البلخي ت (٣١٩هـ) وأبي هاشم بن أبي علي الجبائي ت (٣٢١هـ) ، وأبي مسلم الأصفهاني ت (٣٢٢هـ) ، وأبي الحسن الرماني ت (٣٨٤هـ) ، وعبيد الله بن جرو الأسدي ت (٣٨٧هـ) والقاضي عبد الجبار ت (٤١٥هـ) ، والشريف المرتضى ت (٤٣٦هـ) وعبد السلام القزويني ت (٤٨٣هـ) . وابي القاسم بن عمر الزمخشري ت (٥٣٨هـ) . .

وتصدي أهل السنة لنقد آرائهم في التفسير ، فتناولها ابن قتيبة ت (٢٧٦هـ) بالتفنيد والنقد اللاذع في كتابه (تأويل مختلف الحديث) .

ورد كثيرا منها ابن جرير الطبري ت (٣١٠هـ) في تفسيره . . وجاء أبو الحسن الأشعري إمام أهل السنة ت (٣٢٤هـ) فأنشأ الطريقة السنية الكلامية ينقض بها مذهب المعتزلة . ومنذ ذلك الحين بدأ أهل السنة يجاذبون المعتزلة أعنة البحث والنظر ، وبدا ولونهم ميادين الكلام والتأويل ، بتمكنهم من علم الكلام ، وانتزاعهم زمام فن البلاغة على يد الإمام السني عبد القاهر الجرجاني ت (٤٧١هـ) فردوا بمحامل القرآن الصحيحة تعسف المعتزلة في التأويل .

وشهد القرن الخامس الهجري لأعلام المفسرين من أهل السنة جولة ظاهرة في النقد والتقويم استكان لها المعتزلة ولم يبدوا حيالها سوى ماكان من أمر الزمخشري في كشافه من دفاع عن تراث موروث . .

التفسير بالرأي : بين المحمود والمذموم

وبهذه الهبة السنية في امتلاك زمام التفسير بالرأي ، وانتزاع سلطانه من أيدي المعتزلة زاحم التفسير بالرأي التفسير بالمأثور وبدا للعلماء رأي فيه ، على خلاف

بينهم بين مانع ومجيز ، وللمجوزين منهج وشروط . .

.ولعل في تعريف التفسير بالرأي مايمهد لاستيضاح وجهات النظر فيه .

تعريفه : هو تفسير القرآن بالاجتهاد

وهذا التعريف بهذا الإطلاق يشير إلى أن الرسول صلى الله عليه وسلم يعتبر مفسرا بالرأي فيمالم يقف عليه بعلم من ربه ، وكذلك الصحابة رضوان الله عليهم يعتبرون مفسرين بالرأي فيما لم يقفوا على علمه من الرسول صلى الله عليه وسلم ، وكذلك يعتبر التابعون مفسرين بالرأي فيما لم يقفوا عليه من علم الصحابة . .

وبانتهاء عصر الصحابة أصبح المنقول عن النبي والصحابة معا يشكل في عرف المفسرين ما اصطلح على تسميته (بالأثر) ويسمى التفسير القائم عليه أو الغالب فيه (تفسيراً بالمأثور) إلى يوم الناس هذا ويرجع تخصيص هذه الأقوال بالمأثورات لعصمة النبي صلى الله عليه وسلم ، ولعدالة الصحابة رضوان الله عليهم أجمعين .

وما عدا (المأثور هذا) يسمى رأيا واجتهادا من لدن عصر التابعين إلى ما شاء الله ، ويسمى التفسير القائم عليه فحسب ، أو يغلب فيه على المأثور (تفسيراً بالرأي) وهذا هو موضوع الخلاف بين العلماء في المنع والجواز .

آراء العلماء فيه :

وافترق العلماء حياله فريقين :

فريق يمنع التفسير بالرأي مطلقا ، ويرى أن ما أثر عن الصحابة مرفوعا أو موقوفا كاف ، فضلا عن أنه آت عن معصوم أو عدول شاهدوا من القرائن

والأحوال ما أعانهم على الفهم التام والعلم الصحيح ، وليس لسواهم ذلك .

ويستأنسون فيما ذهبوا إليه بماكان من تحرج الصحابة والتابعين في تفسيره ـ مع مالهم من علم ـ فهذا أبو بكر رضي الله عنه : يقول : أي سماء تظلني ، وأي أرض تقلني إذا أنا قلت في القرآن برأيي ، أو بما لا أعلم .

وهذا مجاهد يبكي حين قيل له : أأنت الذي تفسر القرآن برأيك ؟ ثم قال : إني إذا لجريء .

وهذا سعيد بن المسيب كان إذا سئل عن الحلال والحرام أجاب ، وإذا سئل عن تفسير آية سكت وكأن لم يسمع .

ويعززون رأيهم بما روي عن النبي من التحذير عن القول في القرآن بالرأي كقوله صلى الله عليه وسلم من حديث ابن عباس (من قال في القرآن برأيه فليتبوأ مقعده من النار) .

وكقوله من حديث جندب (من قال في القرآن برأيه فأصاب فقد أخطأ) .

كما رأوا في التفسير بالرأي قولا على الله بغير علم ، وهو منهى عنه بقوله تعالى ﴿ قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ ٱلْفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَٱلْإِثْمَ وَٱلْبَغْيَ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَأَن تُشْرِكُوا۟ بِٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ سُلْطَٰنًا وَأَن تَقُولُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٣٣﴾ ﴾[1]

وفريق يجيز التفسير بالرأي على شروطه ، ويحمل تحرج الصحابة والتابعين على شدة ورعهم مخافة ألا يصيبوا الحق فيما يقولون على الله ؛ والورع ترك مالا بأس به حذرا من الوقوع فيما فيه بأس . . أو أن إحجامهم كان مقيدا بمالم يعرفوا وجه

(١) الأعراف / ٣٣ .

الصواب فيه ، وماعداه فلابأس به ولو بطريق الظن ، فالله لايكلف نفسا إلا وسعها ، وقد صح عن سيدنا أبي بكر رضي الله عنه أنه فسر الكلالة برأيه ، وقال : إن أصبت فمن الله ، وان أخطأت فمني ومن الشيطان . .

أما الأحاديث الواردة في التحذير منه فمحمولة على القول في مشكل القرآن أو متشابهه مما لايعلم إلا بالنقل ، أو أن النهي منصب على الرأي الجانح مع الهوى ، أوالمجافي للمأثور ، أو العاري عن الدليل المقبول . فضلا عما قيل في حديث جندب من أنه حديث منكر .

أما اعتبارهم أن التفسير بالرأي قول على الله بغير علم فليس كذلك ؛ لأن الظن نوع من العلم كاف في الأمور الاجتهادية التي لم يرد فيها نص صريح .

ويعزز المجيزون رأيهم ـ بعد ذلك ـ بأن القرآن دعا إلى تدبر آياته في قوله تعالى ﴿كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ مُبَٰرَكٌ لِّيَدَّبَّرُوٓاْ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾(1) ولا يتأتى تدبره إلا بفهمه ولا يفهم إلا بتفسيره

كما دعا إلى استنباط أحكامه في قوله تعالى ﴿ وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى ٱلرَّسُولِ وَإِلَىٰٓ أُوْلِي ٱلْأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ ٱلَّذِينَ يَسْتَنۢبِطُونَهُۥ مِنْهُمْ ﴾(2) مما يدل على أن في القرآن ما يستنبطه أولو الألباب باجتهادهم ويصلون إليه بإعمال عقولهم ، وإذا كان كذلك فكيف يعقل أن يكون تأويل مالم يستأثر الله بعلمه محظورا على العلماء ؟

كما أن التفسير بالرأي مناط الاجتهاد في استنباط الأحكام فلولم يكن جائزا ؛ لما كان الاجتهاد جائزا لتوقفه عليه ، والاجتهاد مصدر من مصادر التشريع ، حث عليه النبي ، والمجتهد في حكم الشرع مأجور أصاب أو أخطأ .

(1) ص / ٢٩
(2) النساء / ٨٣

وأكثر العلماء على جواز التفسير بالرأي ، غير أنهم حدّوا له منهجا ، واشترطوا له شروطا نجملها فيما يلي .

منهج التفسير بالرأي

١ ــ أن يرجع المفسر إلى القرآن فيفسر مجمله بمفصله ويرد متشابهه إلى محكمه ، ويحمل مطلقه على مقيده .

٢ ــ أن يأخذ في تفسيره بما صح عن النبي صلى الله عليه وسلم أو أحد أصحابه لما للصحابة من علم بكتاب الله ودراية بأسراره ، وأسباب تنزيله .

٣ ــ أن يعتمد على دلالة اللغة في الاستعمال الغالب في لسان أهلها ، مع مراعاة المعنى الحقيقي ، والمعنى المجازي ليأخذ بأي المعنين انسب للمقام . .

٤ ــ أن يلاحظ ما يقتضيه السياق من معنى الكلام ، وتناسب الآيات وفق قانون الشريعة ، لينزل كلام الله على المعروف من تشريعه .

٥ ــ أن يطابق التفسير المفسر على ماهو معروف من علوم الكون وسنن الاجتماع ، وتاريخ البشر العام ، وتاريخ العرب الخاص أيام نزول القرآن ، وعلى الصحيح من هدي النبي وسيرته . .

٦ ــ أن يستعين بأسباب النزول في تحديد المعنى المراد ؛ فإن العلم بالسبب يورث العلم بالمسبب ، دون قصر الآية على السبب ، بل العبرة بعموم اللفظ لابخصوص السبب .

٧ ــ أن يرعى قانونَ الترجيح عند الاحتمال ، وهذا القانون ـ كما نقله السيوطي عن البرهان ـ يتلخص فيما يأتي :

أ ــ كل لفظ احتمل معنين فصاعدا ، فان كان أحدهما أوضح وجب الحمل عليه ، إلا أن يقوم دليل على إرادة غيره .

ب ــ إذا تساويا والاستعمال فيهما حقيقة ، لكن في أحدهما حقيقة لغوية أوعرفية ، وفي الآخر حقيقة شرعية فالحمل على الشرعية أولى ، إلا أن يدل دليل على إرادة اللغوية كما في قوله تعالى ﴿ وَصَلِّ عَلَيْهِمْ إِنَّ صَلَوٰتَكَ سَكَنٌ لَّهُمْ ﴾ . ولو كانت في أحدهما عرفية ، والآخر لغوية ، فالحمل على العرفية أولى .

جـ ــ إن اتفقا في ذلك أيضا ، فإن تنافي اجتماعهما ولم يمكن إرادتهما باللفظ الواحد (كالقرء) للحيض والطهر ، اجتهد في المراد منهما بالأمارات الدالة عليه ، فما ظنه فهو مراد الله تعالى في حقه . وان لم يظهر له شيء قيل يتخير أيهما شاء ، وقيل يأخذ بالأغلظ حكما ، وقيل بالأخف . . أقوال . وإن لم يتنافيا وجب الحمل عليهما عند المحققين ، ويكون ذلك أبلغ في الإعجاز والفصاحة ، إلا إن دل دليل على إرادة أحدهما[1] .

شروط المفسر والعلوم المعينة له

اشترط العلماء في المفسر الذي يريد أن أن يفسر القرآن برأيه شروطا وحددوا له علوما تعينه على ذلك وهي كما يلي :

١ ــ اللغة . أن يكون عالما بلغة القرآن علما واسعا يمكنه من شرح مفردات الألفاظ وبيان مدلولاتها بحسب الوضع قال مجاهد : لا يحل لأحد يؤمن بالله واليوم الآخر أن يتكلم في كتاب إذا لم يكن عالما بلغات العرب .

(١) الاتقان ٢ / ١٨٢ نقلا عن مصدره

٢ ـ قواعد اللغة من نحو وصرف واشتقاق ، لأن المعاني تختلف باختلاف الإعراب ، والتصريف والاشتقاق .

٣ ـ علوم البلاغة ، ليقف على خواص التراكيب البلاغية من تقديم وتأخير ، وقصر ، وفصل ووصل ، وخبر وإنشاء وإيجاز وإطناب ، ومطابقة كل ذلك لمقتضى الحال وغير ذلك مما يعين على تحديد المعاني الثانوية في النص القرآني . كذلك ، ليقف على وجوه الإعجاز البلاغي في القرآن من خلال تشبيهاته واستعاراته ، وكناياته وتحديد المعاني الحقيقية من المعاني المجازية ، ومعرفة وجوه تحسين الكلام من رعاية الفواصل ، والجناس ، والمقابلة .

٤ ـ علم أصول الدين وهو (علم الكلام) لمعرفة الاستدلال على ما يجب في حق الله وما يجوز ، وما يستحيل ، وليتسنى له أن ينظر في الآيات المتعلقة بالنبوات ، والمعاد نظرة صائبة .

٥ ـ علم أصول الفقه لمعرفة كيفية استنباط الأحكام من الآيات من خلال وقوفه على المجمل والمبين ، والعام والخاص ، والمطلق والمقيد ، ودلالة الأمر والنهي .

٦ ـ علوم السنة دراية ورواية لمعرفة درجات الحديث من الصحة وما يقدح فيه من علل وشذوذ ، والإلمام الواسع بنصوص الأحاديث ليستعين بها على توضيح ما يشكل عليه .

٧ ـ علم الموهبة ، وهو علم فيما يبدو أنه ليس مقدوراً للبشر إلا بتوفيق الله ، ولا يتأتى إلاّ لتقي لقوله تعالى ﴿ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَيُعَلِّمُكُمُ ٱللَّهُ ﴾ ، وعامل بعلمه لقوله صلى الله عليه وسلم (مَنْ عمل بما علم ورثه الله علم ما لا يعلم) . .

التفسير المحمود

ورأى العلماء أن التزام هذا المنهج واستيفاء تلك الشروط يجعل تفسير المفسر الملتزم بها تفسيرا محمودا ، مقبولا .

التفسير المذموم

ورأى العلماء أن أي إخلال بهذا المنهج أو نقص في هذه الشروط كأن يخوض فيها استأثر الله بعلمه ، أو يسير مع هواه دون موافقة الشرع أو المأثور ، أو يحمل كلام الله على مذاهب فاسدة ، فعل أهل الجهالة والضلال ، يجعل التفسير مذموما غير مقبول .

واستطاع العلماء من خلال النظر في كتب التفسير بالرأى المختلفة ، ومحاكمتها إلى هذا المنهج وتلك الشروط إلتزاما أو إخلالا ، أن يميزوا بين المحمود منها والمذموم . .

وقد مثلوا للمحمود منها بالتفاسير الآتية :

١ ــ مفاتيح الغيب	للفخر الرازي ت ٦٠٦ هـ
٢ ــ أنوار التنزيل	للبيضاوي ت ٦٩١ هـ
٣ ــ مدارك التنزيل	للنسفي ت ٧٠١ هـ
٤ ــ لباب التأويل	للخازن ت ٧٤١ هـ
٥ ــ البحر المحيط	لأبي حيان ت ٧٤٥ هـ
٦ ــ روح المعاني	للألوسى ت ١٢٧٠ هـ

وقد مثلوا للمذموم منها بتفاسير الطوائف والفرق المختلفة كتفاسير المعتزلة ،

وتفاسير الشيعة ، ومنهم الباطنية والبابية والبهائية ، وتفاسير الصوفية ، وتفاسير الفلاسفة .

ولئن أعجلنا البحث عن تفصيل القول في كل منها ، فلا مناص من أن نلم ببعضها في إشارة موجزة لنقف من خلالها على أسباب حمد ما كان منها محمودا ، وأسباب ذم ما كان منها مذموما .

١ ـ مفاتيح الغيب

مؤلفه هو أبو عبدالله محمد بن عمر الرازي ، الملقب بفخر الدين ، ت (٦٠٦هـ) إمام عصره ، ومتكلم زمانه ، طار صيته ، وذاعت شهرته فكان مقصد الرجال من مختلف الأقطار ، كاد له أعداؤه فدسوا له السم فمات على أثره ودفن بالريّ مسقط رأسه . . .

آمن الفخر الرازي بأن الحكمة القرآنية أسمى وأسلم من جميع الطرائق الكلامية والمذاهب الفلسفية ، ولئن كان المعتزلة قد آمنوا بالفلسفة اليونانية فإنهم قد حجبوا عن الوصول إلى أسرار القرآن ، وأصبح مبلغهم في تفسيره تحقيق اعاريبه ، وتحليل تراكيبه ، لذلك دعا الناس أن يغوصوا على منابع القرآن ليفجروا منها سيولا فياضة يستطيعون أن يغترفوا منها حكمة صافية هي روح الهداية التي جاء القرآن ينير بها العقول ، ويشرح لها الصدور[١] .

واستطاع من خلال منهجه أن يبرز في جلاء نواحي الإعجاز العلمي والإعجاز الغيبي بجانب ما استأثر به المعتزلة من بيان الإعجاز البلاغي ، فعمت به

(١) التفسير ورجاله : ابن عاشور /٧٢ ، ٧٣ .

حجة إعجاز القرآن جميع أهل العقول والمعارف من العرب وغيرهم مهما اختلفت بهم اللغات .

وكانت طريقته أن يأخذ في بيان معنى الآية واستخراجه من التراكيب بحسب قواعد العربية ، ونكت بلاغتها مقتصدا في ذلك غير مسرف ثم يذهب في تنمية ذلك المعنى وتوسيعه ، مذهب الإبانة والتفصيل ، مجتهدا في ربط أوصال الكلام ، وإحكام تسلسل المعاني ، والتنبيه على توليد بعضها من بعض حتى تنتهي بذاتها إلى المساس بمطالب حكمية ، ومسائل علمية ، يسوقها حينئذ على أنها حلقات متممة سلسلة المعنى المرتبط بأصل المعنى القرآني على أحكم وجه من الربط .

ويدافع الشيخ ابن عاشور عن طريقة الرازي هذه ضدمن شككوا في قيمتها ويدفع عن تفسيره فرية راجت في مجالس العلماء قديما وحديثا من أن (تفسير الرازي قد اشتمل على كل شيء سوى التفسير) ويرى أنها كلمة صدرت عن غير روية ولا تحقق ، وأنبنت على نظرة سطحية إلى طريقته التي لم يألفوها من قبل . . ولعل الإمام الرازي رأى أن الناحية اللفظية من تفسير القرآن قد أخذت حظها وزيادة في التفاسير الأخرى فجاء يولي عنايته الغاية المقصودة من ورائها ولا سيما وقد وضع تفسيره لغرض الإقناع بأن حكمة القرآن تسمو على سائر الفلسفات وتنفرد بهداية العقول البشرية إلى غايات الحكمة من طريق العصمة[1] .

وقال الشيخ ابن عاشور في تصحيح نسبة هذا التفسير إلى الأمام الرازي : توقف كثير من العلماء عن الجزم بأن هذا التفسير بأكمله من تحرير الرازي لما جاء في ثنايا هذا الكتاب من إسناد الكلام إليه إسناد ناقل عنه ، فقد تكرر فيه (قال الإمام ، قال المصنف) مع نعته بما لا يصدر عن المتكلم عن نفسه مثل (قال

---

(1) راجع التفسير ورجاله /٧٧ ، ٧٩ .

المصنف الداعي إلى الله رضي الله عنه . .) وتتبعوا هذه الشواهد فوجدوها منحصرة في أماكن متأخرة في الترتيب فجزموا بأن أول الكتاب من وضع الرازي ، وأن آخره من إكمال غيره ونسب ذلك الإكمال إلى القاضي شهاب الدين الخوبي ت ٦٣٩ هـ ولا يبعد أنه من تلاميذه لقرب العهد منه . .

ثم قال : والذي يبدو في نظرنا فيصلا بين ذلك كله : أن الرازي لما انتصب في آخر حياته لتصنيف هذا التفسير تمكن من إخراج شيء منه في تحريره النهائي وبقي شيء في الأمالي والمسودات بيد بعض تلاميذه فأقبل على تحريره وألحق ذلك الفرع بالأصل ، فالكتاب بروحه هو الرازي كله ، وبتحريره هو من وضعه في الأول ، ووضع تلميذه الخوبي في الآخر [1] . .

والكتاب مشهور متداول لا يكاد يفرق فيه بين الأصل والتكملة . .

٢ ــ أنوار التنزيل وأسرار التأويل

مؤلفه هو القاضي ناصر الدين أبو الخير عبد الله بن عمر بن محمد بن علي البيضاوي عالم أذربيجان ، ولي قضاء شيراز حتى إذا قضى فيها معظم حياته انتقل إلى تبريز وفيها ألف كتاب تفسيره (أنوار التنزيل) قبيل وفاته بحوالي خمسة عشر عاما فقد توفي رحمه الله في عام ٦٨٥ هـ . .

كان البيضاوي رحمه الله وارث علم الرازي ، وأول أخلافه من الأصوليين الذين تناولوا التفسير بعد أن كان مملوكا للمحدّثين ، والأدباء فانتزعه الرازي واستحقه ثم أورثه أخلافه بعده من رجال الأصلين : أصول الدين وأصول الفقه ، فتقرر ثبوته لأهل الحكمة الدينية . .

---

(١) المرجع السابق / ٨٧ ، ٨٨ .

واتجه التفسير منذ ذلك الحين وجهة جديدة واتخذ طابعا جديدا هو طابع (الجمع والتلخيص ، ومزج النقل بالتأليف) .

وكان البيضاوي أول مفسر يجمع في تفسيره بين تفسيرين عظيمين هما (مفاتيح الغيب للرازي ، والكشاف للزمخشري) اعتمد على أولهما في إبراز الحكمة القرآنية وعرض نظرياتها من نواحي الفلسفة ، وأصول الدين وأصول الفقه . واعتمد على ثانيهما في بيان الألفاظ والتراكيب وتحليل المباني لاستخراج لطيف المعاني . .

وبنى طريقته على تحليل ما جمع من أفكار المتقدمين يبحثها وينقدها ويعمل فيها عقله ، فاستنبط منها نكتا بارعة ولطائف رائعة استقل بتحقيقها . . وربما جمع الأوجه المتعددة ، والاحتمالات المختلفة فيرتبها بحسب الرجحان لديه ويشير إلى ما هو مقبول منهاوما هو مردود ، كل ذلك مع الإيجاز الخالي من الإخلال ، والتلخيص العاري عن الإضلال[١] .

وهو يهتم بجانب ذلك بالقراءات فيذكر المتواتر منها والشاذ ويذكر بعض قضايا النحو دون إفاضة ، ويتعرض لبعض المسائل الفقهية بدون توسع مع إظهار الميل إلى مذهبه (الشافعي)[٢] .

وغالبا ما يقرر مذهب أهل السنة ، والمعتزلة فيما يتصل بها من آيات التفسير ، ويرجح مذهب أهل السنة على الأكثر[٣] .

---

(١) راجع مقدمة تفسير البيضاوي ، والتفسير ورجاله : لابن عاشور /٨٩ ـ ٩٥ .
(٢) انظر الآية ٢٢٨/ البقرة .
(٣) انظر ٢ ، ٣/البقرة .

وهو مقل من الاسرائيليات ، وقد يشير فيها يذكره منها بلفظ (قيل أو روى) ليشعر بضعفها[1] .

ويبدو تأثره واضحا في مباحث الكون والطبيعة بمذهب الرازي عند تفسيره للآيات الكونية[2] . .

وكما أفاد البيضاوي من كتابي (الرازي والزمخشري) فقد أفادهما أيضا شهرة وانتفاعا بهما ، فيسر مفاتيح الرازي باختصار فيوضه ، وكشف غوامضه ، وتسهيل عبارته . .

وأفاد الكشاف ضبط مقاصده البيانية على مصطلح واضح مألوف ، وخلصه من نزعاته الاعتزالية فزاد إقبال الناس عليه .

على أن القاضي البيضاوي قد يغلبه الاعتزال على سنيته أحيانا فيذهب مذهب الزمخشري في بعض ما يعتقد من أمر الجن ومجاز التمثيل[3] كما لم يسلم مما وقع فيه الكشاف من عدم التحري في درجة الأحاديث التي يوردها وبخاصة الموضوع منها في فضائل السور .

وقد قيض الله الشيخ المناوي فخرّج أحاديثه في كتاب سماه (الفتح السماوي في تخريج أحاديث البيضاوي) فجبر قصوره ، وأحسن في الاعتذار عنه . .

---

(١) انظر ٢٢/ النمل .
(٢) انظر الآية ١٠/ الصافات .
(٣) انظر الآية ٢٧٥/ البقرة ، ٧/ غافر .

٣ ــ النسفي

وقد عاصر البيضاوي أو قفاه رجال من أهل التفسير سلكوا مسلكه في (الجمع والتلخيص) .

فهاهو ذا أبو البركات عبد الله بن أحمد بن محمود النسفي المتوفي عام (٧٠١ هـ) قد صنف كتابه في التفسير (مدارك التنزيل وحقائق التأويل) مختصرا عن تفسير البيضاوي والكشاف ، وجرى فيه على مذهب أهل السنة والجماعة وتحامى ما وقع فيه الزمخشري من الاعتزال ، وذكر الأحاديث الموضوعة في فضائل السور[١] .

٤ ــ الخازن

وهو علاء الدين أبو الحسن المعروف بالخازن المتوفي عام (٧٤١ هـ) قد صنف كتابه (لباب التأويل في معاني التنزيل) وقد اختصره من (معالم التنزيل) للبغوي وضم إليه ما نقله ولخصه من تفاسير أخرى ، وليس له فيه ـ كما يقول ـ سوى النقل والانتخاب مع حذف الأسانيد وتجنب التطويل . . ثم قال ولا يخلو كتابي من خمس فوائد : استنباط المعضل ، وجمع المتفرق ، وشرح الغامض ، وحسن النظم والتأليف ، وإسقاط الحشود والتطويل[٢] .

٥ ــ أبو حيان

وهو أثير الدين أبو عبد الله محمد بن يوسف بن حيان المشهور بأبي حيان

---

(١) راجع مقدمة تفسير النسفي .
(٢) راجع مقدمة تفسير الخازن .

المتوفي بمصر عام (٧٤٥ هـ) قد صنف كتابه (البحر المحيط) وقد بناه على ما جمعه ولخصه من كتب السابقين كتفسير الزمخشري وتفسير ابن عطية ، وأكثر نقوله عن كتاب (التحرير والتحبير لأقوال أئمة التفسير) للأديب المقدسي المعروف بـابن النقيب . .

ويغلب على البحر المحيط عنايته بـالنحو والقـراءات ، لإمامتـه في النحو واللغة ، وعلم القراءات .

وقد اختصر البحر المحيط تلميذ أبي حيان : تاج الدين أحمد بن عبد القادر ابن مكتوم ت ٧٤٩ هـ ، واقتصر في المختصر على مباحثه مع ابن عطيه والزمخشري ورده عليهما . وهذا المختصر مطبوع على هامش البحر المحيط[١] .

٦ ــ النيسابوری

وهو نظام الـدين النيسابـوري المعروف بـالنظام الأعـرج من علماء المائـة التاسعة . قد صنف كتابه (غرائب القرآن ورغائب الفرقان) وهو مطبـوع على هامش تفسير ابن جرير الطبري . .

وقـد اختصره من كتـاب الفخر الـرازي وضم إليه بعض مـا اقتبسه من الكشاف ، أو بعض كتب التفاسير الأخرى ، بالإضافة إلى ما فتح الله به عليه من المعارف واللطائف ، ويمتاز بحريته في النقل والتصرف فيما بين يديه بالنقد والرد ، والفصل في المختلف فيه . .

وربما غلبته نزعته الصوفية فيأتي بالمواعظ المبكيات والحكم الغاليات[٢] . .

(١) راجع مقدمة البحر المحيط .

(٢) راجع مقدمة تفسيره /٥ ، ٦ .

٧ ــ أبو السعود

وهو أبو السعود محمد بن محمد بن مصطفى العمادي المشهور بأبي السعود نشأ بالقسطنطينية ومات بها عام ٩٨٢ هـ ودفن بجوار أبي أيوب الأنصاري قد صنف كتابه (إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم) وهو مشهور بتفسير أبي السعود .

اشتغل قبل أن يؤلف تفسيره بتدريس التفسيرين العظيمين : الكشاف وأنوار التنزيل للبيضاوي ، وطالما فكر أن ينظمهما في سلك واحد ويرتبهما على ترتيب أنيق ، وأن يضيف إليهما جواهر حقائق ، وزواهر دقائق مما ظفر به في الكتب ، أو سمح به فكره .

وشاء الله له أن يفعل فجمع بينهما وتعقب مباحثهما بتحرير محكم ، وبيان دقيق وسبك متين ، وأخرجهما للناس في كتابه (إرشاد العقل السليم) فطار صيته وذاعت شهرته وكتب له حسن القبول . . ونحا في تأويل المتشابه منحى أهل السنة ، وذكر اعتزاليات الزمخشري وردها أو حذر منها وكشف بمهارة الأديب عن وجوه الإعجاز البلاغية في النظم والتأليف[١] .

٨ ــ تفسير الجلالين

ألفه الجلالان : جلال الدين المحلي ت (٨٦٤ هـ) وقد ابتدأه من أول سورة الكهف إلى آخر سورة الناس ، ثم وافاه الأجل فلم يتمه ، وجاء جلال الدين السيوطي ت (٩١١ هـ) فأكمله مبتدأ من سورة البقرة إلى آخر الإسراء . . ويرجح

---

(١) راجع مقدمة تفسيره /٣ ، ٤ .

العلماء أن تفسير الفاتحة من عمل جلال المحلى وقد وضعها السيوطي في أخر تفسير المحلي لتكون ضمن تفسيره ، بدأه المحلي بعبارة موجزة محررة في غاية الحسن والدقة ، وتابعه السيوطي على منهجه فأفاد من علمه فيما أسلف وحذا حذوه في عبارته ودقته . . ولا تساق الجزءين لا يكاد القارىء يفرق بينهما . .

واعتمد مؤلفاه على تفاسير السابقين بالمأثور والرأي ، وهو مع هذا الاختصار قيم في بابه نافع للمبتدئين . .

٩ ـ روح المعاني للألوسي

مؤلفه : هو أبو الثناء شهاب الدين محمود الألوسي ، نشأ في بغداد وتربى في بيت علم واشتغل بالتدريس ، وتقلد إفتاء الحنفية ، وخلف ثروة علمية نافعة وقد توفي رحمه الله عام (١٢٧٠ هـ) .

تناهت التفاسير السنية السابقة إلى الألوسي على نحو ما عرفنا من الجمع والتلخيص ، والإيجاز والاختصار ، على حين راجت في عصره التفاسير العلمية الشيعية مبسوطة ضافية كتفسير (الطوسي والقمي ، والطبرسي) مع ما فيها من المحامل الباطنية لمعاني الآيات ، المخالفة لمذهب أهل السنة .

وبجانبهما أيضا راجت كتب التفسير الصوفية المعتمدة على الأذواق والمواجيد ، غير متقيدة بطريقة علمية أو لغوية .

وأقبل الناس على تفاسير الشيعة والصوفية لما لها عندهم من مساغ روحي ، واشباع الفضول بغرائب الأقوال وقصص الأحوال والمقامات .

وانحسر إقبال الناس على تفاسير أهل السنة لما فيها من صعوبة تحول بينهم وبين مطالعتها بغير درس وجهد .

وتشامخ علماء الشيعة وتطاولوا بمؤلفاتهم وآثارهم العلمية ، واجتهاداتهم في الدين ، على حين تقاصرت همم علماء السنة أمام مقامات السابقين ، فاكتفوا بالعكوف على مصنفات السابقين يدرسونها ويشرحونها ، ويعلقون عليها .

واشتد الصراع والتنازع المذهبي بين الشيعة والسنة وكادت الهزيمة تحيق بأهل السنة بسبب ماهم عليه من قصور في العلم والتأليف في هذا العصر . .

وكان ذلك من أكبر العوامل . وأشد الحوافز التي حركت الألوسي لأن يسد تلك الثغرة في تفاسير أهل السنة فنشط إلى تأليف تفسيره (روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني) على منهج البسط والإيضاح لكل ما جمع من تفاسير السابقين بدءا بالفخر الرازي ، وانتهاء بأبي السعود . . وذلك على النحو التالي .

١ ــ سلك فيه مسلك التفسير اللغوي ، فيهتم ببيان موقع المفرد أو المركب من جملة الكلام معتمدا على قواعد الإعراب واستعمالات البلاغة[١] .

٢ ــ يستخلص المعنى المراد معتمدا على الأحاديث وأسباب النزول متجنبا الأخبار الواهية ، ويحرص على الإسناد المعتد به . . وكثيرا ما ينقد الإسرائيليات والأخبار الكاذبة[٢] .

٣ ــ عند الاختلاف يورد الأقوال ثم يتعقبها بالمناقشة والنقد ويقابل الرأي بالرأي حتى ينتهي إلى الرأي الراجح بالأدلة[٣]

---

(١) راجع النساء /٣ معنى العول .
(٢) انظر المائدة /١٢ ، هود /٣٨ .
(٣) انظر آل عمران /٢٨ .

٤ ــ ينتصر لأهل السنة ويناقش محامل الشيعة وبخاصة ما جاء منها في كتاب (الطبرسي) ويحاكمها إلى قواعد الأصول ومقتضيات التراكيب البلاغية[١] .

٥ ــ لا يتعصب لمذهب فقهي معين بل يعرض آراء الفقهاء في المسألة وكثيرا ما يناقش الرازي في تمسكه بنصرة المذهب الشافعي بما للفقهاء والأصوليين من الحنفية في تلك المسائل من أنظار في رد حجج الشافعية . . وربما كان أميل لمذهب الأحناف عند الترجيح[٢] .

٦ ــ يخوض كثيرا في المباحث الفلسفية أو الرياضية أو الطبيعية ، لمناقضة المذاهب غير الإسلامية معتمدا على أحدث ما انتهت إليه المعارف في بيئته[٣] .

٧ ــ يقيم حدا فاصلا بين معارفه العلمية ، ومعارفه الصوفية فيعتبر معاني الآيات بدلالة الألفاظ والتراكيب . . ثم يعقب بعد الفراغ من تفسير طائفة من الآيات بما ذكره الصوفية في تلك الآيات من المعاني الإشارية ، متحاشيا الادعاء بأن تلك المعاني الصوفية هي المقصود الأصلي ، بل منبها على أن تلك المعاني الصوفية ليست هي مفاد التراكيب ، ولكنها معان زائدة على المعاني الأصلية توصل إليها أرباب السلوك بذوقهم الخاص[٤] .

٨ ــ ومع هذا الاحتياط عيب عليه هذا المسلك لما يوهم من أن هناك طريقا آخر لاستفادة المراد غير مقتضى الألفاظ ، وهو خروج على قواعد أهل السنة : في أن الإلهام ليس من أسباب المعرفة .

---

(١) انظر البقرة /٧ ، ١٥ ، الجمعة /١١ .
(٢) انظر البقرة / ٢٢٨ ، ٢٣٦ .
(٣) انظر يس /٣٨ ، ٣٩ ، الطلاق /١٢ .
(٤) انظر آل عمران /١٣ .

وربما كان عذره ـ بحكم تكوينه الصوفي على يد الشيخ خالد النقشبندي وتكوين البيئة التي أنجبته ـ أنه أوردها لتعلق أفكار الناس بتلك المناهج من التفسير . وكان وضعه لها بجانب التحقيقات العلمية كفيلا بردها أو حجزها عند وضع يقصرها على حدها[1] .

(١) راجع التفسير ورجاله / ١٣٥ ، ١٤٠ وراجع مقدمة تفسير روح المعاني .

تفسير الطوائف

١ ـ المعتزلة — الزمخشري

هو أبو القاسم محمود بن عمر الخوارزمي الإمام الحنفي المعتزلي ، لقب (بجار الله) لمجاورته البيت الحرام بمكة زمنا ، ولد سنة ٤٦٧ هـ بزمخشر إحدى قرى خوارزم ، واشتهر (بالزمخشري) نسبة إليها وقد توفي رحمه الله تعالى سنة ٥٣٨ هـ .

وهو إمام في اللغة والنحو ، والأدب ، والحديث . والتفسير ، وله في كل علم منها مصنفات مشهورة .

لقد جاء في زمان كان سلطان المعتزلة على التفسير العقلي قد تضعضع ، ونفوذهم على مسالك التأويل قد تقلص ، وما إن طارت شهرته في العلم ، وذاع صيته في كل فن حتى فزع إليه أبناء طائفته من المعتزلة يجعلونه مرجعهم في تفسير ما يدق فهم معناه من القرآن فيبرز لهم ـ كما قال ـ (الحقائق من الحجب) فيزيدهم ذلك اعتزازا به وإكبارا له وثناء عليه . .

وألحوا عليه أن يضع لهم تفسيراً للقرآن جامعا يعتمدون عليه في نصرة عقيدتهم بتخريج الآيات على طريقتهم البلاغية التي كانت أزمتها بأيديهم ، وآلتها وفقا عليها ، فاستجاب لهم مدفوعا بإعتزاز موروث ، وإشفاق على حاضر غير كريم ، وتهيأت له ـ بجوار البيت الحرام ـ ظروف أعانت على إنجازه في ثلاثين شهرا ـ وإن كان في تقديره ألا يتم قبل ثلاثين عاما ـ واعتبر ذلك فضلا من الله وبركة من بركات بيته الحرام .

وقد اعتمد فيه على ما يشعر به مكتملا في نفسه من المعارف ، والملكات . فقد أخذ من سائر العلوم بحظ وافر ، وأوتي نصيبا أوفر من صفاء الذهن وتوقد القريحة فجاء تفسيره (الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل) كتابا عالي القدر ، رفيع الشأن ، تاه به الزمخشري عجبا فقال في وصفه :

إن التفاسير في الدنيا بلا عدد   وليس فيها لعمري مثل كشافي
إن كنت تبغي الهدى فالزم قراءته   فالجهل كالداء، والكشاف كالشافي

وبالجملة فهو تفسير أجمع العلماء على استحسانه ، والإغضاء عما جاء فيه من عقيدة الاعتزال ، فحسناته أرجح من سيئاته .

وتمحض له رجال من أهل السنة فردوا اعتزاله ، وستروا سوءته ، وبقي بوجهه المشرق مرجع الناس على سواء . .

منهجه في التفسير

١ ــ عنايته ببيان معنى اللفظ القرآني ، وتدرج حياته ، والدلالات التي اكتسبها في تطوره ، والعلاقة بين تلك الدلالات ، ودلالته الأصلية[١] .

٢ ــ كشفه عن الصور البيانية ذات الدلالة على إعجاز القرآن في نظمه وتركيبه ، ومقارنتها بالمروي من كلام العرب[٢] .

٣ ــ حمله لكثير من ظواهر النصوص على التمثيل والتخييل ، وبخاصة فيما لا يتفق

---

(١) انظر ٢٢ ، ٢٣/ القيامة .
(٢) انظر ١/ البقرة .

مع مذهبه الاعتزالي[1] .

٤ ــ دعواه الاشتباه في كثير من الآيات التي تصادم عقيدته الاعتزالية ليتذرع بذلك على حملها على ما يناظرها من الآيات المحكمات[2] .

٥ ــ انتصاره لرأي المعتزلة في كثير من القضايا (كخلق أفعال العباد وحكم مرتكب الكبيرة ، واستحالة رؤية الله ، وإنكار السحر)[3] .

٦ ــ تعصبه لمذهبه الاعتزالي ، وخصومته الشديدة لأهل السنة وتحقيره لآرائهم والاستهزاء بهم . [١٧/ فصلت ، ٩ ، ١٠/ الشمس ، ١٨/ آل عمران] .

٧ ــ يعرض لبعض المسائل الفقهية على وجه الإيجاز والاعتدال دون تعصب لمذهبه الحنفي [٢٢٣/ البقرة ، ٢٣٧/ يالبقرة ، ١/ الطلاق] .

٨ ــ إقلاله من ذكر الإسرائيليات ، وكثيرا ما يرويها بلفظ يشعر بضعفها وبعدها عن الصحة ، أو التشكيك فيها بتفويض العلم فيها لله وحده [٣٥/ النمل ، ٣٨/ القصص ، ٢١/ ص ، ٣٤/ ص] .

٢ ــ الشيعة

طائفة من الناس شايعوا عليا رضي الله عنه وأهل بيته ووالوهم ، ورأوا أن الخلافة هي ركن الدين وقاعدة الإسلام ، ولا يجوز للنبي صلى الله عليه وسلم

---

(١) انظر ١٧٢ ، ١٧٣ الأعراف ، ٧٢/ الأحزاب .

(٢) ١٠٣/ الأنعام ، ٢٨/ الأعراف .

(٣) ٨/ آل عمران ٣٩/ الأنعام ، ٤٣/ الأعراف ، ٩٣/ النساء ، ١٥٨/ الأنعام .

إغفال هذا الركن ، ولا تفويض الأمة فيه بل يجب عليه أن يعين الإمام لهم ، ويكون معصوما من الكبائر والصغائر وأن النبي صلى الله عليه وسلم قد عين علياً قبل موته ، وأن الخلفاء الثلاثة قبله قد اغتصبوها منه .

وغالى بعض المتشيعين فاعتبروا اغتصابها كفرا ، على حين رآه المعتدلون خطأ لا يبلغ درجة الكفر . .

وكما اختلفوا في نظرتهم إلى الخلافة ومغتصبيها ، اختلفوا كذلك في تعيين الأئمة أهي في أبناء عليّ بعامة ، أم في أولاده من فاطمة ، ثم أهي في أولاد الحسن بعد مقتل الحسين - وإن كان الحسن قد تنازل عنها - أم في أولاد الحسين من بعده ، وافترقوا على ذلك فرقا شتى .

وكان لكل فرقة منهم نظرة في القرآن وتفسيره بحسب معتقداتهم وقد ضمنوا ما ظهر من تفاسيرهم كثيرا من هذه الآراء .

وهذا تفسير بالرأي المذموم حيث اعتقدوا أولا ، ثم أخضعوا التفسير لما اعتقدوا .

وهم في تفسيرهم أيضا - لا يقبلون أقوال الصحابة ولا يثقون بروايتهم عن رسول الله ، وإنما يقبلون أحاديث آل البيت برواية شيعي عن شيعي .

وربما حملهم التعصب المذهبي على وضع كثير من الأحاديث لتأييد معتقداتهم حين لا تسعفهم الأحاديث المروية . .

وللإمامية الإثني عشرية (كتاب الكافي) لأبي جعفر محمد بن يعقوب الكُلَيْني ت (٣٢٨ هـ) في الحديث يثقون به ثقة أهل السنة بصحيح البخاري .

أما كتبهم في التفسير فهي كثيرة منها :

١ ــ تفسير الحسن العسكري ت (٢٦٠ هـ) ولم يتم .
٢ ــ تفسير القمي علي بن ابراهيم من رجال القرن الثالث والرابع الهجري وهو مطبوع .
٣ ــ التبيان لأبي جعفر الطوسي ت (٤٦٠ هـ) .
٤ ــ مجمع البيان لأبي علي الفضل بن الحسن الطبرسي ت (٥٣٨ هـ) وقد استمده من تفسير الطوسي .
٥ ــ آلاء الرحمن في تفسير القرآن لمحمد جواد النجفي ت ١٣٥٢ هـ وقد بدأه ولم يتمه .

١ ــ تفسير الحسن العسكري

هو أبو محمد الحسن بن علي الهادي بن محمد الجواد بن علي الرضا بن موسى الكاظم بن جعفر الصادق من سلالة الحسين بن علي رضي الله عنهم أجمعين ، الشهير بالعسكري (ت ٢٦٠ هـ) .

جاء في تفسيره لقوله تعالى ﴿ وَقُلْنَا يَـٰٓـَٔادَمُ ٱسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ ٱلْجَنَّةَ وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَـٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ . . ﴾[1] يبين المراد من الشجرة ويعلل النهي عنها فيقول : لا تقربا هذه الشجرة شجرة علم محمد وآل محمد الذين آثرهم الله عز وجل به دون سائر خلقه ، فهي لهم خاصة ، ولا يتناول منها بأمر الله إلاّ هم ومنها كان يتناول النبي ، وعلي ، وفاطمة والحسن ، والحسين بعد إطعامهم المسكين واليتيم والأسير حتى لم يحسوا بعدُ بجوع ولا عطش ولا تعب .

وعند تفسيره لقوله تعالى ﴿ وَإِلَـٰهُكُمْ إِلَـٰهٌ وَٰحِدٌ لَّآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلرَّحْمَـٰنُ

(١) البقرة / ٣٥ .

ٱلرَّحِيمُ ﴾[1] يقول : الرحيم بعباده المؤمنين من شيعة آل محمد ، وسع لهم في التقية يجاهرون بإظهار موالاة أولياء الله ومعاداة أعدائه إذا قدروا ، ويسرونها إذا عجزوا .

غير أن الحسن العسكري من الرجال الذين عرفوا بعلمهم وصلاحهم وتقواهم ، مما يجعل نسبة هذا الكلام إليه كذبا وزورا .

٢ ــ مجمع البيان : للطبرسي

هو أبو علي الفضل بن الحسين بن الفضل الطبرسي المشهدي من كبار رجال التفسير ألف كتابه (مجمع البيان) . ويسوقون في سبب تفسيره قصة طريفة : أنه قد أصيب بالسكتة فظنوه قد مات فدفنوه ثم أفاق ، فلما وجد نفسه في القبر مسدودا عليه نذر لئن نجاه الله من هذه الداهية ليؤلفن كتابا في تفسير القرآن . . وتصادف أن أحد النباشين قصد قبره ليأخذ كفنه ، فرآه على تلك الحال فوقع الرعب في قلب النباش ، فطمأنه الشيخ ، وأخبره بقصته ، فحمله النباش وعاد به إلى بيته الشريف ، ووفى الشيخ بنذره في تأليف هذا التفسير . . وقد توفي رحمه الله عام ٥٣٨هـ .

منهجه في التفسير

يقدم بين يدي كل سورة ذكر مكيها ومدنيها وعدد آياتها ثم يقدم بين يدي الآية ما فيها من قراءات إن وجد ، ثم يتناولها بالإعراب ثم يذكر سبب النزول إن وجد ، ثم يذكر المعاني والأحكام والتأويلات .

---

(١) البقرة /١٦٣ .

وقد استحسنه كثير من العلماء بصرف النظر عما فيه من نزعات شيعية وآراء اعتزالية إذ أنه موسوم بالاعتدال فيهما . .

يقول عند تفسيره لقوله تعالى ﴿ إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُمْ رَٰكِعُونَ ﴾[1] وهذه الآية شاهدة بوجوب إمامة علي رضي الله عنه إذ أنه هو المقصود في الآية بالمزكي الراكع ويسوق قصصا وأحاديث على أن عليا تصدق بخاتمه وهو راكع . . وأن إمامته بعد النبي بلا فصل لذكره في الآية عقب ذكر الرسول مباشرة . .

وقد طعن كثير من العلماء في حديث تصدق علي بخاتمه وهو في الصلاة وذكروا أنه حديث موضوع لا أصل له ، وقد تكفل الشيخ ابن تيمية بالرد على هذه الدعوى في كتابه (منهاج السنة) .

ونراه عن تفسيره لقوله تعالى ﴿ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ ٱلرِّجْسَ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا ﴾[2] يحاول محاولة جادة أن يقصر أهل بيت النبي على النبي محمد ، وعلي بن أبي طالب وفاطمة والحسن والحسين ليصل من وراء ذلك أن الأئمة معصومون من جميع القبائح كالأنبياء سواء بسواء .

وتلك عقيدة شيعية مردودة والقول بها من خلال تلك الآية تحكم في كلام الله بدافع الهوى وتأثير المذهب .

وعند تفسيره لقوله تعالى ﴿ وَإِنِّي خِفْتُ ٱلْمَوَٰلِيَ مِن وَرَآءِي وَكَانَتِ ٱمْرَأَتِي عَاقِرًا فَهَبْ لِي مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا ۝ يَرِثُنِي وَيَرِثُ مِنْ ءَالِ يَعْقُوبَ وَٱجْعَلْهُ

---

(١) المائدة /٥٥ .

(٢) الأحزاب /٣٣ .

رَبِّ رَضِيًّا ﴾[2] يقول في معناها : يرثني مالي ، ويرث من آل يعقوب النبوة .

ثم قال : واستدل أصحابنا بالآية على أن الأنبياء يُورثّون المال لأن الإرث في المال على الحقيقة ، وفي غيره على المجاز ، ولا يعدل عن الحقيقة إلى المجاز إلاّ بدليل . وأن خوفه كان على المال بدليل قوله تعالى ﴿ وَإِنِّي خِفْتُ ٱلْمَوَٰلِيَ مِن وَرَآءِى ﴾ وليس على النبوة لأن أمر الخوف عليها ليس له إنما هو راجع لعلم الله وحكمته فهو أعلم حيث يجعل رسالته .

وهو بهذا يعارض ما استدل به أبو بكر رضي الله عنه في منع ميراث النبي لأحد من أهله من قول النبي ، (نحن معاشر الأنبياء لا نورث ما تركناه صدقة) فمنع فاطمة وعائشة وسائر الورثة من وراثة النبي صلى الله عليه وسلم .

ويستند في تفسيره إلى أحاديث موضوعة منها ذكره عند تفسير قوله تعالى ﴿ إِنَّمَآ أَنتَ مُنذِرٌ وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ ﴾[2] قولا للنبي عند نزول هذه الآية : أنا المنذر ، وعلي الهادي من بعدي ، يا علي بك يهتدي المهتدون .

ويميل الطبرسي إلى الاعتقاد بأن للشيعة علماً بباطن القرآن أخذوه عن أئمتهم فعند تفسيره لقوله تعالى ﴿ ۞ ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ مَثَلُ نُورِهِۦ كَمِشْكَوٰةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ ٱلْمِصْبَاحُ فِى زُجَاجَةٍ ﴾[3] .

يروى عن الرضا أنه قال : نحن المشكاة فيها المصباح وهو محمد صلى الله عليه وسلم يهدي الله لولايتنا من أحب) .

---

(1) مريم /5 ، 6 .
(2) الرعد /7 .
(3) النور /35 .

وينقل عن الباقر قوله : كمشكاة فيها مصباح : نور العلم في صدر النبي ، والزجاجة صدر علي ، أي ينتقل علم النبي من صدره إلى صدر علي رضي الله عنه .

الإمامية الإسماعيلية (الباطنية)

من طوائف الشيعة طائفة تعرف باسم (الإسماعيلية) نسبة إلى إسماعيل بن جعفر الصادق ، ويلقبون (بالباطنية) لقولهم بباطن القرآن دون ظاهره .

وهي طائفة ما رقة من الدين بتأويلها وعقيدتها ، يضللون بها السذج من الناس بدعوى أن ما يقولونه من علم ليس عند الناس منه شيء لأنهم ورثوه عن أئمتهم الذين أودعهم الله سره المكنون ودينه المخزون ، وكشف لهم بواطن هذه الظواهر .

ويستدلون لذلك بقول موضوع على النبي حين سئل : ومن أين يعرف الحق بعدك ؟ قال : ألم أترك فيكم القرآن وعترتي . وأراد بهم أعقابه ، فهم الذين يطلعون على معاني القرآن .

وليس لهذه الطائفة تفسير متكامل ، وإنما لهم آراء في بعض آيات القرآن :

منها أن (الوضوء) موالاة الإمام ، (والتيمم) هو الأخذ من المأذون عند غيبة الإمام الذي هو الحجة ، (والصلاة) عبارة عن الناطق وهو الرسول بدليل قوله تعالى ﴿ إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ ﴾ . (والغسل) تجديد العهد ممن أفشى سرا من أسرارهم من غير قصد ، (والزكاة) عبارة عن تزكية النفس بمعرفة ماهم عليه من الدين ، (والكعبة) النبي ، (والباب) علي . وقيل (الصفا) هو النبي ، (والمروة) هو علي ، (والميقات) هو الإيناس ،

(والتلبية) إجابة الدعوة ، (والطواف) بالبيت سبعا : موالاة الأئمة السبعة . (والجنة) راحة الأبدان من التكاليف ، (والنار) مشقتها بمزاولة التكاليف[1] .

ومنها في قوله تعالى﴿ وَٱعۡبُدۡ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأۡتِيَكَ ٱلۡيَقِينُ ﴾[2] : اعبد ربك حتى يأتيك التأويل ومعرفة معنى العبادة ، ومتى عرفت معنى العبادة سقط عنك فرضها . .

وكانوا لا يعلمون هذا التأويل لأحد حتى يقرض الله قرضا حسنا . لقوله تعالى ﴿ وَأَقۡرِضُواْ ٱللَّهَ قَرۡضًا حَسَنًا ﴾[3] ويقدرون قيمةهذا القرض بقيمة حروف (حسنا) بحساب الجمل (الحاء) ومقدارها (٨) ، (والسين) ومقدارها (٦٠) (والنون) ومقدارها (٥٠) ، (والألف) ومقدارها (١) فيكون المجموع (١١٩) درهما من السبيكة الخالصة .

وقدر عرفت خبايا هذه الطائفة عن رجل انتسب إليها ظاهرا ليعرف أسرارهم هو (محمد بن مالك اليماني) أحد علماء القرن الخامس الهجري وسجلها في كتابه المسمى (كشف أسرار الباطنية) .

ولهذه الطائفة امتداد في عصرنا الحاضر يتمثل في طوائف كثيرة منهم (البابية ، والبهائية ، والقديانية) وكلها طوائف ضالة مضلة ، يحرفون كلام الله ويكيدون للاسلام باسم الإسلام . .

---

(١) فضائح الباطنية للغزالي /١٣ .
(٢) الحجر /٩٩ .
(٣) المزمل /٢٠ .

٣ ـ الصوفية

طائفة يرجع ظهورها بهذا الاسم إلى القرن الثاني الهجري تقوم على الزهد والتفاني في طاعة الله ، وأول من سمي بالصوفي أبو هاشم الصوفي ت (١٥٠ هـ) ويعرف هذا اللون بالتصوف العملي .

ثم تولد في غضون هذا القرن وما بعده الفكر الصوفي ، وانتشرت نظرياته التي تواضع عليها الصوفيون ، وقد تأثر الفكر الصوفي بالأفكار الفلسفية حتى أصبح من بين الصوفية رجال أشبه بالفلاسفة منهم بالمتصوفة يدينون بمسائل فلسفية لا تتفق ومبادىء الشريعة مما أثار عليهم جمهور أهل السنة ، ويعرف هذا اللون بالتصوف النظري .

التصوف النظري وأثره في التفسير

لقد تأثر بعض المتصوفة بنظريات الفلاسفة ، وحاولوا في تفسيرهم للقرآن أن يخضعوه لتلك النظريات وكان شيخهم في ذلك محي الدين بن عربي الذي قال (بوحدة الوجود) وفسر عليها قوله تعالى ﴿فَٱدۡخُلِي فِي عِبَٰدِي ﴿٢٩﴾ وَٱدۡخُلِي جَنَّتِي﴾[1] : ادخلي جنتي التي هي ستري وليست جنتي سواك فأنت تسترني بذاتك الإنسانية فلا أعرف إلّا بك ، كما أنك لا تكون إلّا بي فمن عرفك عرفني . . . . فأنت عبد رأيت ربا ، وأنت رب لمن له فيه أنت عبد ، وأنت رب وأنت عبد لمن له في الخطاب عهد[2] .

وقد سوغت له هذه النظريةأن يقول : إن عجل بني اسرائيل أحد المظاهر

(١) الفجر ٢٩ ، ٣٠ .

(٢) الفصوص ١٩١/١ .

التي اتخذها الله وحل فيها ، وجره ذلك إلى القول أيضا بوحدة الأديان لا فرق بين سماوي وغير سماوي ، إذ الكل يعبدون الإله الواحد المتجلي في صورهم وصور جميع المعبودات .

وعند تفسيره لقوله تعالى ﴿ مَرَجَ ٱلْبَحْرَيْنِ يَلْتَقِيَانِ ۝ بَيْنَهُمَا بَرْزَخٌ لَّا يَبْغِيَانِ ﴾[1] : (مرج البحرين) بحر الهيولى الجسمانية الذي هو الملح الأجاج ، وبحر الروح المجرد الذي هو الفرات العذب ، (يلتقيان) : في الوجود الإنساني (بينهما برزخ) هو النفس الحيوانية التي ليست في صفاء الروح المجردة ولطافتها ، ولا في كثرة الأجساد الهيولانية وكثافتها . (لا يبغيان) لا يتجاوز أحدهما حده فيغلب على الآخر بخاصته فلا الروح يجرد البدن ويخرج به ويجعله من جنسه ، ولا البدن يجسد الروح ويجعله ماديا . . فسبحان خالق الخلق القادر على ما يشاء[2] .

وهو تفسير كما نرى يخرج بالقرآن عن مقاصده ، ويهدم الدين من أساسه ، ومثله مذموم غير محمود ، ومرفوض غير مقبول . .

التصوف الفيضي (العملي)

قلنا إن التصوف في أول عهده هو (الزهد والتفاني في طاعة الله) وقد عبروا عن حقيقته بتعابير أخرى منها أنه (إرسال النفس مع الله على ما يريده) وقيل : هو (مناجاة القلب ومحادثة الروح) وفي هذه المناجاة طهر لمن شاء أن يتطهر ، وفي تلك المحادثة عروج إلى سماء النور وصعود إلى عالم الفيض والإلهام . . ولا سبيل إلى ذلك إلا بعد تصفية النفس البشرية بأنواع من المجاهدات والعبادات حتى تكون

---

(١) الرحمن /١٩ ، ٢٠ .

(٢) راجع تفسير ابن عربي ٢ /٢٨١ .

مستعدة لتلقي المعرفة بما يفيضه الله عليها من العلم .

وبهذا استحدثوا للمعرفة طريقا ـ سوى الدلالة اللفظية ـ يقوم على الإلهام ، والذوق ، والوجد .

ورأوا أن النص القرآني تحتجب وراء دلالته اللفظية أفكار عميقة ، ومعان دقيقة ، ويرون أن المعنى الحقيقي للتنزيل الإلهي لا يتناهى عند البسائط البادية من ظاهره ، وأن هناك معنى ظاهرا ، ومعنى باطناً ، وأن الأهم هو المعنى الباطني . .

ومن ثم كانت إشارات القرآن إلى هذا الباطن هي المرادة من قوله تعالى ﴿ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَآ ﴾ وقد صرحت الأحاديث بهذه الحقيقة من ذلك ما أخرجه الديلمي من رواية عبد الرحمن بن عوف مرفوعا : (القرآن تحت العرش له ظهر . وبطن ، يحاج العباد) وما روى من رواية الحسن مرسلا : (لكل آية ظهر وبطن . ولكل حرف حد ، ولكل حد مطلع)

وهم وإن اختلفوا في المراد بالظهر والبطن فأظهر الأقوال عندهم أن المراد بالظهر : لفظ الآية ، والباطن : تأويلها . . أو أن الظهر : ما ظهر من معانيها لأهل العلم ، والبطن أسرارها التي اطلع الله عليها أهل الحقيقة . .

ومن ثم تأثر تفسيرهم للقرآن بهذه المعتقدات ، ففي تفسيرهم لقوله تعالى ﴿ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌۢ بِقَدَرِهَا فَٱحْتَمَلَ ٱلسَّيْلُ زَبَدًا رَّابِيًا ﴾

يقولون : (انزل من السماء ماء) يعنى القران (فسالت أودية بقدرها)يعنى حفظتها القلوب بمقاديرها من القلة والكثرة (فاحتمل السبل زيدا رابيا) يعني ما تحمل ألفاظه ومظاهره من معاني متشابهاتها ، حفظتها قلوب المنافقين الزائغة . .

موقف المفسرين من ظاهر القرآن وباطنه

رأى بعض المفسرين من الصوفية أن تحديد الباطن يقتضيه أن يمر بمرحلة الظاهر حتى يكون وصوله إلى الباطن مأمون العاقبة سليما . ومن هنا جمع كثير من الصوفية بين الظاهر والباطن كما صنع الغزالي ، ومن قبله سهل التستري ، ومنهم من عاش للباطن وأخلص نفسه له كأبي عبد الرحمن السلمي في تفسيره المسمى (بالحقائق) .

ويتبين مسلك الإمام الغزالي عند تفسيره لقوله تعالى ﴿ فَٱخْلَعْ نَعْلَيْكَ ﴾ حيث يقول : من يريد إدراك الوحدانية الحقيقة يجب عليه أن يطرح عن نفسه التفكير في الحياتين الدنيا والآخرة : أي يقبل على الله دون غرض ، وكل ما يفكر فيه هو رضا الله ومحبته .

ويعقب الغزالي على هذا التفسير بقوله : لا تظن من هذا المثال أني أترخص في رفع الظواهر أو أعتقد في إبطالها حتى أقول مثلا لم يكن مع موسى نعلان ، ولم يسمع الخطاب بقوله (اخلع نعليك) حاشا لله ، فإن إبطال الظواهر رأي الباطنية الذين نظروا بالعين العوراء إلى أحد العالمين وجهلوا جهلا بالموازنة بينهما ، فلم يفهموا وجهه . . بل أقول : موسى فهم الأمر بخلع النعلين ، فامتثل الأمر ظاهرا بخلع النعلين ، وأدرك منه اطراح الكونين ، فامتثل الأمر باطنا بخلع العالمين ـ أي عالم الدنيا وعالم الآخرة ، فلم يفكر موسى في متاع الدنيا ، ولم يقصد ثواب الآخرة ، بل قصد وجه الله وحده .

التسْتَري وتفسيره (الإشاري)

هو أبو محمد سهل بن عبد الله التستري من كبار رجال الصوفية العارفين

أصحاب الكرامات ت (٢٧٣ هـ) ، له تفسير يسمى (تفسير القرآن العظيم) لم يتعرض فيه لجميع آيات القرآن ، بل تكلم فيه عن بعض آيات محدودة ومتفرقة من كل سورة .

منهجه

ويسلك في منهجه ذكر المعنى الظاهري للآية ثم يعقبها بالتفسير (الإشاري) ، وقد يقتصر على أحدهما دون ذكر للآخر ، غير أنه لا يدعي عند ذكر (الإشاري) أنه هو المقصود وحده ، كما يفعل غيره بتعطيل ظاهر النص .

وهو منهج يتمشى مع ما شرطه العلماء لقبول التفسير الإشاري من شروط هي :

١ ــ أن يكون له شاهد شرعي يؤيده .
٢ ــ ألا يكون له معارض من شرع أو عقل .
٣ ــ ألا يكون منافيا للظاهر من نظم القرآن .
٤ ــ ألا يدعي أنه المراد وحده دون الظاهر .

ومثاله عند التستري :

قال عند تفسيره لقوله تعالى ﴿ وَٱتَّخَذَ قَوْمُ مُوسَىٰ مِنۢ بَعْدِهِۦ مِنْ حُلِيِّهِمْ عِجْلًا جَسَدًا لَّهُۥ خُوَارٌ ﴾[1] : عجل كل إنسان ما أقبل عليه فأعرض به عن الله من أهل وولد ، ولا يتخلص من ذلك إلا بعد إفناء جميع حظوظه من أسبابه ، كما لم

---

(١) الأعراف /١٤٨ .

يتخلص عبدة العجل من عبادته إلا بعد قتل النفوس[1] .

وقال عند تفسيره لقوله تعالى ﴿ وَفَدَيْنَٰهُ بِذِبْحٍ عَظِيمٍ ﴾[2] : إبراهيم عليه السلام لماأحب ولده بطبع البشرية ، تداركه من الله فضله وعصمته ، حتى أمره بذبحه ، إذ لم يكن المراد منه تحصيل الذبح ، وإنما كان المقصود تخليص السر من حب غيره بأبلغ الأسباب فلما خلص السر له ورجع عن عادة الطبع فداه بذبح عظيم[3] .

وهي كما نرى معان مقبولة ويمكن إرجاعها بدون تكلف إلى اللفظ القرآني بدون معارضة شرعية أو عقلية .

السلمى وتفسيره (الرمزي)

هو أبو عبد الرحمن محمد بن الحسين بن موسى السلمي شيخ الصوفية ، وعالمهم بخراسان توفي رحمه الله عام ٤١٢ هـ .

ألف كتابا في التفسير سماه (الحقائق) وهو يستوعب جميع سور القرآن ، ولكنه لا يفسر كل الآيات ، بل يتكلم عن بعضها ويترك بعضها .

منهجه

لا يتعرض لظاهر القرآن بل يقصر تفسيره على التفسير الباطني يجمعه من

---

(١) تفسير التستري / ٦٠ .
(٢) الصافات / ١٠٧ .
(٣) التفسير السابق / ١٢٠ .

مقالات أهل الحقيقة فينقل عن جعفر الصادق ، وابن عطاء الله السكندري ، والجنيد ، والفضيل بن عياض ، وسهل التستري وغيرهم ، غير أن الاقتصار على المعاني (الباطنية) والإعراض عن المعاني الظاهرية ترك مجالا للطعن فيه بقدر بعده عن ظاهر النص ودلالة اللغة . حتى قال فيه بعض العلماء : إن كان اعتقد أن ذلك تفسير فقد كفر .

أمثلة من تفسيره

في قوله تعالى : ﴿ وَلَوْ أَنَّا كَتَبْنَا عَلَيْهِمْ أَنِ اقْتُلُوا أَنفُسَكُمْ أَوِ اخْرُجُوا مِن دِيَارِكُم مَّا فَعَلُوهُ إِلَّا قَلِيلٌ مِّنْهُمْ ﴾[1] .

قال محمد بن الفضل : (اقتلوا أنفسكم : بمخالفة هواها ، (أو اخرجوا من دياركم) أي أخرجوا حب الدنيا من قلوبكم (ما فعلوه إلا قليل منهم) في العدد ، كثير في المعاني وهم أهل التوفيق والولايات الصادقة .

وفي قوله تعالى : ﴿ وَهُوَ الَّذِي مَدَّ الْأَرْضَ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ ﴾[2] يقول : قال بعضهم : هو الذي بسط الأرض وجعل فيها أوتادا من أوليائه وساده من عبيده ، فإليهم الملجأ ، وبهم النجاة فمن قصدهم فاز ونجا ، ومن كان بغيته لغيرهم خاب وخسر . .

وفي قوله تعالى : ﴿ وَآيَةٌ لَّهُمُ الْأَرْضُ الْمَيْتَةُ أَحْيَيْنَاهَا وَأَخْرَجْنَا مِنْهَا حَبًّا فَمِنْهُ يَأْكُلُونَ ﴾[3] . يقول : قال ابن عطاء الله : القلوب الميتة بالغفلة أحييناها

---

(١) النساء /٦٦ .

(٢) الرعد /٣ .

(٣) يس /٣٣ .

بالتيقظ والاعتبار والموعظة ، (وأخرجنا منها حبا) : معرفة صافية تضيء أنوارها على الظاهر والباطن . .

وفي قوله تعالى ﴿ إِنَّ ٱلْأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ ﴿١٣﴾ وَإِنَّ ٱلْفُجَّارَ لَفِي جَحِيمٍ ﴾[4] . يقول : قال جعفر : النعيم : المعرفة ، والجحيم : النفوس فإن لها نيرانا تتقد .

هذا . . وقد سوى بعض العلماء في التفسير بين مصطلحين هما (الإشاري والرمزي) .

غير أن بعض الباحثين يخطىء من يسوي بينهما حيث يذهب إلى أن (الإشاري) وثيق الصلة بالنص ومشدود إليه ، وأن (الرمزي) بعيد عن دلالة النص ، بل يجافيه ، أو يباينه تماما وقد يرى في منهج (التستري) مثالا للإشاري ، وفي منهج (السلمي) مثالا للرمزي . .

(٤) الانفطار / ١٣ ، ١٤ .

الاتجاهات العامة للتفسير في العصر الحاضر

تمهيـــد

قطع التفسير شوطا بعيد المدى على يد المفسرين السابقين حتى كادت تسد منافذ القول فيه ، فأيما نظرت إليه من ناحية اللغة أو النحو أو الفقه ، أو العقيدة ، أو القصص والأخبار ، أو التاريخ ، أو العلوم وجدت تحققا يبلغ درجة الكمال .

وعز على الراغبين في تناوله كلُّ قول جديد ، فشغلوا أنفسهم بتلخيص ما قيل ، وجمع ما تفرق ، والتعليق على ما غمض ، ونقد ما انحرف ، وترجيح ما اختلف فيه .

وكاد عمل المفسرين يتوقف عند هذا الحد ، فأصيب التفسير بالجمود ، شأنه في ذلك شأن سائر العلوم الأدبية واللغوية في عصور التخلف والانحطاط .

ولف الشرقَ الإسلامي ظلامُ التخلف بحكم ما فرض عليه من عـوامل الإذلال والقهر في ظل أنظمة الحكم الفاسدة ، وسـطوة الاستعمار الغـاشمة ، وتوارت في أطواء هذا الظلام مبادىء الإسلام ومثله العليا ، وتخلت عن مكانها للبدع ومنكور العادات وسوء التأويل ، وقصور الأنظار .

حتى إذا انتصف القرن الثالث عشر الهجري طالع الشرق الإسلامي بوادر نهضة أوروبية في شتى مناحي الحياة ، إذا قيس بها الشرق بدا متخلفا إلى مدى بعيد ، فأنكر نفسه وأحس بغربة موحشة بين ماض عزيز ، وحاضر غير كريم ، فلا

هو موصول الأسباب بهـذا الماضي ، ولا هـو مؤهل للنهـوض بدور الـريادة من جديد .

وعاش في تنافر بين مثله العليا وبين واقعه المحسوس ، وكان عليه إما أن ينسلخ إنسلاخا تاما عن مثله ومبادئه ليعيش حاضره كيفما اتفق ، وإما أن يعقد العزم على نهضة شاملة ترتكز على مثله ومبادئه وقيمه ، وتأخذ من معطيات الحضارة الحديثة بما يضمن له حياة كريمة يمتزج فيها كيانه المادي بكيانه الروحى على أحسن مثال .

جمال الدين الأفغاني : ١٢٥٣ ـ ١٣١٤ هـ

وقيض الله له من يؤجج فيه هذا العزم ويقود خطاه على هذا الدرب ، ذلكم هو السيد جمال الدين الأفغاني ، وقد أخذ من علوم الدين ، وعلوم الحياة بحظ واقر أهله لقيادة هذه النهضة على أساس من تجديدا الفكر الـديني ، وإبراز الحقـائق الدينية نقية من شوائب البدع ومنكور العادات .

وقد لخص في رسالته المسماة (الرد على الدهريـين) رأيه في الحكم عـلى الفلسفة الطبيعية المعطلة ، وفساد مذاهبها ، وسوء نتائجها في الأخـلاق والنظم الاجتماعية ، مقارنا ذلك بما للدين من أثر في تكوين الخصال النفسية الطيبة ، وحماية النظم الاجتماعية الصالحة وقارن فيها أطوار تـواريخ الأمم بمـا نالت من سعادة في التدين ، وما أصابها من شرور بالتورط في المذاهب الإلحادية ، وجعل محور تلك المقارنة التاريخ الإسلامي ، فحمل كل ما أصاب المسلمين في أفكارهم وأخلاقهم على الدعوات الباطنية والانحرافات الاعتقادية وانتهى إلى أن الدين هو سبب السعادة التامة ، وأن دين الإسلام قد فاق في تلك المزية بما لا يساويه فيها

دين ، ولا يقاربه بما هذب من العقول وما طهر من الطبائع[1] .

محمد عبده : ت ١٣٢٣ هـ - ١٩٠٥ م

وكان في مقدمة الآخذين عن جمال الدين ، والمساندين له في دعوته الإمام محمد عبده ، فقد ربطت بين الرجلين صلات شتى ، ووحد بينهما الهدف في الإصلاح الديني ، والتقيا في (العروة الوثقى) يخطان منهج التجديد ، وكان القرآن منطلق هذه الدعوة ، ووسيلة الإصلاح المنشود ، فسلكا بتفسيره مسلكا اجتماعيا يربط بين الدين والمجتمع .

الاتجاه الاجتماعي في التفسير

لقد كانت بدايته على يد جمال الدين ، حتى إذا لقي ربه عام ١٣١٤ هـ ، قام من بعده الشيخ محمد عبده على بلاغ دعوته ، وانتهاج خطته في عرض الإسلام عرضا يعالج به أدواء الحاضر ، ويستشرف به آفاق مستقبل كريم للمسلمين .

وكانت البداية في الجامع العمري (ببيروت) يعقد فيه مجلسا للتفسير ثلاث ليال في الأسبوع يقرأ الآية من القرآن ، ثم يفيض في شرح معانيها واستخراج أسرار حكمتها ، وعلى ضوء هذا الحكم القرآنية يلتفت إلى حاضر المسلمين ليبين سوء أحوالهم وفساد أوضاعهم ويقدم لهم العلاج الناجع من منهج الإسلام وهدى القرآن .

ومن الجامع العمري إلى الجامع الأزهر تتصل دروس هذا التفسير طيلة ست

---

(١) راجع : التفسير ورجاله : ابن عاشور /١٥٨ .

سنوات ينتهي فيها الإمام محمد عبده إلى الآية (الخامسة والعشرين بعد المائة من سورة النساء) هذا بجانب ما كان للإمام من تفسير جزء(عم) الذي سبق به هذا التفسير المتصل . .

تفسير المنار

وكان الإمام لا يكتب هذه الدورس ، فتولى جمعها وتحريرها عنه ألزم تلاميذه وأخلص مريديه الشيخ رشيد رضا ت (١٣٥٤ هـ) وكان يعرضها عليه قبل نشرها في مجلة (المنار) .

ولما انتهى النشر إلى حيث أدركت الوفاة الأستاذ الإمام ، استقل الشيخ رشيد بأعباء التفسير وحده ، فأكمل منه إلى نهاية سورة (يوسف) ثم وافاه الأجل المحتوم .

وصدر (تفسير المنار) في اثني عشر مجلدا ، اعتمد الشيخ رشيد في الخمسة الأولى منها على أستاذه ، واستقل هو بالسبعة الباقية .

منهج المنار

يقوم تفسير المنار على ثلاثة رجال أولهم : جمال الدين الذي وضع فكرة إصلاح المجتمع الإسلامي بعودة المسلمين إلى منابع الدين الصافية الخالصة من شوائب البدع والعادات .

وثانيهم : الإمام محمد عبده الذي باشر تطبيق هذه النظرية ونحا بالتفسير هذا المنحى الاجتماعي ، يربط الدين بالمجتمع ، وقد أتم منه قرابة أربعة أجزاء من القرآن .

وثالثهم : الشيخ رشيد رضا وهو الذي اضطلع بالعبء الأكبر فيه حيث حرر الجزء الذي فسره الإمام وقام على نشره وبدأ من حيث انتهى الإمام يكمل ما بدأه وانتهى به إلى سورة (يوسف) . وهو بهذا الجهد ، جدير بأن ينسب المنار إليه . .

وكان الشيخ رشيد ـ بحق ـ وارث علم الإمام فتجلت في تفسيره روح الإمام ممتزجة بروحه ، فمصدرهما واحد وهو القرآن يفسر بعضه بعضا ، والمأثور عن النبي وصحبه ، ثم العقل المتحرر من تقليد المفسرين .

وهدفهما واحد وهو فهم الكتاب من حيث هو دين يرشد الناس إلى ما فيه سعادتهم في الدنيا والآخرة .

ومنهجهما واحد وهو :

١ ــ عدم التقيد بأقوال المفسرين السابقين في كثير مما ذهبا إليه[١] . .
٢ ــ لا يحكمان العقيدة في النص ، وإنما يحكمان النص في العقيدة .
٣ ــ عدم الخوض في الإسرائيليات أو تعيين المبهمات .
٤ ــ رفض الاعتماد على الأحاديث غير الصحيحة ، وحرية فهم الصحيح منها إذا عارض منطوقها ما ذهبا إليه في تفسير النص القرآني[٢] .
٥ ــ شرح الآيات بأسلوب سهل يبين هداية القرآن وحكمة تشريعه في معالجة أمراض المجتمع .
٦ ــ توسع الشيخ رشيد بعض الشيء فيما استقل بتفسيره ، فيما يتعلق بالآية من

---

(١) انظر آية ٢٧٥/ البقرة .
(٢) الأعراف /٢٧ .

السنة الصحيحة ، وعرض مسائل الخلاف بين العلماء[1] . والاستطراد في علاج بعض المشكلات الاجتماعية .

هذا . . وقد تخرج في هذه المدرسة طبقة من المفسرين أثروا هذا الاتجاه من أمثال المرحوم الإمام محمد مصطفى المراغي في دروس تفسيره . والمرحوم الامام الشيخ محمود شلتوت فيما خلفه من دروس التفسير المذاعة ، والمدونة .

الاتجاه العلمي في التفسير

ليس هذا الاتجاه وليد العصر الحديث ، وإنما هو اتجاه توجه إليه بعض المفسرين القدامى ، ولعل الفخر الرازي من أقدم هؤلاء المفسرين الذين عنوا في تفسيرهم بهذه الناحية في نطاق علوم عصره من رياضية وطبيعية وفلكية .

ووقف العلماء من هذا الاتجاه بين مؤيدين ، ومعارضين فممن مال إليه وحضّ عليه الإمام الغزالي في كتابه (جواهر القرآن) فقد بين فيه كيف تشعبت العلوم كلها من القرآن ، ويريد بالعلوم العلوم الدينية والدنيوية واللغوية ، والعلوم التي كانت واندرست والعلوم التي هي كائنة ولا يعرفها الناس ، والعلوم التي ستكون فيها بعد . كل هذه العلوم عند الغزالي ليست خارجة عن القرآن بل هي مغترفة من بحاره .

وينحو هذا المنحى أيضا جلال الدين السيوطي في كتابه (الإكليل في استنباط التنزيل) فيسوق من الآيات والأحاديث والآثار ما يستدل به على أن القرآن مشتمل على كل العلوم .

---

(١) ١٨٠/ البقرة ، ٤٣/ النساء .

أما من عارض هذا الاتجاه فهو الإمام الشاطبي في كتابه (الموافقات) فقد عرض لحجج المؤيدين بالإبطال وبخاصة تفسيرهم لقوله تعالى ﴿ مَّا فَرَّطْنَا فِي ٱلْكِتَٰبِ مِن شَيْءٍ ﴾ فهو يرى هذا العموم فيما يتصل بأصول الهداية ليس غير . .

وناهض هذا الاتجاه أيضا ابن القيم ، وهاجم المجاز الذي بني عليه هذا الاتجاه وسماه (الطاغوت الثالث) .

والجديد في الأمر أن هذا الاتجاه قديما ، وإن لم ينفسح له مجال الانتشار لما لقي من المعارضة ، فقد راج في العصر الحاضر وانبرى للدفاع عنه مؤيدوه ، بل راحوا يهاجمون التفسير القديم والمفسرين الأولين .

وكان على رأس الداعين إليه حديثا ـ وإن لم يحاوله ـ مصطفى صادق الرافعي في كتابه (إعجاز القرآن) حيث يقرر بأن القرآن بآثاره النامية معجزة أصلية في تاريخ العلم كله على بسيط هذه الأرض من لدن ظهور الإسلام إلى ما شاء الله . . وأن القرآن أشار إلى نشأة كثير من العلوم بقوله تعالى ﴿ سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِي ٱلْآفَاقِ وَفِيٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ ﴾(1) . ولو جمعت أنواع العلوم الإنسانية كلها ما خرجت في معانيها عن الآفاق والأنفس . . وكلما تقدم النظر وتوافرت آلات البحث ظهرت حقائق القرآن الطبيعية ناصعة في تلك الآفاق . .

وينحاز إلى هذا الاتجاه ـ في محاولة تفسيرية ـ المرحوم الدكتور عبد العزيز اسماعيل الطبيب المعروف في كتابه (الإسلام والطب الحديث) حيث يقرر أن كثيرا من آيات القرآن لا يُفْهم شيئا من معناها الحقيقي إلا مَنْ درس العلوم الحديثة . . كما يؤكد أن العلم الحديث كشف عن معنى بعض الآيات ، وسيكشف

---

(1) فصلت /53 .

الباقي منها كلما تقدمت العلوم ، ثم يأتي وقت يكون فيه العلماء الماديون أقرب الناس إلى الدين .

الجواهــر : الشيخ طنطاوي جوهري ت ١٣٥٨ هـ - ١٩٤٠ م

وكان من تمام هذه المحاولة كتاب (الجـواهر في تفسـير القرآن الكـريم) للمرحوم الشيخ طنطاوي جوهري .

ابتدأ المؤلف هذا التفسير منذ كان مدرسا بمدرسة دار العلوم وأمّل منه أن يكون باعثا للأمة على درس العلوم والتفـوق فيها ليكـون من أبنائهـا من يفوق الفرنجة في الزراعة ، والطب ، والمعادن والحساب والهندسة ، والفلك وغيرها من العلوم والصناعات . . ويرى أن الاشتغال بهذه العلوم أفضل من الاشتغال بعلوم الفرائض وينحى بالـلائمة عـلى المفسرين السـابقين لإهمـالهم هذه العلوم عـلى أهميتها ، وأنه بهذا التفسير يمحو وصمة التقصير في كتب المفسرين السابقين .

منهجــه

١ ـ يفسر الآيات تفسيرا لفظيا مختصرا عـلى غرار مـا جاء في تفسيـرها في كتب الأقدمين .

٢ ـ يتجاوز هذا التفسير اللفظي على عجل ليدخل في أبحاث علمية مستفيضة يسميها هو (لطائف أو جواهر) وقد لا تمت إلى النص بصلة

٣ ـ يجمع في هذه المباحث العلمية أفكار علماء الشرق والغرب ليبين للناس أن هذه

المعارف والعلوم قد سبق إليها القرآن بقرون متطاولة[1] .

٤ ــ يفسر آيات القرآن تفسيرا علميا يقوم على نظريات حديثة وعلوم جديدة لم يكن للعرب عهد بها من قبل[2] .

٥ ــ يستشهد أحيانا على ما يقول بما جاء في إنجيل (برنابا) لأنه في نظره ـ أصح الأناجيل .

٦ ــ يستعين على إيضاح بعض حقائق العلوم بالرسم والصور مما يجعل تفسيره أشبه بكتاب من كتب العلوم المدرسية .

ويرى كثير من العلماء بأن الشيخ جوهري قد أساء إلى القرآن وتفسيره إساءة بالغة بهذا المسلك ، حيث حمل آيات القرآن مالا تحتمل ، وتكلف من ضروب التأويل ما يذهب بجمال القرآن وجلاله .

ولعل هذا المنزع هو ما حمل المملكة العربية السعودية على مصادرة هذا الكتاب ، وعدم السماح بدخوله البلاد ، كما حمل كثيرا من المثقفين على الإعراض عنه والاستخفاف بما جاء فيه .

ويكفي في سخف تأويله أنه يربط بين سورة (الزلزلة) وبين حوادث الزلزال الذي وقع في إيطاليا مؤخرا ، وما وصل إليه العلم الحديث من استخراج دفائن الأرض من فحم وبترول وآثار القدماء المصريين .

وليست محاولة الشيخ طنطاوي هي آخر محاولة في هذا الاتجاه ، بل ما زال

---

(١) راجع تفسيره في البقرة /٦٧ ، والرحمن /١٥ ، ٣٥ .
(٢) راجع تفسيره في الأنبياء /٣٠ .

كثير وكثير من أساتذة العلوم والطب ينحون هذا المنحى فيرون أن الاستعانة بالعلوم الحديثة في فهم آيات القرآن مفيدة للمؤمنين ، وقد تكون مقنعة لغيرهم ممن يشرح الله صدره للإيمان ، فضلا عن أنها تهيء المسلم المعاصر للإيقان بأن ليس شيء من مبادىء العلم يتناقض مع ما ذكر في القرآن الكريم . . ويقدمون نماذج في هذا الاتجاه بتفسيرهم لقوله تعالى ﴿وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ ﴾[1] .

ولعل كثرة النقد لمسلك الشيخ جوهري توحي بأن هذا الاتجاه مذموم في تفسير القرآن ، والحق ليس كذلك ، لأن ما عيب على الشيخ إنما هو تكلفه البغيض ، وسوء تأويله .

وليس هذا الاتجاه على إطلاقه مذموما ، فالقرآن على الرغم من ثباته يسير مع كل زمان دائماً ، مع الرقي العلمي جنبا إلى جنب يجمع الماضي البعيد والحاضر القريب ، ويجمع الحاضر والمستقبل يفسره علم اليوم . ويؤيده ما يكشف عنه البحث في الغد ، وفي هذا دليل على القوة والإعجاز[2] .

وقد يحكم هذا المنهج ضابط سبق إليه فضيلة الإمام المراغي في مقدمة كتاب (الإسلام والطب الحديث) وهو : (ألا نجر الآية إلى العلوم كي نفسرها ، ولا العلوم إلى الآية ، ولكن إن اتفق ظاهر الآية مع حقيقة علمية ثابتة فسرناها بها) .

الاتجاه الأدبي في التفسير

ليس هذا الاتجاه جديدا ـ أيضا ـ على مناهج التفسير ، فربما كان الزمخشري

---

(١) راجع مجلة من ثمار الفكر الموسم الخامس ١٩٧٩ ـ العلم الحديث في خدمة فهم القرآن : د . عبد الحافظ حلمي عميد كلية علوم عين شمس ـ إصدار جامعة قطر

(٢) المرجع السابق .

أول السابقين إليه حين أبرز جوانب الإعجاز البلاغي في القرآن الكريم .

ولكن الجديد في هذا الاتجاه ـ كما حدده الشيخ أمين الخولي ـ أن الدراسة الأدبية للقرآن هي الغرض الأول من أغراض التفسير قبل بيان الأحكام والتشريع والعقائد والأخلاق . وتلك الدراسة الأدبية يجب أن يقوم بها الدارسون وفاء لحق هذا الكتاب ، ولو لم يقصدوا الإهتداء به أو يعتقدوا ما فيه ، فالقرآن كتاب الفن العربي الأقدس سواء أنظر إليه الناظر على أنه كذلك في الدين أم لا ؟ . ويجب أن تسبق هذه الدراسة كل أغراض التفسير لأن هذه الأغراض لا تتحقق على وجهها إلّا بعد هذه الدراسة وهذه الدراسة هي الجديرة بأن تسمى باسم (التفسير) على أن تكون صحيحة المنهج كاملة المناحي متسقة التوزيع .

وهذا المنهج يقتضي أن يفسر القرآن موضوعا موضوعا ، بأن تجمع الآيات الخاصة بالموضوع الواحد جمعا احصائيا مستقصيا ، ويعرف ترتيبها الزمني ومناسبتها وملابساتها الحافة بها ، ثم ينظر فيها بعد ذلك لتفسر وتفهم فيكون ذلك التفسير أهدى إلى المعنى وأوثق في تحديده . .

ولم يترك الرجل عملا كاملا في هذا الاتجاه ، غير أن الذين تولوا هذه الطريقة من بعده حاولوا أن يفسروا بعض السور القصار متأثرين بمنهجه ومتبعين سبيله وسموا ما صنعوه بالتفسير البياني .

التفسير البياني : بنت الشاطىء

وكانت رائدة هذا التفسير البياني زوجه (الدكتورة عائشة عبد الرحمن) المشهورة (ببنت الشاطىء)[1] . فقد اهتمت في تفسيرها بالبيان العربي ، وتذكر

(١) استاذ الدراسات القرآنية واللغوية بآداب القاهرة ، وتربية عين شمس .

في المقدمة أنها اهتدت إلى هذه الطريقة لمعالجة مشكلاتنا في حياتنا الأدبية واللغوية .

وترى أن الدراسة الجامعية قد شغلت في الدرس الأدبي بالمعلقات ، والنقائض والمفضليات ، ومشهور الخمريات ، والحماسيات عن الاتجاه إلى القرآن . . وهو الكنز الغالي في تلك الدراسة ، وقل فينا من حاول أن ينقله إلى مجال الدراسة الأدبية الخالصة التي قصرناها على دواوين الشعر ونثر أمراء البيان . .

في ظلال القرآن : سيد قطب

ومن المحاولات الناجحة والأعمال الجيدة في ميدان التفسير الاجتماعي والأدبي كتاب (في ظلال القرآن) للمرحوم الشهيد سيد قطب الذي فلسف الفكر الإسلامي وكشف عن مفاهيمه الصحيحة في وضوح وجلاء والكتاب تفسير كامل للحياة في ضوء القرآن وهدى الإسلام .

منهجه

١ ــ يحدد في مقدمة السورة المحور الذي تدور حوله أهدافها ومقاصدها في رباط محكم بين أجزائها .

٢ ــ يشرع في تفسير جملة من الآيات ذات غرض واحد .

٣ ــ يذكر المأثور الصحيح أولا ثم يتجه إلى إيقاظ الوعي وتصحيح المفاهيم وربط الإسلام بالحياة .

٤ ــ يستعين بفنية القرآن في التعبير والتصوير على امتلاك المشاعر وتوجيه

الأحاسيس نحو منهج الله الذي رسمه للبشرية في كتابه الكريم حلا لمشكلاتها ودواء لأدوائها وعلاجا لأسقامها ، وأن الاحتكام إليه ليس نافلة حياة ، بل فريضة دين .

والكتاب يقع في ثمان مجلدات وقد طبع عدة طبعات لرواجه وشدة الإقبال عليه .

الملامح العامة للتفسير في هذا العصر

من خلال العرض السابق لاتجاهات التفسير الاجتماعية والعلمية والأدبية نستطيع أن نلم بجملة من الملامح المميزة للتفسير في هذا العصر .

١ ـ اعتماد أغلبه على أقوال المفسرين القدامى مع اختيار أدناها ملاءمة للعصر .

٢ ـ حرية الرأي في الاختيار بين أقوال السابقين أو العدول عنها جملة إلى ما يراه المفسر أصوب في نظره .

٣ ـ التركيز بصفة أساسية على ربط الحياة المعاصرة بالدين واستكشاف وسائله في هداية البشر ، وبيان مواضع العظة العبرة فيه ، وإظهار أسرار شرائعه وحكمتها .

٤ ـ تأكيد العلاقة بين الدين والعلم الحديث ، وبيان صلة القربى بينهما ، فلا صدود عن العلم ، ولا مصادمة لما صح من قواعده ونظرياته على تفاوت بين مغال ومعتدل .

٥ ـ الاقتصار منه على ما ينفع الإنسان ويفيده في معاشه ومعاده ، دون خوض فيما استأثر الله بعلمه ولا حاجة للناس به .

٦ ـ تخليصه من الحشو والاستطراد وما احتف به من اسرائيليات ومجادلات عقيمة أبعدت أهل الدين عن الدين وشغلتهم عن تفسير القرآن بما لا يمت إلى روحه ومعناه .

٧ ــ الاهتمام بعلاج المشكلات الاجتماعية ، والقضايا المعاصرة على هدى القرآن دون اللجوء إلى الحلول المستوردة .

٨ ــ يسر العرض ، وقرب المأخذ ، وسهولة الأسلوب ، وانتقاء العبارة مما يظهر روعة القرآن وعظمة أهدافه .

٩ ــ اتسامه أحيانا بالنقد اللاذع للمفسرين القدامى واتهامهم بالتقصير ، وسوء المنهج .

١٠ ــ ظهور بعض النزعات الإلحادية ـ في محاولات فاشلة لم تر النور ـ ممن تناولوا التفسير على نقص في التأهيل ، ونية الكيد للإسلام .

ومن تلك النزعات تناول الحدود الواردة في القرآن كحد السّرقة ، وحد الزنا بحمل الأمر في قوله تعالى ﴿ فَٱقْطَعُوٓاْ أَيْدِيَهُمَا ﴾ ، والأمر في قوله تعالى ﴿ فَٱجْلِدُواْ كُلَّ وَٰحِدٍ مِّنْهُمَا مِاْئَةَ جَلْدَةٍ ﴾ بحمله على الإباحة لا الوجوب ، نظير الأمر في قوله تعالى ﴿ يَـٰبَنِىٓ ءَادَمَ خُذُواْ زِينَتَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ ﴾ ، فلا يكون القطع ، ولا الجلد حدا مفروضا ، لا يجوز العدول عنه في جميع الحالات ، بل يكون القطع في السرقة هو أقصى عقوبة فيها ، ويجوز العدول عنه في بعض الحالات إلى عقوبات أخرى رادعة ، ويكون شأنه في ذلك شأن المباحات التي تخضع لتصرف ولي الأمر ، وتقبل التأثر بظروف كل زمان ومكان ، وهكذا الأمر في حد الزنا سواء أكان رجما أم جلدا .

وقد قوبلت هذه النزعات الضالة بإنكار شديد من العلماء حراس الشريعة ، وردود مفحمة من أهل الاختصاصات[١] .

---

(١) راجع تلك الردود في العدد /٣ ، ٤ المجلد /٢ من مجلة نور الاسلام ١٣٥٠ هـ .

المنهج الأمثل في تفسير القرآن

لقد حاول كثير من علماء العصر الحاضر أن يرسموا لتفسير القرآن منهجا مثاليا أو قريبا منه :

ـ يأخذ بالرواية الصحيحة من تفسير القدماء .
ـ والرأي المعتدل من آراء المعاصرين في ضوء معطيات النص لغة وسياقا .
ـ وحسن التناول لمشكلاتنا المعاصرة على هدى الإسلام .
ـ وإبراز مواطن العظة والعبرة في توجيهات القرآن .
ـ والاقتصار منه على النافع المفيد دينا ودنيا .
ـ مع يسر العرض وسهولة الأسلوب بحيث لا يستهجنه مثقف ولا يعز على غير مؤهل .

ولقد ترسم هذا المنهج (مجمع البحوث الإسلامية بالأزهر) فأخرج تفسيره المسمى (بالتفسير الوسيط) على يد نخبة مختارة من العلماء المؤهلين بمختلف الثقافات .

وقد لقي هذا التفسير إقبالا من المثقفين ، وعامة الجماهير فلم يكد يخرج الجزء منه حتى ينفد .

وما زال المجمع يوالي نشره تباعا في أجزاء ، وقد قارب الآن على التمام .

هذا بجانب المحاولات الفردية التي يقوم بها أفاضل العلماء كدراسات في التفسير للدكتور مصطفى زيد ، وتفسير الدكتور محمد البهى لبعض سور القرآن ، وأحاديث الشيخ محمد متولي الشعراوي في التفسير ـ ولم تجمع بعد ـ وغير هؤلاء كثير ممن شرح الله صدورهم لفهم كتابه ، وبيان هدايته .

هذا . . وسيظل القرآن معطاء لكل من يتناوله ، وفي أي غرض يريده ، لا ينضب معينه ولا تنتهي عجائبه حتى يرث الله الأرض ومن عليها .

والله نسأل أن يهيء من عباده من يحسن تفسير كتابه تفسيرا يكون جديرا بالانتساب إليه ، إنه نعم المولى ونعم النصير والحمد لله رب العالمين .



المراجع

(أ)

١ ـ الإتقان في علوم القرآن : جلال الدين السيوطي

٢ ـ الأسفار المقدسة في الأديان السابقة : د . علي عبدالواحد وافي

٣ ـ إظهار الحق : للشيخ رحمة الله الهندي

٤ ـ إعجاز القرآن : مصطفى صادق الرافعي

(ب)

٥ ـ البرهان في علوم القرآن : للإمام بدرالدين الزركشي

(ت)

٦ ـ تاريخ القرآن : أبو عبد الله الزنجاني

٧ ـ تأويل مشكل القرآن : لابن قتيبة

٨ ـ ترجمة المعاني القرآنية : د . محمد السنباطي

٩ ـ تفسير ابن جرير : ابن جرير الطبري

١٠ ـ تفسير ابن عربي : محي الديـن

١١ ـ تفسير ابن كثير : عماد الدين بن كثير

١٢ ـ تفسير أبي السعود : أبو السعود العمادي

١٣ ـ تفسير البحر المحيط : لأبي حيان أثير الدين

١٤ ـ تفسير البيضاوي : ناصر الدين البيضاوي

١٥ ـ تفسير التستري : ابن سهل التستري

١٦ ـ تفسير جزء (عم) : للإمام محمد عبده

١٧ ـ تفسير الخازن : علاء الدين أبو الحسن

١٨ ـ تفسير روح المعاني : شهاب الدين الألوسي

١٩ ـ تفسير القرطبي : أبو عبد الله القرطبي

٢٠ ـ تفسير الكشاف : لجار الله الزمخشري

٢١ ـ تفسير النسفي : أبو البركات محمود النسفي

٢٢ ـ تفسير النيسابوري : نظام الدين الأعرج

٢٣ ـ التفسير ورجاله : الشيخ محمد الفاضل بن عاشور

٢٤ ـ التفسير والمفسرون : د . محمد حسين الذهبي

٢٥ ـ تهذيب التهذيب : ابن حجر العسقلاني

(خـ)

٢٦ ـ خلاصة تذهيب الكمال : صفى الدين الخزرجي

(د)

٢٧ ـ دراسة الكتب المقدسة : د . موريس بوكاي

٢٨ ـ دراسات في التفسير : د . مصطفى زيد

٢٩ ـ دراسات في القرآن : د . السيد أحمد خليل

(س)

٣٠ ـ ساعات بين الكتب : عباس محمود العقاد

٣١ ـ سيرة ابن هشام : تحقيق مصطفى السقا

(ش)

٣٢ ـ شذرات الذهب : عبد الحي بن العماد

(ص)

٣٣ ـ صحيح البخاري : للامام البخاري

(ض)

٣٤ ـ ضحى الإسلام : أحمد أميــن

(ط)

٣٥ ـ الطبقات الكبرى : لابن سعد

(ف)

٣٦ ـ فتح الباري شرح صحيح البخاري : ابن حجر

٣٧ ـ فجر الإسلام : أحمد أميــن

٣٨ ـ الفصل في الملل والأهواء والنحل : علي بن حزم

٣٠ ـ الفصوص : ابن عربي

٤٠ ـ فضائح الباطنية : أبو حامد الغزالي

(ق)

٤١ ـ قل يا أهل الكتاب : د . رؤوف شلبي

(ك)

٤٢ ـ كتاب المصاحف : لابن أبي داود

(ل)

٤٣ ـ اللآلىء الحسان في علوم القرآن : د . موسى لاشين

٤٤ ـ لسان العرب : ابن منظور

(م)

٤٥ ـ مباحث في علوم القرآن : د . صبحي الصالح

٤٦ ـ مجلة ثمار الفكر : جامعة قطر

٤٧ ـ المدخل لدراسة القرآن : د . محمد أبو شهبة

٤٨ ـ المرشد الوجيز : للإمام أبي شامة

٤٩ ـ معاول الهدم والتدمير : لإبراهيم الجبهان

٥٠ ـ من قضايا القرآن : د . اسماعيل الطحان

٥١ ـ مناهل العرفان في علوم القرآن : محمد عبد العظيم الزرقاني

(ن)

٥٢ ـ النبأ العظيم : د . محمد عبد الله دراز
٥٣ ـ النشر في القراءات العشر : ابن الجزري



فهـــرس الموضوعـــــات

الموضوع — الصفحة

(٣) تنزلات القرآن : كيفيتها وحكمتها

(٤) ثبوت القرآن وتواتره لفظا ومعنى

● ● ● ● ●

الفصل الثاني : إعجاز القرآن : وجوه وآراء

الفصل الثالث : ترجمة القرآن : أنواع وأحكام

● ● ● ● ● ●

الفصل الرابع : تفسير القرآن : مناهج ورجال

رابعا : التفسير في عصر التدوين

ثالثا : الصوفية

● ● ● ● ● ●

الاتجاهات العامة للتفسير في العصر الحاضر

● ● ● ● ● ●